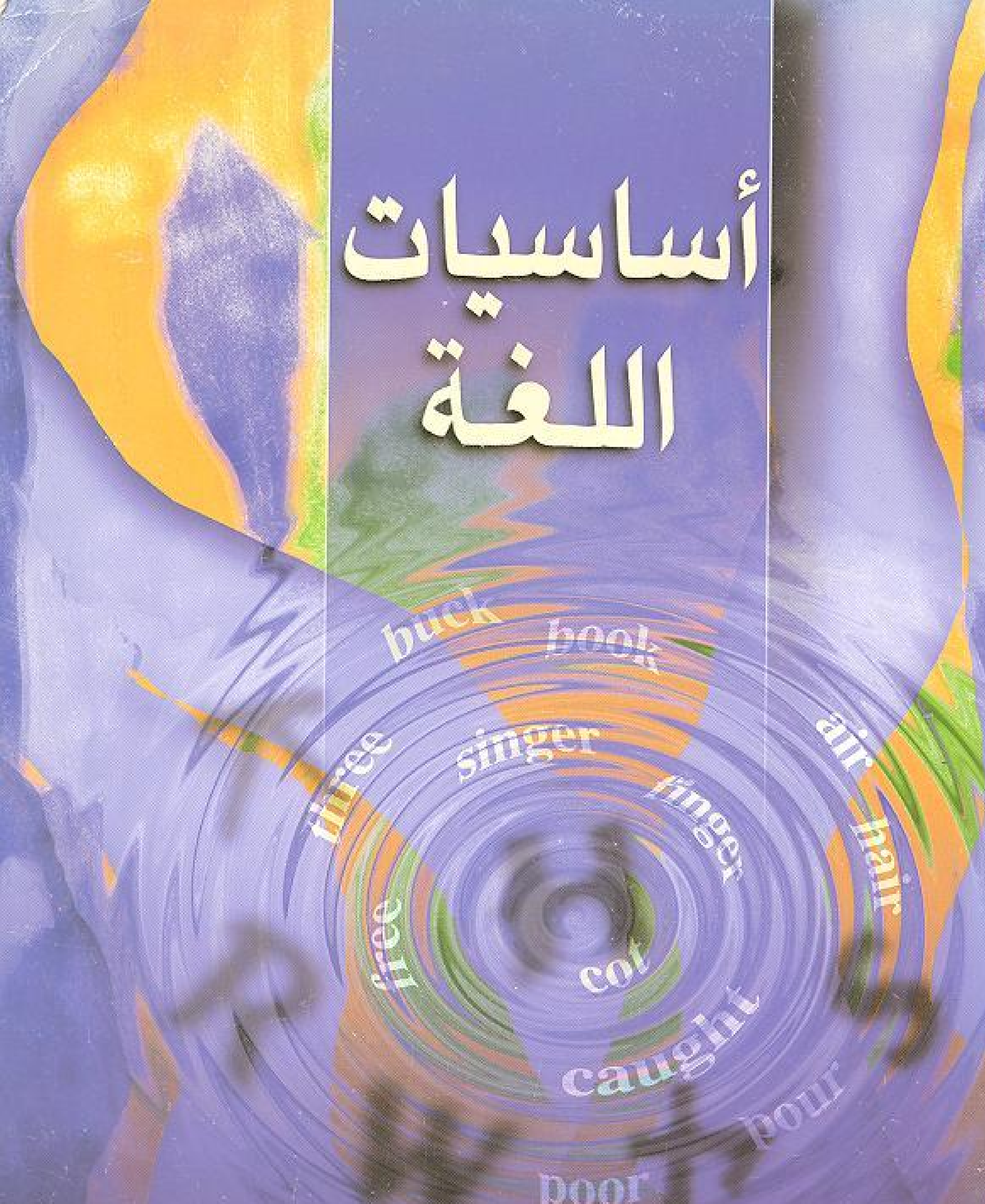
المجلس الأعلى للثقافة

أساسيات اللغة



المشروع القومي للترجمة

تأليف : ر . ل . تراسك

ترجمة : رانيا إبراهيم يوسف

381

المشروع القومى للترجمة

أساسيات اللغة

تأليف : ر . ل . تراسك

ترجمة : رانيا إبراهيم يوسف

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٢

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٣٨١
– أساسيات اللغة
– ر . ل . تراسك
– رانيا إبراهيم يوسف
– الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :

LANGUAGE : The Basics

تأليف : R. L. Trask

صادر عن : ROUTLEDGE

1999

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

المحتويات

قائمة الأشكال

تقديم

يهدف هذا الكتاب إلى إثارة انتباه القارئ إلى موضوع اللغة البشرية ، تلك السمة الفريدة التي تميزنا كبشر ، يعد هذا الموضوع – من وجهة نظري – من أجدر الموضوعات التي يجب أن نوليها اهتمامنا ، ولذلك فإنني آمل أن أقنعك بأهميته ، بل أحفزك على التطرق إلى مزيد من القراءات في الأمر ذاته .

لقد تم اختيار ثمانية جوانب مختلفة لدراسة اللغة ، وعرضت الاكتشافات القديمة والحديثة التي قام بها دارسو تلك الجوانب ، كل في تخصصه ، تمت بعض هذه الاكتشافات منذ عقود عدة ، ولكن كان أغلبها اكتشافات حديثة ، بل حديثة للغاية حتى إنه من الصعب إيجاد ذكر عنها في كتب أخرى .

عند قراءتك لهذا الكتاب ستعرف الأسباب التي تجعل من اللغة البشرية لغة فريدة ، وستكتشف أنك تعرف الكثير من قواعد اللغة الإنجليزية دون وعي منك بذلك ؛ لأنك – لسبب بسيط – لا تعرف الطريقة التي تصاغ بها تلك القواعد ، كما ستعي أن اللغة الإنجليزية يتم تحدثها بطرق مختلفة في أماكن مختلفة ، بل في نطاق المكان الواحد يتباين نطقها من شخص إلى آخر ، إنك ستدرك أن اللغة تتغير سريعًا ومن وقت إلى آخر وسيظهر لك أسباب هذا التغير وما يترتب عليه من نتائج ، وستتأكد تمامًا من أن اللغة الإنجليزية تواقة إلى اقتراض الكلمات من لغات عدة ، وستشاهد حربًا من الحروب الضارية ، تلك التي قامت بشأن الصوت "H" ، وسترجع بالزمن لتعرف أصل اللغة الإنجليزية ، كما ستدرك علاقة المخ باللغة ومدى تأثيره عليها إذا ما أصابه عطب أو تلف ما ، وستتعرف على أصناف من البشر لا يمكنهم التعرف على أنفسهم إذا ما شاهدوا صورهم الفوتوغرافية ، وأصناف أخرى يصفون رائحة العشب بأنها قرمزية ، كما ستعرف المراحل التي يمر بها الطفل في ركاب تعلمه للغة ، وتعرف مدى تأثير ظروف النشأة غير الطبيعية لبعض الأطفال على اكتسابهم للغة ، ومدى تأثير الجينات في ذلك الاكتساب .

عند انتهائك من الكتاب ستكون قد عرفت شيئًا عن "لغة الحماة" الأسترالية ، عن الإجراءات الغريبة التي قام بها النرويجيون من أجل لغتهم ، وستدرك سبب اختلاف

السباك عن المحامي ، وستعي حقيقة الكلمة "ثلج" في لغة شعب الإسكيمو ، كما أنك ستتمكن من التعبير عن معان غير موجودة ، وستجد أنه من المستحيل طرح بعض الأسئلة باللغة الإنجليزية ، كما ستكتشف أنه من الممكن لكلمة عادية مثل "ممرضة" أن تحدث ضجة غير عادية في إحدى المناسبات العامة .

أخيراً ، أود أن أنوه إلى أنني أضفت بعض الحواشي التي تفيد في شرح بعض المعاني التي قد يجد القارئ صعوبة في تفسيرها ، وأرجو أن يستمتع كل القراء بهذا الكتاب كما استمتعت بقراءته وترجمته .

المترجمة

مقدمة المؤلف

ما الذي يجعل من اللغة البشرية ظاهرة فريدة في نوعها ؟

هل يتحدث النساء بطريقة مغايرة لتلك التي يتحدث بها الرجال ؟

ترى ما معنى "المعنى" ؟

هل هناك أشكال للإنجليزية أفضل من غيرها ؟

ما الوظيفة التي يقوم بها اللغويون تحديداً ؟

يقدم كتاب "أساسيات اللغة" عرضاً لموضوع اللغة ، فهو يمد الدارسين والقراء بمعلومات أولية – لا تخلو من كونها أساسية – عن اللغة ، إنه بأسلوبه الشيق الممتع يعرض الموضوعات في عجالة ويقف وقفة طويلة ليركز على تفسير المصطلحات اللغوية الأساسية .

يحفز كتاب "أساسيات اللغة" القارئ على التفكير في أمر اللغة ويدفعه لأن يعيد النظر في الأخطاء الشائعة التي درج عليها متحدثو اللغة ، ومن هنا يمكنه معرفة الوظيفة التي يقوم بها اللغويون أو علماء اللغة ، يصلح هذا الكتاب لكل الدارسين في المدارس والمعاهد والجامعات ، كما أنه مقتنى ضروري لكل فرد يتهمه الآخرون باستخدام المصدر المنشطر .

الفصل الأول

تفرُّد اللغة البشرية

إذا سُئلت عن الصفة التي تميز البشر بشكل قاطع عن سائر المخلوقات على كوكب الأرض، ماذا ستكون إجابتك ؟ الحب ؟ الحرب ؟ أم الفن والموسيقا ؟ أم التكنولوجيا ؟ ربما تكون إحدى هذه الخيارات هي الإجابة، لكن معظم الناس الذين يمعنون النظر في هذا السؤال يأتون بإجابة واحدة ، وهي : اللغة.

تعد اللغة الإنسانية السمة الوحيدة الأكثر تمييزا لنا كبشر، وهذا ما سوف نحاول إثباته فيما بعد، إن ملكة اللغة التي عادة ما نأخذها كقضية مسلم بها تحوى عدداً من الخصائص الملحوظة بل المدهشة. فبدون اللغة كان من الصعب علينا خلق العالم الإنساني المتعارف عليه، إذ إن تقدمنا في كل شيء بدءا من الموسيقا وانتهاء بالحروب كان يصعب تحقيقه في غياب اللغة، تلك الخاصية الفريدة التي تجعل منا بشراً.

قد يبدو هذا التفرد غير واضح منذ الوهلة الأولى؛ فكل مخلوق تقريبا على وجه الأرض لديه نوع ما من نظام الإشارة، إنها طريقة تمكنه من التواصل مع أفراد فصيلته وكذا أفراد الفصائل الأخرى، فالصراصير تسقسق والطيور تغرد والقردة توقوق وحشرات الليل تومض وحتي النمل يترك آثارا ذات رائحة حتي يتسنى لجماعاته اتباع بعضها بعضاً، ولاشك أنك مقتنع بتواجد بعض الإشارات والإيماءات الخاصة بقططك والتى تعني "أنا جوعان" أو "أريد الخروج"، علاوة على ذلك، كشفت الدراسات الحديثة لعلماء الحيوان عن كون النظام الإشارى أكثر من شيق ، وهذا ما يفوق المتعارف عليه، فعلى سبيل المثال قد يتطرق إلى أسماعك الآن أن فصيلة معينة من الحيتان مشهورة بأنها تغني أو أن النحل يؤدى رقصات معينة تعلن عن مكان تواجد الرحيق لأفراد الخلية.

إن المذهل في مثل هذه الاكتشافات هو الحقيقة القائلة بأن اللغة البشرية مختلفة تمام الاختلاف عن كل الأنظمة الإشارية ، مما يضطرنا إلى معاملتها كشيء مختلف، كظاهرة فريدة حقا.

سوف نحاول من خلال هذا الكتاب شرح بعض الأشياء المذهلة التى اكتشفناها بشأن اللغة ، وسنبدأ ببعض الخصائص الأساسية والتى تُعرف فى كثير من الأحوال بالخصائص الشكلية للغة، وهى تلعب دورا حيويا فى وجود اللغة.

ثنائية التنميط :

يعد الكلام الوسيلة الطبيعية للتعبير عن اللغة لدى جميع الناس معظم الوقت، فكيف نتكلم ؟ إنه شيء يسير : نسمح لهواء الرئتين بالمرور عبر أفواهنا وفى ذات الوقت نحرك أفواهنا بطرق مختلفة من أجل إحداث أصوات الكلام الصامتة والصائتة، يتكون كل مقطع ننطقه من تتابع أصوات الكلام الواحد تلو الآخر، هنا يبرز سؤال مهم : كم يبلغ عدد أصوات الكلام المختلفة التي يمكنك إحداثها ؟ أي الأصوات المتباينة بدرجة كافية لتجعل الشخص الذى تتحدث إليه لا يبذل جهدا في تمييزها، لا توجد إجابة شافية كافية لهذا السؤال فهى تعتمد على مدى الاختلاف الذى تريد إظهاره ، ومع ذلك فالعدد ليس كبيرا بالضرورة، فإذا لم تكن قد حصلت على تدريب متخصص فى علم الصوتيات (علم دراسة أصوات الكلام) ستجد أنه من الصعب إحداث عدد مائة من الأصوات المفردة المختلفة (تذكر أننا نتحدث عن الأصوات المفردة لا عن تتابع الأصوات)، وفى الحقيقة تشتمل كل لغة بشرية على عدد أقل من هذا بكثير، وفيما يلى سنلقى نظرة على اللغة الإنجليزية.

سنأخذ كلمة قطة "cat" كمثال، كم صوتا تشتمل عليه هذه الكلمة ؟ إنها تتكون من ثلاثة أصوات : صوت k، صوت æ، صوت t، لكل صوت من هذه الأصوات رمز معين : /k/، /æ /، /t/ على الترتيب ، تستخدم القطع المستطيل لتوضيح أننا نتحدث عن أصوات محددة للغة بعينها وهى هنا اللغة الإنجليزية، ويطلق على هذه الأصوات المحددة فونيمات(1) اللغة ، لذا طبقا لفونيمات اللغة الإنجليزية فكلمة cat يرمز لها /kæt/.

إذا سألك شخص ما عن معنى كلمة /kæt/ فإنك لن تجد أدنى صعوبة في الإجابة، ولكن افترض أن السؤال كان هذه المرة عن معنى الفونيم /k/، ستكون الإجابة مستحيلة لأن الفونيم /k/ ليس له معنى في الإنجليزية وكذلك باقى الفونيمات.

(١) الفونيم : أصغر وحدة صوتية يمكن فصلها عن الكلام المسموع .

هناك شيء آخر عليك ملاحظته وهو إمكانية إعادة ترتيب تلك الفونيمات العديمة المعنى من أجل إنتاج كلمات مختلفة ، بمعان مختلفة ، فالترتيب /tæk/ يعطي كلمة tack (مسمار صغير) بينما /ækt/ يعطي act (يمثل)، و /æt/ يعطي at (حرف الجر في، إلى، على، من)، و /tækt/ يعطي tact (براعة) و tacked (يلحق). (لاحظ أن كلمتي tact، tacked لهما نفس النطق عند معظم متحدثي الإنجليزية بالرغم من اختلاف حروفهما وتركيباتهما).

لنضف فونيما آخر لمجموعتنا وهو صوت p أو /p/ ، ويمكننا باستخدامه تكوين الكلمات pat/pæt (يضرب بلطف)، tap/tæp (سدادة)، pack/pæk (زمرة)، cap/kæp (غطاء الرأس)، pact/pækt (ميثاق) أو packed (ملأ)، tapped/tæpt (يقرع)، /æpt/ apt (فَطِنٌ)، capped/kæpt (يغطي) وغيرها.

يمكنك ملاحظة ما يحدث : إمكانية إنتاج عدد كبير من الكلمات المختلفة ذات المعنى عن طريق تجميع عدد قليل للغاية من الأصوات العديمة المعنى بطرق مختلفة، يسمى هذا النوع من التركيب "بثنائية التنميط" أو "الثنائية" مراعاة للاختصار، ونجد أن كل اللغات البشرية تتكون بهذه الطريقة ، إذن فالثنائية هي استخدام عدد قليل من العناصر العديمة المعنى من أجل إنتاج عدد هائل من العناصر ذات المعنى.

لماذا يمتلك هذا النوع من التركيب مثل هذه الأهمية القصوى ؟ لكي تتعرف على الإجابة، تخيل البديل ، أي افترض عدم وجود هذه الأصوات عديمة المعنى ليكون لكل صوت مفرد معنى قائم بذاته، ماذا ستكون النتيجة ؟ إنه شيء واضح، سيصبح عدد المعاني المختلفة التي نستطيع أن نعبر عنها أقل من عدد الأصوات المختلفة التي نصدرها، وطبقا لما رأيناه سوف لا يتسنى لنا إصدار أكثر من مائة صوت مختلف وبالتالي ستكون النتيجة لغة محتوية على مائة كلمة تقريبا، هذه هي الطامة الكبرى : تخيل اللغة الإنجليزية وهي لا تحتوي على أكثر من مائة صوت ، إنه ليس ببعيد – بامتلاك هذا العدد المحدود من الكلمات – أن نفتقد القدرة على فعل أغلب الأشياء التي نفعلها باستخدام اللغة الإنجليزية : سوف لا نستطيع شرح ما حدث لسيارتنا من عطل ولا نتمكن من سرد حكايات عن الأرانب والأقزام لأطفالنا كما أننا لن نستطيع تنظيم الانتخابات ولا مناقشة الاتفاقيات ولا التأثير على شخص ما باستخدام ما هو ساحر من الكلمات ، وفوق هذا وذاك سوف لا نتمكن من تأليف كتب عن اللغة.

قد تتساءل عند هذه المرحلة ماذا بعد ذلك ؟ لماذا نصنع كل هذه الجلبة عن الثنائية ؟ أليست هذه هي الطريقة الواضحة لمباشرة الأمور ؟ ربما يكون الأمر كذلك ولكن هنا تكمن العقدة : لا يمتلك أي جنس على وجه الأرض نظاماً إشارياً قائماً على الثنائية فهي صفة خاصة باللغة البشرية. (في الحقيقة تشتمل أغاني الطيور والحيتان على عنصر الثنائية لكنهما لا يحسبا من الأنظمة الإشارية).

السؤال هنا ماذا تفعل المخلوقات الأخرى وهي لا تستطيع التعبير باستخدام الثنائية ؟ إنهم يفعلون الشيء الذي أعلنّا عدم قابلية تحقيقه في اللغة البشرية، أي أن نظامهم الإشاري يقوم على مبدأ "صوت واحد، معنى واحد" فالحيوان يمتلك صوتاً ذا معنى واحداً مثل "هذه أرضي" أو معنى آخر "انظر هناك خطر قادم" ومعان أخرى قليلة. لكن يبقى شئ وهو أن مجموع أعداد الأشياء المتباينة التي يستطيع الحيوان التعبير عنها لا يتعدى ما هو متاح لديهم من أصوات مختلفة، لكي نضع الأمر في صورة تطبيقية نقول : إن عدد الإشارات أو النداءات المستخدمة من قبل أي فصيلة من الفصائل تتراوح عادة ما بين ثلاثة إلى ستة ويستثنى من ذلك القَرْفَت[٢] الذي لديه عدد معين من الإشارات يقارب العشرين أو ما إلى ذلك، وبهذا يتضح حجم الاختلاف، تتجلى بعض الخصائص الهامة للغة – والتي سوف نناقشها فيما بعد – عن طريق ارتباطها بتلك الخاصية الرئيسية.

بهذه المناسبة قد تتساءل عن عدد الفونيمات التي تشتمل عليها اللغة الإنجليزية، فتكون الإجابة أربعون فونيماً أو أكثر، تتسم الإجابة بهذا الغموض لأن متحدثي اللغة الإنجليزية لا يستخدمون أصوات الكلام بصورة متساوية، فعلى سبيل المثال هل تنطق كلمتي **book** (كتاب)، **buck** (ذكر الظبي) بنفس الطريقة أم أنهما مختلفتان في النطق ؟ إن الناس الذين ينطقونهما مختلفتين لديهم حرف صائت لا يملكه أولئك الذين ينطقونهما نفس النطق، ماذا عن **air** (هواء)، **hair** (شَعر) ؟ يمتلك الناس الذين ينطقون هاتين الكلمتين بصورة مختلفة حرف صامت لا يمتلكه أولئك الذين ينطقونهما نفس النطق، ينطبق الأمر ذاته على **"free, three"** (ثلاثة، حر)، **"cot, caught"** (سرير متحرك للأطفال، مَسَك)، **"poor, pour"** (يسكب، فقير)، **"pool, pull"** (يدفع، حوض السباحة)، **"fur, air"** (فراء ، هواء)، بنفس الطريقة يمتلك الناس الذين لا تتقافى لديهم

(٢) قرد أفريقي صغير .

كلمتي "singer, finger" (إصبع، مطرب) حرفا صامتا لا يمتلكه أولئك الذين تتقافى لديهم هاتان الكلمتان. (قد تندهش عندما تعرف أن هناك أناسا يصنعون فروقا أثناء الكلام لا تصنعها أنت أو يخفقون في إحداث فروق تنجح أنت في صنعها، فتلك هي الطريقة التي تسير عليها الأمور)، ومع ذلك فإن عدداً قليلاً جداً من متحدثي الإنجليزية يمتلكون أقل من أربعين فونيماً أو أكثر من خمسة وأربعين.

تتباين اللغات الأخرى في عدد الفونيمات التي تتضمنها، فمن ناحية تحتوى اللغة البرازيلية "بيراها" على عشرة فونيمات فقط (سبعة فونيمات صامتة وثلاثة صائتة) بينما تحتوى بعض اللغات القوقازية على ثمانين فونيمًا على الأقل (أغلبهم من الصوامت) وذلك من الناحية الأخرى، يمثل الرقم المتوسط بين هذين الرقمين حوالي خمسة وعشرين فونيماً ولذلك فالإنجليزية بفونيماتها الأربعين تفوق المتوسط بقليل، لكن بغض النظر عن عدد الأصوات المستخدمة تبنى كل لغة بشرية على مبدأ "ثنائية التنميط"، ذلك المبدأ الذي نتفرد به وبتواجده في عالمنا الطبيعي والذى بدونه لم تظل اللغة كما نعرفها.

اللاحضور والنهايات المفتوحة :

"اللاحضور" هو استخدام اللغة بهدف الحديث عن أشياء غير متواجدة في التو واللحظة، فنحن لا نجد أدنى صعوبة في التحدث عن مباراة كرة القدم التي تمت الليلة الماضية أو عن طفولتنا أو عن سلوك الديناصورات التي عاشت منذ أكثر من مائة مليون عام أو المصير النهائي للكون ، وبنفس الدرجة من اليسر نستطيع مناقشة الأحداث السياسية التي تقع في "بيرو" أو على سطح كوكب نبتون.

تُعرف "النهايات المفتوحة" بأنها قدرتنا على استخدام اللغة من أجل الحديث عن أي شيء على الإطلاق بما في ذلك الأشياء التي لم نسمع بها من قبل، وإليك بعض الجمل الإنجليزية :

- تحتل لوكسمبورج نيوزيلندا.
- إن العنكبوت الكبير ذا اللون الروز والذي يرتدى نظارة شمسية ويمسك مكنسة من الريش يرقص على الأرضية.
- كتب شكسبير مسرحياته باللغة السواحيلية ثم تمت ترجمتها إلى الإنجليزية بمساعدة حراسه الأفارقة.

من المؤكد أنه لن يسبق لك مقابلة مثل هذه الجمل، وبالرغم من ذلك فإنك لم تجد أية صعوبة في فهمها بالرغم من عدم اقتناعك بها جميعا، كما أنك لا تصادف صعوبة في إنتاج المزيد من الجمل الإنجليزية الجديدة تماما عند الحاجة إلى ذلك، ففي الحقيقة معظم الأشياء التي تقولها وتسمعها كل يوم تكون جديدة تماما وربما لم يتفوه بها أي شخص من قبل.

إن هاتين الظاهرتين – قدرتنا على الحديث عن أماكن وأشياء بعيدة في المدى والزمن وكذلك قدرتنا على إنتاج وفهم مقاطع جديدة بلا حدود – مألوفتان لنا حتى أنهما لا يشغلان تفكيرنا كثيرا، وهذا لا ينقص من أهميتهما شيئا فهما حقا على جانب كبير من الأهمية، هل باستطاعتك الحديث عن الوقت الحاضر فقط أو الأشياء التي تراها أثناء كلامك ؟ وبالمثل هل باستطاعتك تخيل الحديث بلغة لا تتكون إلا من عدد محدود من المقاطع حتى إنك في كل مرة تفتح فيها فمك للكلام لا تملك إلا اختيار مقطع واحد من تلك القائمة المحدودة ؟ بالطبع ستكون هذه اللغة أبعد ما يكون من اللغات المتعارف عليها.

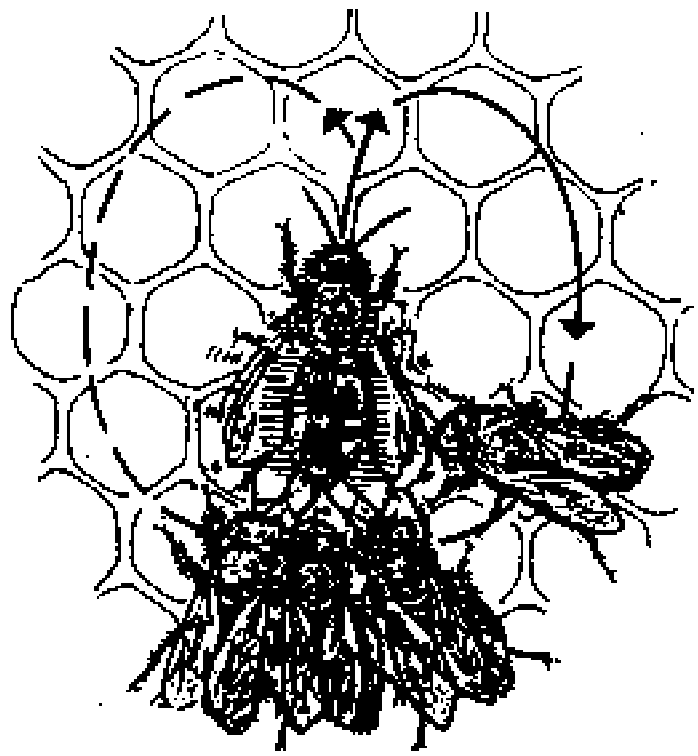
تتشابه الحالة السابقة مع النظام الإشاري للحيوانات و لكن باستثناء واحد سنناقشه فيما بعد وهو عدم استخدام الحيوانات لخاصية "اللاحضور". فالفئران لا تتبادل الحكايات عن مشاجراتها المتوقعة مع القطط، والدببة لا تناقش قسوة الشتاء القادم، كما أن الأرانب لا تدخل في مناقشات حادة عن ذلك الشيء الذي يرونه فوق التل، ولا يخطط الإوز لهجرته القادمة، في الواقع ترتبط كل التعبيرات التي يصدرها الحيوان ارتباطا مباشرا وكليا بزمان ومكان الحدث.

علاوة على ذلك لا تمتلك مثل هذه المخلوقات ما يسمى بالنهايات المفتوحة حيث يظهر بدلا منها عدد ضئيل من المقاطع التي تكون النظام الإشاري لكل فصيلة، وبخلاف تلك المقاطع المتاحة لا يمكن التعبير عن شيء، ربما يستطيع القرد التعبير عن القول "احترس هناك نسر إذا كان الحدث متمثلا أمامه و لكن لا يستطيع القرد نفسه تقديم أي مقاطع جديدة كأن يقول بلا سابق إنذار "احترس هناك اثنان من الصيادين يمسكون بنادق"، أو يتساءل عند رؤية السيارة "لاند روفر" "يا رفاق ماذا تظنون أن يكون ذلك الشيء ؟".

بالطبع لا يوجد بديل إذا ما اختفت خاصية "الثنائية"، إنها وسيلة ضرورية للتعبير عن المزيد من المعاني المختلفة، بدون الثنائية تظهر المخلوقات غير الإنسانية و كأنها مقيدة بعالم من التعبيرات غير المفهومة، إنه عالم خال من الماضي و المستقبل، محاط بالأفق، يفتقد التجديد و يتكون من عدد لا نهائي من الرسائل المألوفة المتكررة التي تعبر عما يحدث في الوقت الحاضر.

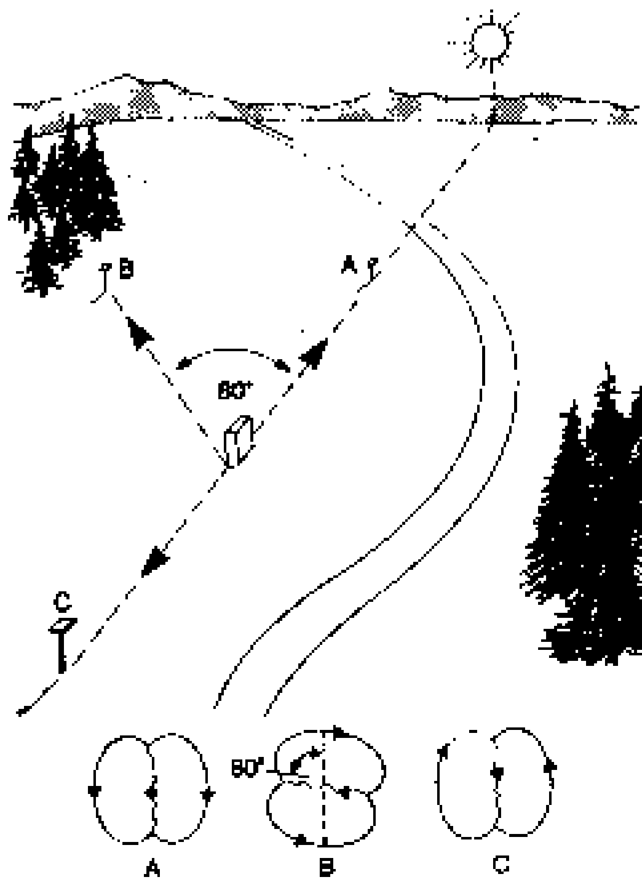
بالرغم مما سبق ذكره يوجد استثناء وحيد يخرج من تلك الصورة القاتمة ألا وهو وجود مخلوق يحتوى نظامه الإشارى على "اللاحضور" بصورة جلية، إذن ما هذا المخلوق المتميز ؟ إنه ليس بالشمبانزى و لا بالدولفين كما قد يخطر ببالك، إنه نحل العسل.

استطاع "كارل فون فريش" عالم الحيوان النمساوى فى ١٩٥٠، ١٩٦٠ إجراء مجموعة من الدراسات حول سلوك النحل الأوروبى، فالنحل الكشاف عندما يجد مصدرا جيدا للرحيق لا يلبث أن يعود إلى خليته حيث يؤدى رقصة قصيرة مدهشة يشاهدها باقى النحل، تختلف تفاصيل هذه الرقصة طبقا لبعد مصدر الرحيق عن الخلية وفصيلة النحل (أى أن النحل لديه لهجات)، فى أكثر الحالات شيوعا تقوم النحلة الراقصة بهز الذيل على شكل الرقم ثمانية المضغوط، استطاع "فون فريش" حل شفرة هذه الرقصة فوجد أن الوقت الذى تأخذه النحلة من أجل إكمال دائرة الرقم ثمانية يوضح المسافة التى يبعدها مصدر الرحيق عن الخلية : أى أنه كلما طال الوقت طالت مدة الطيران، كما أن مستوى الإثارة الذى تظهره النحلة يدل على كمية الرحيق وبالتالى على عدد النحل المراد لجمعها : كلما زادت الإثارة كان حجم الرحيق أكبر و تطلب عددا أكثر من النحل، أخيرا – الشىء المدهش – ينم موقع الجزء المستقيم للرقم ثمانية على اتجاه مصدر الرحيق بالنسبة لموقع الشمس : فعلى سبيل المثال إذا وقع الجزء المستقيم مسافة ٨٠ درجة جهة الشمس من اليسار، فإن النحل سوف يطير ٨٠ درجة باتجاه يسار الشمس.



شكل (١-١): النحل الراقص

إذن هذا هو "اللاحضور"، تنقل النحلة الراقصة معلومات عن مصدر الرحيق الذي سبق لها أن رأته و ابتعدت عنه أميالا مما يجعلها لا تراه في اللحظة الحاضرة، بالإضافة إلى ذلك فإن النحل الذي يشاهدها يعرف جيدا أنها تُبلّغه بمهمة ينبغي أن ينفذها في المستقبل القريب، كذلك وجد "فون فريش" أن النحل يستطيع تحديد مكان مصادر الرحيق حتى مسافة سبعة أميال (حوالي١١ كم)، إنه لشيء رائع، في اعتقادك إلى أي مدى يمكنك النجاح في اكتشاف مجموعة معينة من الأشجار التي تقع على بعد سبعة أميال بمجرد سماعك رسالة شفهية تأمرك بفعل ذلك ؟



شكل (١-٢)

الرقصات التي ترشد النحل الشغالة إلى ثلاثة أماكن للغذاء "أ، ب، ج"

في تجربة شهيرة مكن "فون فريش" بعض النحل الكشاف من اكتشاف مصدرا صناعيا للرحيق – إناء يحتوي على سكر وماء – موضوعا على عمود يبلغ ارتفاعه عشرون قدماً، و هو ارتفاع يفوق ما اعتاد عليه النحل، رجع النحل إلى الخلية كالعادة وأدى رقصته، فماذا كانت النتيجة ؟ اتجهت مجموعات النحل إلى المصدر محدثة طنيناً

يتشابه بعض الاضطراب ثم عادت إلى الخلية، لم يتمكن النحل الراقص من إدراج المعلومة الجديدة الخاصة بالارتفاع ضمن رقصته، أو كما قال "فون فريش" لا تشتمل لغة النحل على كلمة " فوق ".

كم هو مدهش ذلك النوع من الرقص، فنحن لا نملك معه إلا الإقرار بأن مخلوقا واحدا بجانب الإنسان لديه القدرة على استخدام خاصية "اللاحضور" في عملية التواصل الخاصة به، لكن يجب ألا تدع الدهشة تغمض أعيننا عن بعض الحقائق الهامة، فالنحل يمثل حالة فريدة في عالم الحيوان لا تتشابه معها أية حالة أخرى، كما أن هذا الرقص مقيد في قوته التواصلية حيث لا يمكنه إضافة أي تجديد، وبخلاف قدرة النحل على استخدام خاصية "اللاحضور" فإنه قاصر في قوته التعبيرية كأي نظام إشاري يمتلكه حيوان، أي أن النحل يفتقر إلى وجود لغة.

الحرية المشروطة :

تعد خاصية "الحرية المشروطة" من الخواص الوثيقة الصلة بالخصائص الشكلية السابقة وإن كانت تختلف عنها جزئيا، وتعرَّف هذه الخاصية بأنها قدرتنا على التفوه بأي شيء نوده مهما اختلف سياق الكلام، فمثلا افترض أن شخصا ما سألك "ما رأيك في جونلتي ؟" سيكون لك مطلق الحرية في الرد بأية إجابة بما في ذلك عدم الإجابة على الإطلاق، أي ربما تكون إجابتك "إنها قصيرة للغاية" أو "إنها لا تتناسب مع بلوزتك الوردية" أو "آسف ليس عندي ذوق في اختيار الملابس" وربما لا تجيب وتغيِّر مجرى الحديث.

هذا لا يعني أن الحديث البشري يسير بطريقة عشوائية، فهناك ضروريات اجتماعية تجعل لبعض الإجابات أولوية الظهور عن غيرها، فمثلا إذا كنت صديقا حميما للسيدة صاحبة الجونلة لن تكون إجابتك على النحو التالي : " ما هذا يا جوليا ؟ إن رداء كلبي يبدو أفضل مما ترتدين، إنك تملكين أقبح ذوق في العالم"، ولكن حتى إذا كنت تفكر في تلك الإجابة فإنك أغلب الظن لن تتفوه بها ليس لأن هناك شيئًا في اللغة الإنجليزية يمنعك من ذلك ولكنها التقاليد الاجتماعية والرغبة في الحفاظ على العلاقات الطيبة.

إن غياب خاصية "الحرية المشروطة" يحيل اللغة البشرية إلى شيء غير مفهوم، تخيل أن كل كلمة تقولها تكون مقيدة بالسياق الذي تقال فيه ستكون النتيجة تحولك إلى شخصية تؤدي دورا في مسرحية ليس لديها أية فرصة في اختيار ما تقول، بالطبع

هناك بعض المواقف الرسمية وبخاصة التي تتسم بالطابع الاحتفالي - مثل الاحتفالات الكنائسية والولائم - يحدث فيها ذلك، ولكن هذه المواقف لا تمثل قاعدة عامة، كما أنه بإمكانك في مثل هذه المواقف قول أي شيء غير متوقع عن قصد وإن ضر ذلك بمكانتك بين الناس.

لابد أنك تتوقع سماع ما يدل على أن خاصية "الحرية المشروطة" قاصرة على اللغة البشرية ونحن بدورنا لن نخالفك في هذا الرأي، فالإشارات غير البشرية ليست مشروطة الحرية بل إنها مطلقة الحرية، تعني بذلك أن أي حيوان ينتج إشارة معينة دائما وفقط عندما يتوافر المثير المناسب، فمثلا إذا رأى قرد نسرا يقترب وهو فوق الشجرة فإنه في الحال يصدر صيحة مفادها "احترس هناك نسر" و هو لا يفعل ذلك في أي وقت آخر، أي أنه - عند رؤية النسر - لا يفكر قائلا "ربما إذا وقفت ساكنا ينقض النسر على حيوان آخر وأبقى أنا آمنا".

بالرغم من ذلك، هناك بعض الأفعال غير المتوقعة تصدر عن بعض الحيوانات ، فقد لوحظ في إحدى المرات أن ثعلب القطب الشمالي يصدر صيحة دالة على الخطر في غياب أي خطر، وذلك فقط لكي يبعد صغاره عن تناول الطعام الخاص به، نلاحظ أن مثل هـذه المواقف تكون نادرة الحدوث كما أنها تأتينا من مصادر حكائية فهي لا تمثل السلوك الطبيعي للحيوان الذي هو بطبيعته مقيد الحرية.

نخلص من ذلك أن الأنظمة الإشارية للحيوانات تختلف كلية عن اللغة البشرية نظرا لعدم احتوائها على كل من "ثنائية التنميط" و"اللاحضور" و"النهايات المفتوحة"، "الحرية المشروطة"، إن عالم المخلوقات اللابشرية يختلف تمام الاختلاف عن عالمنا ، إنه من وجهة نظرنا فارغ، عديم الملامح، محدود ومغلق، إن اللغة البشرية - كما ذكرنا في بداية الفصل - سمة فريدة على كوكب الأرض وبدونها لم يكن بوسعنا أن نعتبر أنفسنا بشراً.

الاعتباطية :

بالإضافة إلى الخصائص الشكلية التي تميز لغة البشر عن الأنظمة الإشارية للحيوانات توجد خصائص أخرى ليست بفريدة ولكنها جديرة بالاهتمام، من بين هذه الخصائص "التوقيفية" وهي غياب أية صلة ضرورية بين الشكل اللغوي ومعناه.

لاحظ كلمة ضرورية، والتي توضح أننا لا ننفي وجود أية علاقة بين الكلمة الإنجليزية "pig" (خنزير)، وذلك الحيوان الضخم الذي يُطلق عليه هذا المسمى، توجد علاقة بالفعل ولكنها علاقة اعتباطية، فليس هناك سبب معين جعل متحدثي اللغة الإنجليزية يطلقون على هذا الحيوان ذلك الاسم بعينه : تلك العلاقة مجرد اتفاق درج عليه المتحدثون منذ وقت بعيد، كما أن متحدثي اللغات الأخرى بدورهم قد توصلوا إلى اتفاق يختلف عما اتفق عليه الناطقون بالإنجليزية بشأن تسمية ذلك الحيوان، وجدير بالذكر أنه ليس هناك كلمة مناسبة للتسمية أكثر من غيرها، فالكلمة تكون مناسبة وتلقى قبولا عندما يتفق مستخدموها عليها.

إن الاتفاق على تسمية معينة لا يظل قائما طوال الوقت، فقديما كان يطلق على الحيوان ذاته كلمة "swine" والتي تحمل في طياتها معنى الإهانة إذا نُعت بها شخص ما في وقتنا الحاضر، إن التوصل لقرار بشأن أية كلمة معبرة عن معنى مجرد اتفاق أو عادة في المقام الأول، تشتمل اللغات المختلفة على اتفاقات وعادات متباينة (هذا سبب كونها لغات مختلفة)، كما أن العادات المتبعة في لغة يمكن أن تتغير ويحدث هذا بالفعل.

قد تتمثل "التوقيفية" من خلال طريقة أخرى تناقض ما سبق ذكره، فعلى سبيل المثال تحمل الكلمة الإنجليزية "mean" معان مختلفة وهي (يعني، يفيد، يقصد، ينوي، ينذر بـ، حقير، متوسط، بخيل، وسيلة)، أو بصورة أكثر دقة نقول إن هناك كلمات إنجليزية عديدة تأخذ نفس شكل الكلمة "mean" ، كما تُنطق الكلمة الفرنسية "mine" بنفس طريقة الكلمة الإنجليزية "mean" وهي تعني (فحم)، بالمثل تعني الكلمة الويلزية[٣] "min" (طرَف)، بينما تعني الكلمة الباسكية[٣] "min" (ألم)، في حين تعني الكلمة العربية "min" (من)، كما نرى لا يوجد شيء ما بتلك الكلمات يجعلنا نعتبر أحدها أكثر قبولا من الأخرى.

إن تواجد خاصية "التوقيفية" في أية لغة هو السبب الرئيسي وراء ما نقضيه من وقت طويل في تعلم كلمات أية لغة أجنبية، لأنه من الصعب تخمين معان غير مألوفة لدينا، فيجب معرفة معنى كل كلمة على حدة والدليل على ذلك هو ما سوف نعرضه عليك من أسماء باسكية لحيوانات، ونحن متأكدون أنك لن تتمكن من معرفة أي منها : "zaldi" (فرس)، "igel" (ضفدع)، "txori" (طائر)، "ollo" (دجاجة)، "behi" (بقرة)، "sagu" (فأر).

(٣) لغة شعب مجهول الأصل يقطن منطقة البرانس الغربية في فرنسا وإسبانيا .

كذلك من المستحيل أن نجد مترجما عالميا على دراية بكل لغات العالم والسبب في ذلك أيضا خاصية "التوقيفية". افترض أنك تعرف عددا لا بأس به من كلمات اللغة الباسكية، وافترض كذلك أن شخصا ما قال لك "Watch out- you might run into alupu out there" وأنت لاتعرف ما تعنيه كلمة "lupu"، سيجعلك ذلك في حيرة من أمرك: هل تعني هذه الكلمة شرك لاصطياد الدببة أم سم قاتل أم لص مسلح أم ذئب جائع؟ إنها تعني "عقرب"، وهي كلمة منقرضة منذ القرن السادس عشر، ومعناها في اللغة الباسكية الحالية "ذئب"، لهذا تعني الجملة السابقة "احترس، ربما يصادفك عقرب في هذا الاتجاه"، أليس ذلك أمرا يصعب على المترجم العالمي؟

لا تعد خاصية "التوقيفية" حكراً على اللغة البشرية، فهي تتمثل في الأنظمة الإشارية للحيوانات وكذلك في كل نظام اتصالي يمكن تصوره، قد يحدث أن نصادف بعض العناصر في اللغة لا تتمثل بها خاصية التوقيفية، فتكون طبقا لذلك رمزية، الرمزية[٤] علاقة مباشرة بين الشكل والمعنى، إننا نجد بعض العناصر الرمزية في رقص النحل، كما نجد تلك العناصر في اللغة الإنجليزية.

تعد التسمية بالمحاكاة الصوتية أحد أبرز الدلائل على الرمزية، إنها الإشارة إلى الأصوات التي تصدر عن الأشياء بكلمات تشبه تلك الأصوات، ومن أمثلتها "splash" (يرش)، "clink" (يصلصل أي يصدر صوتا شبيها باحتكاك المعادن أو النقود)، "buzz" (أزيز أو طنين)، "meow" (مواء)، "moan" (عويل)، "whoosh" (اندفاع مفاجئ يحدث صوتًا انفجاريًا)، "thud" (صوت الارتطام بالأرض)، "moo" (خوار)، "ping" (أزيز الرصاص)، "quack" (صياح البط)، "boom" (دوي)، تمثل كل هذه الكلمات محاولات لإنتاج أصوات فعلية باستخدام الفونيمات الإنجليزية، لكن تتمثل بهذه الكلمات صفة التوقيفية، تستطيع الاستدلال على ذلك بمقارنة أمثال تلك الكلمات في اللغات المختلفة، يسمى صوت البندقية في اللغة الإنجليزية "bang"، وفي الإسبانية "pum"، وفي الفرنسية "pan"، وفي الألمانية "peng"، وفي الباسكية "dzast".

في الحقيقة تتمثل صفة التوقيفية في تلك الكلمات التي تبدو بها المحاكاة الصوتية، مما يستدعي دراستها على حدة كالكلمات العامية، فأنت مثلا لا يمكنك تخمين معنى الكلمة اليابانية "chirin-chirin"؟ إنها تعني (رنين)، ماذا عن كلمتي اللغة

(٤) ضرب من الكتابة التصويرية .

التركية "sip" (صوت شبيه بشيء يغطس في الماء)، "sak" (دوى) ، العبرية "yimyum" (مواء) ، الباسكية "Kukurruku" (ديك) لابد أنك توقعت المعنى ذاته، اليابانية "pyuu" (أزيز).

هناك نوع أخر من الرمزية أكثر دقة مما سبق الحديث عنه. افترض أننا أخبرناك أن الكلمة الباسكية "txlmeleta" (التي تُنطق على النحو التالي chee-may-lay-tah) هي اسم لأحد الكائنات، في رأيك ما ذلك الكائن ؟ كبير أم صغير ؟ سريع أم بطيء ؟ جميل أم قبيح ؟ افترض أننا أخبرناك كذلك أن هذا الكائن واحد من الآتي : ثعلب، ثور، فراشة، قوقعة، سلحفاة، أيها تختار ؟

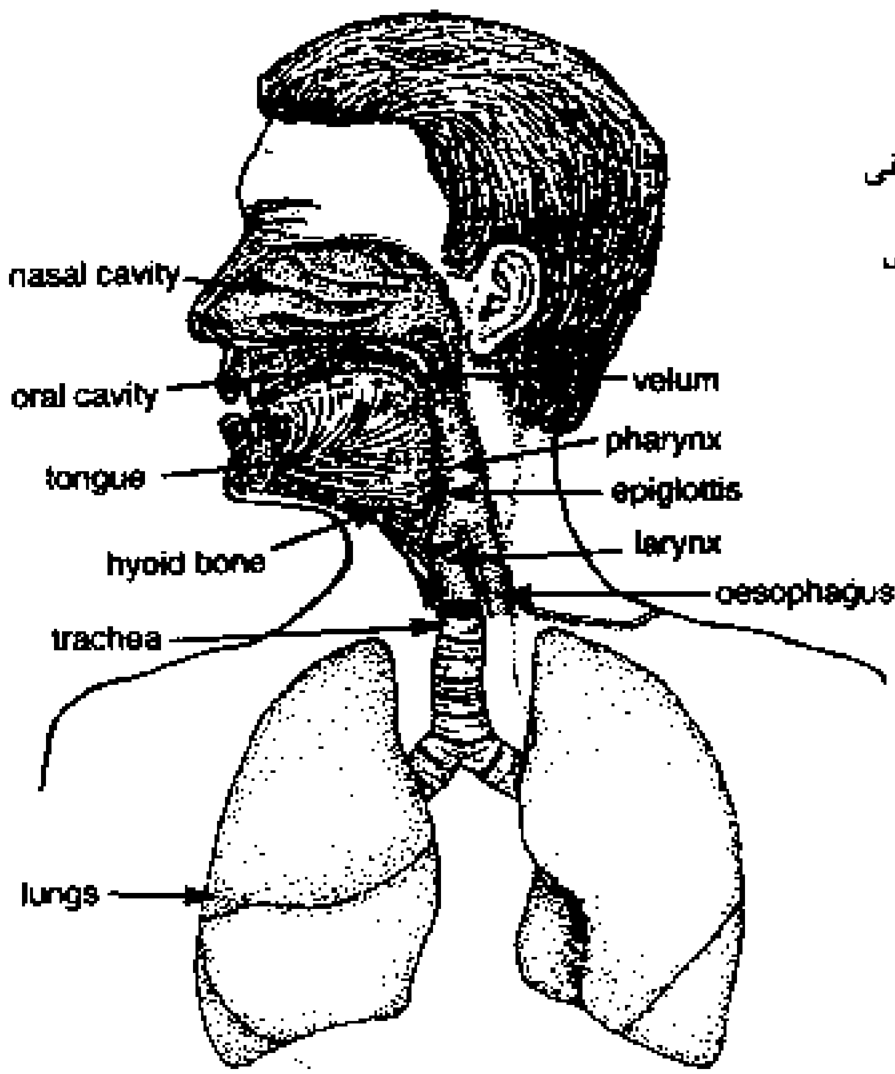
نأمل أن تكون قد توصلت لإجابة، يرى أغلب الناس أن الكلمة تدل على كائن – ليس بكبير أو ثقيل الوزن أو بطيء – صغير الحجم خفيف الوزن يتحرك بشكل سريع ورشيق، تبعا لذلك فهم يتخيرون من الكائنات السابقة الكائن الوحيد الذى يتميز بصغر الحجم و بخفة الوزن والرشاقة، أي الفراشة.

لا تعد الحالة السابقة تسمية بالمحاكاة الصوتية، فالكلمة الباسكية "txlmeleta" لا تدل على أي صوت – لاحظ أن الفراشة لا تصدر أية أصوات – بل تدل على شكل الكائن التي تطلق عليه، الكلمة تبدو خفيفة ورشيقة وكذلك الفراشة.

الجهاز الصوتي :

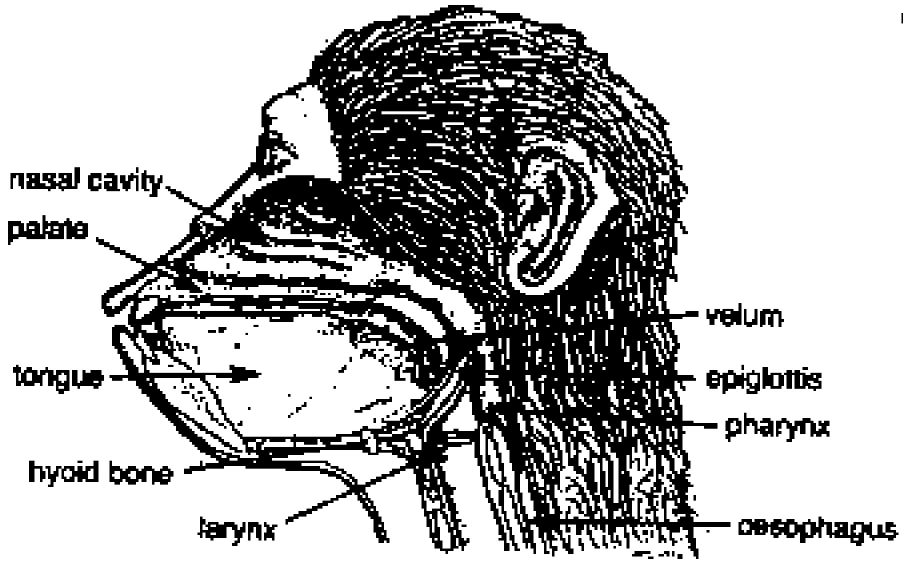
يعد الكلام– كما سبق أن ذكرنا – الوسيلة الطبيعية للتعبير عن اللغة، نقصد بالكلام إنتاج تتابع من الأصوات وهو ينتج عن طريق خروج الهواء ودخوله من وإلى الفم والأنف، بالطبع لا يمثل الكلام الطريقة الوحيدة للتعبير عن اللغة، إنك بقراءتك الكتاب الذي بين يديك تكون قد تعرفت على طريقة أخرى للتعبير عن اللغة ألا وهي الكتابة – هي طريقة حديثة في تاريخ اللغة البشرية، ترجع أقدم النصوص المكتوبة إلى ما يقل عن ٦٠٠٠ عام، بينما يبلغ عمر الكلام – كما سترى فيما بعد – أكبر من ذلك بكثير، كما أن أغلب لغات العالم والتي تبلغ ٥٠٠٠ لغة لا تكتب في العادة، تعد لغة الإشارة اختراعًا بالغ الحداثة بالمقارنة بالكلام والكتابة، تتكون هذه اللغة من إشارات اليد وهذا ما سوف نناقشه فيما يلي.

بالرغم من هذا يمثل الكلام الوسيلة الطبيعية والمعتادة للتعبير عن اللغة، فتطور النمو عند الإنسان مكنه من الكلام بطريقة بارعة. يسمى الممر الذي يتدفق خلاله الهواء أثناء كلامنا بالجهاز الصوتي، يتفرد الإنسان بجهاز صوتي مختلف تماما عن مثيله عند الثدييات، فحتي أكثر الكائنات شبها بالإنسان – القردة – تمتلك جهازا صوتيا مختلفا تماما عن جهازنا وفي ذات الوقت يتشابه جهازهم الصوتي هذا مع أجهزة الخيول والفئران. انظر إلى الشكلين (١-٣)، (١-٤) اللذان يعرضان قطاعا عرضيا في الجهاز الصوتي لكل من الإنسان والشمبانزي.



التجويف الأنفي Nasal cavity
التجويف الفمي Oral cavity
اللسان Tongue
العظم اللامي Hyoid bon
القصبة الهوائية Trachea
الرئتين Lungs
اللهاة Velum
البلعوم Pharynx
الحنجرة Larynx
المرئ Esophagus

شكل (١-٣)
الجهاز الصوتي للإنسان



Nasal cavity التجويف الأنفى

Palate سقف الحلق

Tongue اللسان

Hyoid bone العظم اللامى

Larynx الحنجرة

Velum اللهاة

Pharynx البلعوم

Esophagus المرىء

شكل (١-٤٠)

الجهاز الصوتي للشمبانزى

تظهر العديد من الاختلافات، أولها كبر حجم الجهاز الصوتي البشرى واختلاف شكله فهو يمتد امتدادا كبيرا خلف اللسان، بالإضافة إلى ذلك يوجد اختلاف كبير فى العلاقة ما بين القصبة الهوائية التى تؤدى إلى الرئتين والمرىء الذى يؤدى إلى المعدة، يحتوى الجهاز الصوتي الخاص بالشمبانزى ومعظم الثدييات على غضروف كبير الحجم يطلق عليه اللهاة والذى يعمل كصمام بين القصبة الهوائية والمرىء، فعندما تكون اللهاة مرفوعة تكون القصبة الهوائية متصلة بالأنف ويكون الفم مغلقا، أما إذا كانت اللهاة فى وضع منخفض فيصبح الفم متصلا بالمرىء بينما تكون القصبة الهوائية مغلقة، من شأن هذه العملية حماية الشمبانزى من خطر الاختناق أثناء الأكل.

يعد الإنسان أسوأ حظا من الشمبانزى فى هذا الشأن، فالجزء الأكبر من جهازنا الصوتي والمسمى بالبلعوم له وظيفتان، فهو يعمل على تدفق الهواء ومرور الطعام، كما أن اللهاة البشرية الصغيرة الحجم لا تلعب دورا حيويا فى غلق القصبة الهوائية أثناء عملية البلع، نتيجة لذلك يكون من السهل إصابتنا بالاختناق أثناء تلك العملية، فالعديد من الناس يموتون من جراء ذلك فى بريطانيا كل عام، إذن لماذا يضم الجهاز الصوتي البشرى ذلك الجزء الخطر وهم أكثر أنواع الثدييات تفردا؟ لماذا لم يظل الجهاز الصوتي الخاص بأسلافهم كما هو ويتوارثونه هم ؟

ما هو أكثر غرابة الحقيقة التي تقر بأن الأطفال حديثو الولادة لديهم جهاز صوتي يشبه ذلك الخاص بالشمبانزي وهم بذلك في مأمن من خطر الاختناق، ولكنهم ما إن يبلغوا الثلاثة أشهر من العمر حتى يبدأ جهازهم الصوتي في النمو حتى يأخذ ذلك الشكل الخاص بالبالغين، يبدو أن ما حدث هو طفرة بجهازنا الصوتي جعلته يأخذ شكله الحالي، لماذا ؟

تتوافر بالجهاز الصوتي البشري ميزة عظيمة تجعلنا نغفل عن كونه خطيراً، فهو لكبر حجمه وامتداده يمكننا من إحداث عدد من أصوات الكلام - على الأقل حفنة من الصوامت والصوائت المميزة - نجد أن الجهاز الصوتي لكل من الشمبانزي والأطفال حديثي الولادة يفتقر إلى وجود مثل هذه الخاصية، فقد أثبتت الدراسات عدم قدرة الشمبانزي على إحداث أكثر من صائت وحيد وصامتين وهذا كفيل بعدم تمكينه من الكلام، تذكّر أننا بحاجة إلى كم من الأصوات لكي نستخدم خاصية "الثنائية" والتي بدونها لا يمكن أن تتواجد اللغة.

استنتج العديد من الباحثين مما سبق ذكره أن السبب الرئيسي وراء تطور جهازنا الصوتي هو تمكيننا من الكلام، فالقدرة على الكلام واستخدام اللغة من السمات التي تميز فصيلتنا حتى وإن كانت ضريبتها فقدان عدد من الأشخاص كل عام بسبب الاختناق، كما يتبع تطور جهازنا الصوتي تطورا آخر في المخ البشري المتصف بكبر حجمه أيضا، حيث يتطلب استخدام اللغة قدرة خاصة تتمثل في سرعة العمليات العقلية وليس الأمر مقصوراً على الكلام فقط، كما نعرف تفتقد القردة إلى جزء المخ الخاص بالعمليات العقلية المتممة للكلام.

حدثت العديد من نقاط التحول على مدار تاريخ التطور الإنساني - عمودنا الفقري، أيدينا، أصابعنا، وبخاصة أصابع الإبهام، كلها تطورت إلى حد كبير، ولكن كما نعرف حدثت هذه التطورات لأسلافنا منذ ملايين السنين في وقت لم يتطور به المخ والجهاز الصوتي، هذا ويعد تطور الكلام واللغة من أكبر التطورات التي حدثت على مدى التاريخ البشري، ذلك التطور الذي ميزنا عن أسلافنا من البشر وأشباهنا من الحيوانات وجعل من سلوكنا الإنساني سلوكا متفردا، لذلك اقترح كثير من المتخصصين تسمية فصيلتنا الاسم اللاتيني (البشر المتكلم) بدلا من (البشر المفكر).

لا أحد يعرف متى تطورت اللغة البشرية، ولكن اتفق الكل على أنها ظهرت منذ ١٠٠٠٠٠ عام تقريبا استنادا إلى الدليل الذى وُجد لبشر يشبهوننا تماما، إلا أن قلة من الباحثين يرجعون ظهور اللغة إلى وقت قبل ذلك بمدة كبيرة، أكثر من مليون عام وهو الوقت الذى عاشه أسلافنا، لا شك أن الموضوع قابل للجدل والنقاش وخاصة أننا لا نملك دليلا عمليا مؤكدا عليه.

قام العالمان "فيليب ليبرمان"، و"إدموند كريلين" بتناول هذا الموضوع فى سلسلة من الإصدارات، اختص عملهم بالنياندرتاليين(٥)، وهم أناس يتميزون بقصر القامة وامتلاء الجسم بصورة واضحة وكانوا يسكنون أوروبا الغربية منذ ما يقرب من ٣٥٠٠٠ عام قبل أن يختفوا فجأة ويبدو أن اختفاءهم هذا كان بسبب ما وقع عليهم من ضغط من قبل أسلافنا، قدم "ليبرمان" و"كريلين" شكلا للجهاز الصوتى للنياندرتالى عن طريق استخدام حفرية لجمجمة أحدهم، كان الشكل مخالفا تماما لجهازنا الصوتى وقريبا لذلك الخاص بالشمبانزى، لذلك انتهى كل منهما إلى أن النياندرتاليين كانوا غير قادرين على إصدار الكم المناسب من الأصوات ومن هنا فهم غير قادرين على الكلام.

بالرغم من روعة المحاولة التى قام بها "ليبرمان"، و"كريلين" إلا أن نتائجهما لم تسلم من الهجوم العنيف الذى أقر بخطأ هذه النتائج وقدم أدلة عدة على ذلك.

أولها : تعرُض تلك الجمجمة لتجارب عدة مما تسبب فى تهشيمها، وثانيها إمكانية إعادة تركيبها والخروج منها بشكل جديد كل مرة – غير الشكل الذى توصل إليه "ليبرمان" و"كريلين" – وقد ينتج من أحد هذه الأشكال جهاز صوتى يشبه ذلك الخاص بإنسان العصر الحالى، كما ذكر بعض النقاد أن الشكل الذى قدمه "ليبرمان" و"كريلين" لم يكن يسمح لصاحب الجمجمة أن يفتح فمه، لذلك يبقى السؤال مطروحا، فلازلنا لا نعرف الوقت الذى ظهرت فيه اللغة بالرغم من أن أغلب المتخصصين قاموا بترجيح تاريخ تقريبى يرجع إلى أقل من مليون عام.

الشمبانزى يشير :

حاول عدد من الباحثين فى العقود الأخيرة النظر إلى أمر أصل اللغة من جهة لم يسبق لهم طرقها، برغم تأكيدنا مرارا على أن اللغة صفة مميزة للبشر دون غيرهم،

(٥) نسبة لوادى النياندرتال قرب دوسيلدورف بألمانيا حيث وُجدت بقايا هيكل عظمى لإنسان قديم .

إلا أننا لا زلنا نتساءل : هل من الممكن لحيوان ما تعلُّم اللغة في حالة توافر الفرصة لذلك ؟

أثار هذا التساؤل عددا هائلا من التجارب، كان بعضها محور الاهتمام بحيث تم كتابته بالخطوط العريضة في الصحف، حاول العديد من الباحثين (ليس كلهم) تربية حيوان صغير وسط البشر مثله مثل الطفل الرضيع، فيتم إحاطته باللغة بل يُحث على استخدامها، واجهت هذه التجربة صعوبات مستحكمة، لأنه لا يمكن لكل صغار الحيوانات التأقلم في البيئة البشرية، تم إجراء أغلب التجارب على صغار القردة – الشمبانزى بصفة تكاد تكون دائمة والغوريللا من وقت لآخر – نظرا لأنه من المستحيل تربية حوت صغير أو دلفين داخل المنزل، بالرغم من أنهما يعرفان بذكائهما الحاد، إنها – القردة – بأشكالها القريبة الشبه بالإنسان ، والتي تستطيع التكيف في البيئة الإنسانية، بل إنها أكثر الفصائل الحيوانية قربا لنا فهي لذلك أولى وأجدر بتعلم لغتنا.

لكن نظرا لعدم تواجد جهاز صوتي للقرود، كانت احتمالية تعلمهم اللغة معدومة، كانت هذه الحقيقة القاسية ضربة قاضية للتجارب الأولى التي أجريت على الشمبانزى "جوا" و"فيكي"، لاحظنا من قبل أن الكلام ليس الوسيلة الوحيدة الممكنة للتعبير عن اللغة، كما أننا نرى مدى المعاناة التي يكابدها المصابون بالصمم عند إنتاج الكلام وكذلك فهمه، وكانت الأنظمة التي تم اختراعها في القرن التاسع عشر معينا لهم للتغلب على تلك الصعوبة، كانت لغة الإشارة أحد تلك الأنظمة وفيها يستخدم الفرد يديه على الأغلب لإنتاج إشارات تمكنه من التواصل مع الآخرين، يعني وضع طرف الإبهام على الشفاه في لغة الإشارة الأمريكية (ASL) – وهي المتبعة بالولايات المتحدة الأمريكية – (يشرب)، بينما يعني دفع نفس الإصبع ومعه إصبعين آخرين بعيدا عن الشفاه العليا (قطة)، تُستخدم لغة الإشارة الأمريكية من قبل قاعدة عريضة من المصابين بالصمم والذين أصبحوا بارعين للغاية في استخدامها – مثلها في ذلك مثل الأنواع الأخرى من لغة الإشارة (مثل لغة الإشارة البريطانية BSL) والتي تعرض مجموعة مختلفة من الإشارات – حتى أن هناك أطفالا لآباء مصابين بالصمم يستخدمون لغة الإشارة كلغتهم الأولى وهم بذلك "مشيرون أصليون"، لم تعد لغة الإشارة مجرد شكل يشبه اللغة البشرية – مثلما هو متعارف عليه – كما لم تظل تلك الرؤية المشفرة من اللغة الإنجليزية، فقد لاحظ اللغويون في السنوات الأخيرة أن لغة الإشارة التي يستخدمها المشيرون الأصليون أصبح لها من الصفات الحيوية ما يعادل صفات اللغة البشرية،

ومن تلك الصفات الأنظمة النحوية الثرية بأشكال كالعبارات الفرعية وتصريفات الأفعال، لاحظ أن القردة لها أيدٍ تماثل الأيدي البشرية كثيرا.

وضع كل من عالمي النفس "ألين"، و"بياترك جاردنر" شمبانزي صغير السن يسمى "واشو" وسط مجموعة من البشر* البالغين والمستخدمين للغة الإشارة وذلك في عام ١٩٦٠، بذلت المجموعة جهودا مضنية من أجل أن يفهم "واشو" الإشارات ويستخدمها، جاءت التجربة بنتائج مبشرة حيث أضيف إليها عدد آخر من الشمبانزي، كما تكونت مجموعات بشرية جديدة بالتعاون مع الشمبانزي وأحيانا الغوريلا. بالإضافة إلى ذلك حاولت مجموعات أخرى فعل شيء مشابه عن طريق استخدام اللغات المُختَرعة التي تتكون كلماتها من عدد من القطع المغناطيسية ذات الألوان والأشكال المتنوعة الملصقة على لوحات، أو الأشكال الهندسية المعروضة على شاشة الحاسب الآلي.

حققت هذه التجارب نتائج مذهلة في الفترة ما بين نهاية عام ١٩٦٠ وبداية العام التالي له، استطاعت الحيوانات استيعاب المئات من الإشارات أو الرموز، والاستجابة الصحيحة للجمل الجدلية المكونة من مجموعات جديدة من الإشارات والرموز، وكذلك إنتاج مقاطع خاصة بها بطريقة تلقائية، واستيعاب الكلمات ذات المعاني المجردة، وتكوين كلمات جديدة باستخدام مجموعات من الإشارات والرموز الموجودة من قبل أيضا، وكذلك تعليم لغة الإشارة لأولادها، قوبلت تلك النتائج باحتفاء شديد كما أثارت حفيظة كثير من النقاد.

وجد النقاد جوانب ضعف كثيرة بالأدلة التي تؤيد التجارب السالفة الذكر :

أولاً : جاءت كثير من تلك الأدلة معتمدة على عنصر الحكي تماما، لقد تألفت من عدد من الشواهد التي أفادت بأن الحيوان قد يقوم بأفعال غير متوقعة في بعض المواقف، ولكن الأدلة الحكائية تكون عديمة القيمة في مجال العلم، فقد تنتج الكثير من التغيرات عن فعل ما يقوم به الحيوان وقد تكون بعضها غير مرضية بالمرة، أما الأدلة التي تستند إلى تقارير دقيقة عن سلوك منتظم يصدر عن الحيوان هي فقط الأدلة الهامة.

ثانيًا : طبق العديد من الباحثين معايير غير دقيقة في تجاربهم على الحيوانات، فعندما كان يُسأل الشمبانزي بلغة الإشارة الأمريكية عن شيء ما وليكن تفاحة، كان الباحث يقر بصحة أية إجابة يصدرها الحيوان طالما اشتملت تلك الإجابة على كلمة تفاحة، كأن تأتي تلك الإجابة على النحو التالي "إصبع موز أصفر جائع تفاحة

إصبع موز تفاحة"، تتشابه هذه الإجابة مع صيحة يطلقها طفـل صغير لازال يتعلم لغته الأولى.

ثالثًا : دائما ما يردد الباحثون أن القردة تقوم بإصدار إشارات بالفعل، ولكن عندما طُلب العون من أحد مستخدمي لغة الإشارة لملاحظة سلوك الحيوانات، كان ينتهي إلى أن الحيوان لا يصدر أية إشارة مفهومة اللهم إلا بعض الإيماءات عديمة المعنى والتي أصدرها البشر المحيطون به من قبل.

أخيرًا : اكتشف النقاد فوضوية الإجراءات التي استخدمت في اختبار الحيوانات، فالحيوان يرى من يعلمه اللغة يصدر إشارات بيديه فيقلدها هو دون وعي، ففي القرن التاسع عشر تمكن فرس من الإجابة على أسئلة حول علم الحساب فقط عن طريق استقاء العون من صاحبه الذي كان يشير له بالإجابة، لذلك عندما تضب مصدر العون أو ضاق مجال المساعدة جاء أداء الحيوان سيئا، أما إذا جاء به بشيء من الصحة فيكون ذلك من قبيل الصدفة.

نتيجة لذلك النقد عدل بعض الباحثين عن أمر تعليم اللغة للحيوانات، بينما فضل البعض دراسة القدرات الإدراكية العادية لحيواناتهم دون محاولة تعليمها أنواع جديدة من السلوك ، في حين أصر البعض على استكمال ما بدأوه، إلى الآن فالتجارب في هذا المجال مستمرة ولا زال الباحثون يبلغون أن حيواناتهم تمكنت من استيعاب مائتي أو ثلاثمائة إشارة ثم لا يلبث أن يتراجع أداؤهم في نفس النقطة التي يبدأ عندها الطفل إحراز تقدم هائل في تعلمه للغة ، كانت الاستفادة القصوى من كل هذه التجارب هي الخروج بالدليل القاطع الذي يقول أن الهوة واسعة بين السلوك اللغوي للطفل وغيره من الحيوانات الأخرى، أي مازالت اللغة حكرًا على البشر وسمة مميزة لهم .

الفصل الثانى

الأساس النحوى

يعد علم النحو من أهم الخصائص التى تميز أية لغة، إنه ببساطة الطريقة التى تجمع بها العناصر الصغيرة (كالكلمات) لتكوين عناصر أكبر (كالجمل)، تشتمل كل لغة بشرية على علم النحو بل على العديد من القواعد النحوية، وذلك بلا استثناء لأية لغة من اللغات.

إن اعتقادك بأن بعض اللغات لا تشتمل على قواعد نحوية أو تشتمل على القليل منها لا أساس له من الصحة، فنحن نرى أنه حتى اللغات التى تتحدثها أقل الشعوب تقدما وأقصاها بعدا عنا في المسافة تشتمل على كم هائل من القواعد النحوية، نستشهد في ذلك بكتاب "جون هايمن" الذى يصف فيه نحو لغة "الهُوا" – لغة مستخدمة فى قرية نائية بجنوة الجديدة من قبل أناس حجريين لم يتصلوا بالعالم الخارجى إلا منذ عقود قليلة – وهو يحتوى على المئات من الصفحات المكتظة، ومما لا شك فيه أن "هايمن" لم يعلن عن انتهاء ذلك الوصف، بالمثل يصل أكبر وصف لنحو اللغة الإنجليزية إلى عدد ألفين من الصفحات ولم ينته حتى الآن (لا يعنى هذا أن اللغة الإنجليزية تشتمل على قواعد نحوية أكثر من لغة الهُوا، بل يعنى أن نحو اللغة الإنجليزية تلقى من الدراسة والاهتمام القدر والوقت الأكبر مقارنة بنحو لغة الهُوا)، بل الأكثر من ذلك تشتمل اللغات الاصطناعية(٦) مثل لغة "الإسبرانتو"(٧) على العديد من القواعد النحوية، فى حين أن أنصار تلك اللغات لا يدركون هذه الحقيقة.

يأخذ علماء اللغويات – أخصائيو علم اللغويات أو الدراسة العلمية للغة – على عاتقهم مهمة اكتشاف القواعد النحوية للغات البشرية، أما النحاة فهم علماء اللغويات الذين تخصصوا فى دراسة علم النحو، وكل ما يحاول النحاة فعله هو تعريف القواعد النحوية التى تحكم كل لغة.

(٦) لغة غير مبنية على لغات طبيعية .

(٧) لغة مصطنعة معروف أنها من أنجح اللغات الاصطناعية تتكون مفرداتها من خليط من كلمات مشتقة من اللغات الرومانية والألمانية .

إننا بحاجة إلى توضيح فكرة القواعد النحوية حيث أُسيء فهمها مرارا، ربما يصدر مدرس اللغة الإنجليزية الخاص بك بعض التحذيرات مثل "لا تُنهِ الجملة بحرف جر" أو " لا تستخدم المصدر المنشطر"[٨] أو " ينبغي أن تقول It's I وليس " It's me (ربما لا يحدث ذلك ، فالعديد من المعلمين لا يبذلون جهدا في تدريس قواعد اللغة الإنجليزية هذه الأيام)، لكن العبارات السابقة - سواء كانت مألوفة أو لا - لا تمثل ما نسميه "قواعد اللغة"، إنها مجرد آراء شخصية ترشد إلى الاستخدام الأمثل للغة الإنجليزية وليست بقواعد على الإطلاق.

تختلف القواعد عما سبق ذكره، فعندما نبحث مسألة قيادة السيارة مثلا نرى أنه عند الضغط على دواسة البنزين تزداد سرعة السيارة، في حين أنه عند الضغط على الفرامل تقل السرعة، أما عند إدارة عجلة القيادة جهة اليسار فإن السيارة تتجه يسارا، تلك بعض قواعد القيادة، أي الطريقة التي تسير بها السيارة والتي لا يمكنك تغييرها.

أما عن بعض النصائح الخاصة بإتقان القيادة فهي كالتالي: "توقف عند رؤية الضوء الأحمر"، "استخدم سرعة من الدرجة الثانية عند الاتجاه لأحد الأركان"، "زد من سرعة السيارة عندما يتغير اللون إلى الأصفر"، لا يوجد ضمان بصحة كل هذه النصائح، مثلها في ذلك مثل اللغة الإنجليزية، فليس هناك ضمان بأن الآراء السابقة والخاصة بالتعامل مع اللغة الإنجليزية هي الآراء الصائبة (سوف نبرهن - بالفصل الثامن - على خطأ هذه الآراء الثلاثة)، على أية حال فإن القواعد الخاصة بنحو اللغة الإنجليزية تختلف تماما عن مجرد نصائح الاستخدام، والآن دعونا نلقي نظرة على قواعد اللغة الإنجليزية.

ربما يتراءى إلى سمعك أحيانا ما يفيد بأن "اللغة الإنجليزية لا تشتمل على كثير من القواعد النحوية"، لا ينطوي هذا القول على أدنى قدر من الصحة، فاللغة الإنجليزية - كأية لغة أخرى - تحتوي على عدد كبير من القواعد النحوية، في الوقت الذي تفتقد فيه إلى تواجد كثير من النهايات تختلف الإنجليزية عن اللغات الأخرى في أنها لا تستخدم النهايات بكثرة من أجل أغراض نحوية، ولكن النهايات تمثل مكونا واحدا من النحو، كما أنه ليس بالجزء الكبير.

(٨) مصدر يفصل بينه وبين to كلمة ما (to really) .

قد تصاب باضطراب عندما نقول لك أن اللغة الإنجليزية تشتمل على العديد من القواعد النحوية ربما لأن كلمة النحو تخيفك أو ربما لأنك متيقن بعدم معرفتك لتلك القواعد النحوية على الإطلاق بالإضافة إلى اعتقادك بأنك لن تقوى على استيعابها، إذا تطرق تفكيرك إلى هذا الحد فإن مفاجأة فى انتظارك وهى إنك بالفعل تعرف الكثير من تلك القواعد النحوية، بل إنك تعرف الكثير من نحو لغتك بما يفوق ما هو مكتوب فى أضخم الكتب، نرجو أن تقوى معنا حتى نثبت لك صحة العبارة السابقة.

سنبدأ بتوضيح بسيط لبعض قواعد اللغة الإنجليزية.

انظر إلى المثال (٢-١) :

There's a spider in the bath. (٢-١)

(يوجد عنكبوت بدورة المياه)

لا يوجد ما هو لافت للنظر فى هذا المثال : إنه جملة إنجليزية عادية تتكون من عدد من الكلمات الإنجليزية، بالرغم من قلة عدد النهايات بالجملة إلا أنها تضم قاعدة نحوية، لتوضيح الأمر نعيد ترتيب الكلمات على النحو التالى :

*Bath the in spider a there's. (٢-٢)

تستخدم النجمة للإشارة إلى وجود خطأ نحوى بالجملة، فالجملة السابقة لا تمت للإنجليزية بأية صلة إنها مجرد لغط، لماذا ؟ لوجود خطأ بترتيب كلماتها، يمثل ترتيب الكلمات جزءا هاما من النحو الإنجليزى : ففى أغلب الوقت يفتقد متحدثو الإنجليزية إلى الحرية فى اختيار ترتيب الكلمات حيث تلزمهم القواعد النحوية باتباع ترتيب معين، ألق نظرة على ترجمة الجملة (٢-١) إلى اللغة الباسكية :

Bainuan armiarma bat dago. (٢-٣)

bath-the-in spider a there's. (دورة المياه-الـ-فى عنكبوت يوجد) (ترجمة حرفية)

إن الجملة الباسكية جملة صحيحة تماما طبقا للقواعد النحوية لتلك اللغة، إنها تتشابه فى ذلك مع الجملة الإنجليزية (٢-٢) باستثناء اختلاف بسيط وهو تلك الفواصل بين الكلمات الإنجليزية والتى تمثل اللواحق[٩] فى اللغة الباسكية، ماذا لو قمنا بترجمة الكلمات الإنجليزية السابقة بنفس ترتيب كلماتها إلى اللغة الباسكية ؟

(٩) عناصر تلحق بنهايات الكلمات .

*Dago bat armiarma-n-a bainu . (٢-٤)

ستتحول الجملة إلى كلام غير مفهوم طبقا للغة الباسكية، أى أن كلا من اللغتين الإنجليزية والباسكية تشتملان على قواعد تحكم ترتيب الكلمات وتختلف تلك القواعد فى كلتيهما، وبخلاف تباين اللغات فى تسميتها للأشياء تتباين أيضا فى قواعدها النحوية، لنواصل مقارنة اللغتين الإنجليزية والباسكية :

John hit Peter. (٢-٥) ضرب جون بيتر.

جملة إنجليزية أيضا وترجمتها إلى الباسكية هى :

Jonek kepa jo du . (٢-٦)

(Jon و Kepa هما الترجمة الباسكية لكل من "جون" و "بيتر"، أما jo du فهى ترجمة الفعل "is" يكون") أى أن الترجمة الباسكية الحرفية تعنى "جون بيتر ضرب" وهى شىء مستحيل تواجده فى اللغة الإنجليزية، أما عند تبديل موضع الأسماء :

Peter hit John. (٢-٧) ضرب بيتر جون.

تتكون جملة إنجليزية صحيحة تختلف فى المعنى عن الجملة (٢-٥)، ماذا لو بدلنا موضع الأسماء فى الجملة الباسكية ؟

Kepa Jonek jo du . (٢-٨)

تتكون جملة باسكية صحيحة أيضا ولكنها لا تعنى "ضرب بيتر جون" بل تعنى نفس المعنى السابق بالجملة (٢-٦) "ضرب جون بيتر" (الترجمة الأفضل للجملة هى "إنه جون الذى ضرب بيتر")، لا تعبأ اللغة الباسكية بترتيب الكلمات لأن – بخلاف اللغة الإنجليزية – النهايات النحوية تستخدم بها بكثرة وذلك لخدمة الأغراض النحوية، توضح النهاية ek – فى الأمثلة السابقة – الموجودة فى الاسم "Jon" أن "Jon" هو الذى يقوم بفعل الضرب وليس "Kepa" ولذلك يستطيع متحدث الباسكية تبديل موضع الكلمات دون المساس بالمعنى، أما اللغة الإنجليزية – بافتقادها لتلك النهايات – تستخدم ترتيب الكلمات لخدمة الأغراض النحوية، ومن هنا فاللغة الإنجليزية أكثر التزاما باتباع قواعد ترتيب الكلمات عن اللغة الباسكية.

لنترك الآن اللغة الباسكية ونمعن النظر قليلا فى قواعد اللغة الإنجليزية.

قاعدة نحوية إنجليزية :

تأمل الجمل الأربعة التالية، والتي تتكون من نفس الكلمات وتتشابه ظاهريا في التركيب :

بعد أن استيقظت ليزا أخذت حماما. (٢-٩) After Lisa got up,she had a shower

أخذت ليزا حماما بعد أن استيقظت.(٢-١٠) . Lisa had a shower after she got up

بعد أن استيقظت أخذت ليزا حماما. (٢-١١) . After she got up ,Lisa had a shower

أخذت حماما بعد أن استيقظت ليزا.(٢-١٢) . She had a shower after Lisa got up

ربما تشير كلمة "she" (هي) إلى شخص ما غير مذكور بالجمل السابقة، وسؤالنا هنا هو في أي من هذه الجمل الأربع تشير (هي) إلى "ليزا" ؟

بالطبع لن تأخذ منك الإجابة وقتا كبيرا قبل النطق بها، والتي ستكون على النحو التالي : من المحتمل أن تشير (هي) إلى "ليزا" في الأمثلة الثلاث الأولى وليس المثال الأخير، أليس كذلك ؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا المثال الأخير بالذات ؟ إنه موضوع نحوي بحت، فهناك قاعدة نحوية إنجليزية تحكم استخدام كلمات مثل (هي) والمسماة بالضمائر، فإذا أردت أن تستخدم (هي) للإشارة إلى "ليزا" في المثال (٢-١٢) ستكون قد أخللت بالقاعدة في حين إذا استخدمتها في الأمثلة الثلاث الأخرى فلا غبار عليك في ذلك.

إننا هذه المرة بصدد مناقشة قاعدة نحوية فعلية وليس مجرد رأي شخصي، أي إننا نتصدى للطريقة التي تسير عليها اللغة الإنجليزية، من المؤكد أنك لم تتعلم القاعدة السابقة بطريقة مباشرة، كما أنه من المؤكد أيضا أنك لم تلاحظها أو تفكر فيها من قبل، برغم وجود هذه القاعدة باللغة منذ قرون لم ينجح أحد في صياغتها حتى تمكن عالم اللغويات الأمريكي "رونالد لانجكر" من ذلك في عام ١٩٦٩، علاوة على ذلك فأنت تطبق هذه القاعدة أتوماتيكيا بمجرد تحدثك للإنجليزية أو سماعك لها، وتبعا لذلك - على سبيل المثال - لا تفكر أبدا في استخدام "هي" للإشارة إلى "ليزا" في الجملة (٢-١٢)، أي إنك تعرف القاعدة وتطبقها بالرغم من عدم تمكنك من صياغتها، فمثلما تعد قواعد القيادة جزءا من السيارة تعد أيضا القواعد النحوية جزءا من اللغة.

السؤال هنا ما هذه القاعدة ؟ لا شك أنك متلهف لمعرفتها ولكن قبل أن نقدمها يجب أن نحذرك من خيبة الأمل التي قد تصيبك عند معرفتها، إنها كالتالي :

(٢-١٣) لا يجب أن يتقدم التابع على متبوعه أو يسبقه.

لابد أنك تعرف معنى كلمة (يسبق)، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في الكلمات (التابع)، و(يتقدم)، و(المتبوع أو الاسم الذي يعود إليه الضمير)، ترى ما السبب وراء تقديمنا لهذه القاعدة بتلك الطريقة الغامضة ؟ لماذا لا نضعها بلغة إنجليزية بسيطة ؟ السبب الرئيسي هو صعوبة الصياغة بلغة واضحة، لكن بالرغم من تلك الصعوبة لا زال أمامنا محاولة لتقديم رؤية أكثر وضوحا فيما يلي :

(٢-١٤) إن كلمة(مثل هي) والتي تأخذ معناها بالكامل من كلمة أخرى في نفس الجملة (مثل ليزا) لا يمكن لها أن تأتي قبل هذه الكلمة الثانية إذا تواجدت تلك الكلمة الثانية داخل عبارة فرعية أو تابعة[١٠].

هل وضحت الصورة الآن ؟ في الحقيقة تقل هذه الرؤية وضوحا عن الرؤية الأصلية، فهي أطول وأكثر في عدد الكلمات وأقل تركيزا كما أنها أقل دقة لافتقادها لبعض التفاصيل الهامة. لكن على أية حال ربما تتجلى لك الفكرة في حال معرفتك بمعنى العبارة الفرعية، والتي هي مصطلح نحوي مثل التابع والمتبوع، وإن كان أقدم منهما بكثير إلا أن ذلك لا يمنع كونه مألوفا لك، أما إذا كان هذا المصطلح غير مألوف لك فلا شك أنك ترغب في معرفة المزيد من التفاصيل عنه، لكن الأمر ليس بسهل، فلكي نشرح معنى العبارة الفرعية يجب أن نشرح أولا معنى العبارة، ولكي نشرح معنى العبارة يجب أن نشرح أولا معنى الفعل المصرف أو الفعل غير المصدري، ولكي نشرح معنى الفعل غير المصدري يجب أن نشرح أولا معنى الفعل، وهكذا.

لابد أنك قد أدركت الآن حجم المشكلة، والتي تتلخص في أن قواعد اللغة أمر معقد ومتداخل التركيب، فهي تبدأ في العمل من خلال بعض الأفكار والطبقات التي يتم تعريفها من خلال أفكار وطبقات أخرى والتي بدورها تعرف بنفس الطريقة، لذا فإن الطريقة الوحيدة التي يمكنك بواسطتها البحث وإحراز النتائج في علم النحو هي البدء بعدد مناسب من المصطلحات الرئيسية واستخدامها في تعريف مصطلحات أخرى

(١٠) العبارة التي تعتمد على الجملة الأساسية .

والتي بدورها تصبح متاحة لتعريف مصطلحات أكثر تعقيدا، وهكذا، إننا لو أردنا تبديل مصطلح "العبارة الفرعية" بالمثال (٢-١٤) بتعريف كامل له يمكننا من تبسيطه لأقصى درجة ممكنة سيأخذ ذلك منا صفحة كاملة يكون من الصعب قراءتها، إذن فالمصطلحات الفنية لا يمكن العمل بدونها شريطة أن تكون مصطلحات مناسبة.

من هذا المنطلق لا تعد دراسة علم النحو أو اللغة بصفة عامة مختلفة عما عداها من الدراسات الأخرى ذات الأهمية، فأي شخص يدرس الفيزياء أو الموسيقا أو علم النفس أو علم الوراثة أو أي فرع من فروع العلم المعقدة يكون ملزما بإعداد طبقات متزايدة من الأفكار والتصورات المعقدة ثم يعطيها أسماء معينة أو ما تسميه بالمصطلحات الفنية، وبخلاف ذلك يصبح الأمر كله إخفاقا لا غير.

جدير بالذكر أن العديد من الناس الذين يسلمون بالحقيقة السابقة ويطبقونها على علوم مثل الفيزياء والموسيقا يرفضون تطبيقها على دراسة اللغة وحجتهم في ذلك هي أن علماء اللغويات (وبخاصة النحاة) يحاولون عامدين أن يزيدوا من غموض دراستهم بإضافة الكثير من الرموز المبهمة، هؤلاء الناس يتبنون فكرة تذهب إلى أن "النحو أمر بديهي" ويسلمون باستطاعتنا أن نقول كل ما نريده "بلغة إنجليزية بسيطة"، هؤلاء الناس مخطئون، فاللغة ليست سهلة وكذلك علم النحو، كما أن النحويين لا غنى لهم عن مصطلحاتهم مثلهم في ذلك مثل عالم الفيزياء النووية.

كل ما في الأمر أن أهمية تلك المصطلحات الفنية تكمن في استخدامها لصياغة القواعد النحوية، إنك غالبا لا تعرف كل هذه المصطلحات ولكنك بالفعل تعرف كثيرا عن القواعد النحوية الإنجليزية، فأنت تعرف - على سبيل المثال - قاعدة "الانجاكر" وتتبعها عند حديثك أو عند استماعك لأشخاص آخرين، أليس ذلك شيئًا ممتعًا ؟ هل لازلت تعتقد أنك لا تعرف شيء عن القواعد النحوية الإنجليزية ؟

إن معرفة التحدث بأي لغة تماثل تماما معرفة قيادة الدراجة أو التزحلق على الجليد أو ربط رباط الحذاء، مع العلم بأن التحدث يفوق تلك الأمور تعقيدا، إنك - كما ذكرنا من قبل - باستطاعتك تطبيق كافة القواعد النحوية وإن كنت تجهل طريقة صياغتها، إنك تستطيع قيادة الدراجة بكفاءة بدون معرفتك لسبب سيرها، فهذه وظيفة الفيزيائي الذي يقوم بإعداد مجموعة من المصطلحات والمعادلات من أجل تعريفك بما تفعل، بنفس الطريقة يقوم اللغوي بإعداد مجموعة من المصطلحات الفنية حتى يصف لك بدقة ما تفعله عند حديثك باللغة الإنجليزية.

دعونا نؤكد على نقطة واحدة قبل الانصراف عن قاعدة "لانجاكر" وهي أن "لانجاكر" يختلف عن ذلك المعلم الذى يخبرك بألا تستخدم المصدر المنشطر، فهو لا يعبر عن رأيه فى أى شيء إنه لا يقترح عليك أن تستخدم قاعدته نظرا لأهميتها، ولا ينبهك إلى أن الناس سوف يحقرون من شأنك إذا لم تتبعها، إنه ببساطة يصيغ قاعدة موجودة فعلا فى اللغة الإنجليزية ويستخدمها كل متحدثيها، أى إنه اكتشف حقيقة ما بشأن اللغة الإنجليزية : قاعدة نحوية إنجليزية كانت فى انتظار من يكتشفها، بالطبع لم يكن "لانجاكر" الشخص الوحيد الذى لاحظ اختلاف المثال الأخير عن الثلاث الأول، ولكنه كان الشخص الوحيد الذى أشار إلى ما يجرى، وهذه الإشارة هى كل ما يفعله علماء اللغويات.

قاعدة أخرى :

إننا الآن بصدد الحديث عن قاعدة أخرى حتى لا يرد إلى ذهنك أن قاعدة "لانجاكر" حالة خاصة، تسمى هذه القاعدة بقاعدة "روس" نظرا لأن عالم اللغويات الأمريكى "جون روس" هو أول من قام بتعريفها عام ١٩٦٧، انظر إلى الجملة البسيطة التالية :

(٢–١٥) اشترت ليزا سيارة. (2.15) Lisa bought a car.

لا تشتمل الجملة على شيء غير عادى كما يبدو، الآن سنكوِّن سؤالا عن كلمة "سيارة" باستخدام العبارة "which car" "أية سيارة" :

(٢–١٦) أية سيارة اشترتها ليزا ؟ (2.16) Which car did Lisa buy ?

توضح الجملة السابقة الطريقة المتبعة فى تكوين الأسئلة فى اللغة الإنجليزية والتى تعد أمرا غاية فى التعقيد : تأتى العبارة "أية سيارة" فى بداية الجملة بينما تأتى "سيارة" فى نهاية الجملة، تظهر الكلمة "did" (التصريف الثانى للفعل "do" "يفعل") استخدم الفعل "buy" (يشترى) بدلا من "bought" (اشترى)، إذا كنت لا تعترف بمدى تعقيد العملية السابقة فعليك بسؤال شخص يتعلم الإنجليزية كلغة أجنبية عن مدى الصعوبة، لا تهتم قاعدة "روس" بطريقة تكوين الأسئلة بل بالأحرى تهتم بالظروف التى عندها يمكن صياغة السؤال، فلنتبع الطريقة السابقة مع الأمثلة الآتية :

(2.17) Tim said Lisa told him Larry bought a car.

(٢–١٧) قال "تيم" أن "ليزا" أخبرته بأن "لارى" اشترى سيارة.

(2.18) Which car did Tim say Lisa told him Larry bought yesterday ? (٢-١٨)

أية سيارة التى قال "تيم" "لليزا" أن "لارى" اشتراها بالأمس ؟

(2.20)(She was describing a car to the police when it suddenly drove (٢-١٩) past .

(2-19)عندما كانت تصف السيارة للشرطة فوجئت بها تمر أمامها.

Which car was she describing to the police when it suddenly (٢-٢٠) drove past ?

(2-20)أية سيارة مرت أمامها فى أثناء وصفها لها.

(2.21) The guests who arrived in a car are ready to go home . (٢-٢١)

إن الضيوف الذين أتوا فى سيارة مستعدون للرحيل.

*Which car are the guests who arrived in ready to go home ? (٢-٢٢)

أية سيارة الضيوف الذين حضروا بها مستعدون للرحيل ؟

ثمة خطأ حدث بالجملة الأخيرة، لكن لماذا حدث هذا الخطأ ولماذا جاءت الجملة (٢-٢٢) غير صحيحة نحويا برغم اتباعنا لكل القواعد اللازمة لتكوين الأسئلة ؟

إننا فى ركاب عملنا لصياغة القواعد الخاصة بتكوين الأسئلة فى اللغة الإنجليزية (لن نفعل هذا الأمر الآن) نكون ملزمين بتعقيد تلك القواعد عن طريق إضافة بعض الفقرات، ولكن يستثنى من ذلك الجملة (٢-٢٢) التى يكون من الصعوبة بمكان تكوين سؤال بها، إذن ما الحالات التى تتشابه مع الجملة (٢-٢٢) ؟ لماذا تختلف تلك الحالات وتتميز عما عداها ؟

هذا هو السؤال الذى نجح "جون روس" فى الإجابة عليه عام ١٩٦٧، سنتذكر قاعدته فيما يلى ونذكرك بألا ترتبك :

(٢-٢٣) ما العبارة الاسمية المعقدة إلا جزيرة.

مرة أخرى تظهر المصطلحات الغامضة وتظهر معها مشكلة تفسيرها، فلكى نشرح المقصود بالعبارة الاسمية المعقدة يجب أن نشرح أولا المقصود بالعبارة

الاسمية، ولكي يتسنى لنا ذلك يجب أن نفسر المقصود بكل من الاسم والعبارة، وأيضا لكي نشرح معنى الجزيرة يجب أن نشرح أولا المقصود بالتبعية ، من المؤكد أن الصورة قد تجلت لك الآن كاملة، أما نحن بدورنا فما علينا إلا تقديم صياغة تقريبية لقاعدة "روس" باستخدام لغة إنجليزية بسيطة وإن كانت غير كافية :

(٢-٢٤) لا يمكنك السؤال عن شيء ما بداخل جملة الوصل.

إذا كنت تعرف المقصود بجملة الوصل (هي مصطلح فني قديم) فإنه بإمكانك فهم أن العبارة "سيارة" تقع بداخل جملة الوصل "الذي حضر بالسيارة"، لذا تكون الجملة (٢-٢٢) غير صحيحة نحويا طبقا لقاعدة "روس". أما إذا لم يتسن لك معرفة المقصود بجملة الوصل فتقبل كلامنا كما هو لأنه ليس لدينا متسع من الوقت لشرح المزيد من القواعد النحوية.

إن تفسيرنا لقاعدة "روس" بالجملة (٢-٢٤) لا يسير في جميع الأحوال، انظر إلى المثال التالي :

(2.25) The rumor that John has stolen a car is completely untrue.

(٢-٢٥) الإشاعة القائلة بأن "جون" سرق سيارة غير صحيحة بالمرة.

(2.26) Which car is the rumor that John has stolen completely untrue ?

(٢-٢٦) أية سيارة الإشاعة القائلة بأن "جون" سرق غير صحيحة بالمرة ؟

كما يبدو بوضوح فإن الجملة (٢-٢٦) غير صحيحة تماما بالرغم من عدم تواجد أي جمل وصل، إن هذه الحالة الجديدة هي السبب في احتواء قاعدة "روس" على مصطلح "الجملة الاسمية المعقدة"، كما أنها السبب في اعتبار تفسيرنا السابق (٢-٢٤) غير كاف.

تأكيدا على كلامنا السابق نقول إنك تعرف قاعدة "روس" بدليل أنك لا تسأل سؤالا مثل (٢-٢٢)، وإذا حدث وأخطأ أحد الذين يتعلمون الإنجليزية كلغة أجنبية مثل هذا الخطأ فإنك سوف تلاحظه على الفور، مرة أخرى نذكرك بأن هذه القاعدة ليست وجهة نظر شخصية إنها قاعدة نحوية لا محيص عن اتباعها.

إن قاعدة "الانجاكر" (المسماة بحالة التابع والمتبوع) وكذلك قاعدة "روس" (حالة التقيد بالجملة الاسمية المعقدة) ما هما إلا قاعدتان من العديد من القواعد التي تتحد وتتفاعل حتى تكون علم النحو الإنجليزي برمته، تتواجد كل تلك القواعد في اللغة ولا تجليها سوى الأبحاث المضنية والمتأنية من قبل علماء النحو على مر العصور، وهذا ما فعله كل من "الانجاكر" و"روس": أسهموا بجهودهم في وصف نحو اللغة الإنجليزية والذي لم يكتمل حتى يومنا هذا، من يدري ربما يكتشف بعض قارئي كتابنا هذا قواعد نحوية تسمى باسمهم ؟

الفصائل النحوية :

ينقسم علم النحو في أية لغة إلى عدد معين من الفئات والوحدات والأشكال تسمى بالفصائل النحوية، تنقسم هذه الفئات بدورها إلى العديد من الأنماط المختلفة، لا يسعفنا الوقت هنا إلا للحديث عن فصيلة واحدة من هذه الفصائل ويمكن اعتبارها كمثال، بداية نقول أن البناء المعجمي لأية لغة يشتمل على عشرات من الآلاف من الكلمات، ونؤكد هنا على كلمة أية لغة، لأن بعض الاعتقادات الغربية - القائلة بأن بعض المجتمعات البشرية تستخدم عدداً قليلاً من الكلمات المستمدة من الإشارات والأصوات - تظهر من حين لآخر نتيجة لسوء الفهم والجهل والأحكام العامة السريعة.

بالرغم من ذلك تقع كلمات أي لغة في عدد ضئيل من الفئات والتي تسمى بالفصائل المعجمية أو فئات الكلمة أو أجزاء الكلام، إذن كم يبلغ عدد تلك الفصائل المعجمية ؟ تبلغ هذه الفصائل في اللغة الإنجليزية حوالي خمس عشرة فصيلة لأن الرقم الفعلي ما زال محل نقاش، من بينها تلك الفصائل التقليدية كالاسم والفعل والصفة وحرف الجر والتي تم تعريفها من قبل النحاة اليونانيين منذ آلاف السنين، كما نجد أيضا الفصائل الحديثة التي تم تعريفها في القرن العشرين ومن أمثلتها المكملات (مثل إذا) والمحددات (مثل الـ وهذا).

كيف يمكن تحديد الفصيلة التي تنتمي إليها كلمة ما ؟

حاول النحاة التقليديون الإجابة على هذا السؤال مرارا عن طريق إدراج معان للكلمات، وأعدوا طبقا لذلك تعاريف مثل "الاسم هو إما اسم إنسان أو مكان أو شيء"،

"الصفة هي الكلمة التي تدل على كيفية". هذه التعاريف لا توفي بالغرض؛ فطبقا لإحداها تصنف كلمة "red" أحمر" كاسم، في حين أنها في الجملة "Lisa bought a red skirt" اشترت ليزا جونلة حمراء" تعد صفة، تواجه كل التعريفات القائمة على المعنى نفس المشكلة لأن الفصائل المعجمية في الواقع لا تعتمد على المعنى بأي حال من الأحوال : إنها فصائل نحوية ولذلك يجب تعريفها تبعا لخصائصها النحوية.

إذن كيف يمكن تعريف تلك الفصائل المعجمية طبقا لخصائصها النحوية؟

نقدم فيما يلي بعض الاقتراحات يمكن استخدامها في تعريف فئة الاسم.

أولا : للأسماء خصائص توزيعية محددة ، فهي تتحقق في مواقع بعينها بالجملة لا تتحقق في غيرها، تأمل المثالين التاليين :

(2-27) The .... was nice. (٢-٢٧) كان .... ظريفًا

(2-28) The .... were nice . (٢-٢٨) كانوا .... ظرفاء

يجب أن تكون الكلمة التي تحل محل الفراغات في الجمل السابقة اسما، لأن النحو الإنجليزي يسمح للأسماء دون غيرها باحتلال المواقع السالفة الذكر، لهذا يمكن للكلمات "خمر ، عشب ، كتاب ، دمار ، تقدم ، افتتاح" أن تحل محل الفراغ بالجملة الأولى، في حين تأتي كل من الكلمات "كتب ، مقص ، بوليس ، خراف ، ظواهر" بالجملة الثانية، كل هذه الكلمات تعد من الأسماء، (يرجع السبب في اختيارنا لنموذجين من الكلمات إلى تداخل فئة الاسم مع فئة أخرى سيتم مناقشتها فيما يلي)، هناك كلمات أخرى لا يمكن أن تحل محل الفراغات وبالطبع لا يمكن اعتبارها من الأسماء ومن أمثلتها "سعيد ، يصل ، مع ، الـ ، ببطء ، لذلك".

ثانيا : للأسماء خصائص تصريفية معينة، فأشكالها تتغير داخل الجملة طبقا للأغراض النحوية، تعد حالتي المفرد والمذكر من أهم الحالات التي يظهر فيها التغير أو التنوع – في الأسماء – من بين هذه الحالات : "dog / dogs" (كلب / كلاب)، "box / boxes" (صندوق / صناديق)، "library / libraries" (مكتبة / مكتبات)، "child / children" (طفل / أطفال) "radii / radius" (نصف قطر / أنصاف أقطار)، "person / people" (شخص / أشخاص)، لاحظ أن الأشكال المفردة تصلح لملء فراغ الجملة (٢-٢٧) بينما تصلح الأشكال الجمعية لملء فراغ الجملة (٢-٢٨).

جدير بالذكر أنه بعض الأسماء الإنجليزية لا تمتلك هذين الشكلين - المفرد والجمع - فالأسماء مثل "wheat" (قمح)، furniture (أثاث)، "spaghetti" (أسباجتى) لها شكل مفرد فقط، بينما للأسماء مثل "oats" (شعير)، "police" (بوليس)، "pants" (سروال)، "scissors" (مقص) شكل واحد فقط وهو الجمع، تعد كل هذه الأسماء بالرغم من ذلك أسماء عادية بغض النظر عن التغيرات الطفيفة التى تنتابها.

ثالثا : للأسماء خصائص اشتقاقية معينة : أى يمكن تزويدها ببعض السوابق[١١] واللواحق لاشتقاق كلمات أخرى منها، ودائما تكون هذه الكلمات من فئات معجمية مختلفة، على سبيل المثال لا الحصر تضاف اللاحقة -like لكثير من الأسماء لتكوين صفات مثل "dog / doglike" (كلب / شبيه بالكلب)، "box / boxlike" (صندوق / شبيه بالصندوق)، "child / childish" (طفل / طفولى)، "spaghetti / spaghetti like" (اسباجتى / شبيه بالاسباجتى) (ربما لا نسمع هذه الكلمة فى الحياة اليومية ولكنها تروق لكاتبنا كثيرا)، على الجانب الآخر يمكن إضافة السابقة un لبعض الصفات مثل "happy / unhappy" (سعيد / غير سعيد)، "interesting / uninteresting" (ممتع / غير ممتع)، بينما لا يحدث ذلك فى بعض الصفات الأخرى مثل "dog / *undog" (كلب)، "joy / *unjoy" (فرح)، "oats / *unoats" (شعير) ، "destruction / *undestruction" (دمار)، (كما اعتدنا تشير النجمة إلى شكل غير صحيح نحويا).

تجح النحويون بجدارة فى تعريف الخصائص المختلفة للفصائل النحوية الإنجليزية الخمسة عشر مع وجود خلافات على بعض التفاصيل البسيطة، ظهر - فى خضم عمل النحويين - اكتشاف طريف يذهب إلى أن عدداً قليلاً من الكلمات الإنجليزية لا ينتمى إلى أية فصيلة بالمرة، من هذه الكلمات "please" (من فضلك)، "not" (لا)، "to" المصدرية بصفة خاصة والتى تتحقق بالمثال "I want to be alone" (أريد أن أكون بمفردى)، تمثل تلك الكلمات سلوكا نحويا مختلفا تماما؛ لذلك لا يمكن لها أن تختص بفئة معجمية معينة، اعتاد بعض النحويين التقليديين خطأ أن يطلقوا على أمثال هذه الكلمات "أحوال" فقط لأنهم استخدموا فصيلة "الأحوال" كسلة مهملات لكل الكلمات المجهولة الفصيلة.

(١١) طريقة لتكوين الكلمات عن طريق إضافة بعض العناصر قبل أصل الكلمة .

فصيلة العدد :

تتداخل فصيلة الاسم ـ كما ذكرنا آنفا ـ مع فصيلة أخرى يطلق عليها فصيلة العدد، وهي فصيلة هامة في اللغة الإنجليزية بخلاف الفصيلة المعجمية، تتداخل فصيلة العدد مع فصائل معجمية معينة وتؤثر في أشكالها في جمل بعينها، فنحن نعرف أن العدد يظهر تأثيره جليا على الأسماء، وقد رأينا فيما سبق أن معظم الأسماء الإنجليزية تأتي في صيغة المفرد والجمع، في حين تأتي البقية الباقية في شكل واحد، بالطبع يتحدد اختيار أحد الصيغتين وفق العدد المقصود.

(٢-٢٩) الكلب جوعان. — (2-29) The dog is hungry

(٢-٣٠) الكلاب جائعة. — (2-30) The dogs are hungry

يبدو واضحا في المثال (٢-٢٩) أن الحديث يقصد به كلب واحد بينما يبلغ عدد الكلاب في المثال (٢-٣٠) اثنان على الأقل وربما أكثر من اثنين، لكن الأمور لا تسير دائما حسبما نتوقع:

(2.31) The dog is clearly related to the wolf .

(٢-٣١) يتشابه الكلب إلى حد كبير مع الذئب.

يتجلى لنا عند قراءة المثال (٢-٣١) أن الحديث لا يقصد به كلب واحد بل كل فصيلة الكلاب بالرغم من استخدام صيغة المفرد، نستنتج من ذلك أن استخدام صيغة المفرد تكون إجبارية عند الحديث عن فرد واحد وتكون اختيارية عند الحديث عن كل الأفراد.

علاوة على ذلك يظهر في فئة العدد بعض الحالات الخاصة، تظهر كلمات مثل "scissors" (مقص)، "pants" (سروال) مفردة ولكنها في الواقع كلمات جمعية ليس لها صيغة مفردة على الإطلاق :

(٢-٣٢) هذا المقص حاد . — (2-32) *This scissor(s) is very sharp .

(٢-٣٣) هذا السروال جاف تقريبا . — (2-33) *This pant(s) is nearly dry .

تأتي كلمة "bra" (صدرية الثديين) في صيغتي المفرد والجمع، ترى ما الفرق بين هذه الكلمة وبين كلمة "pants" (سروال) التي تأتي جمعا دائما ؟ لا سبب سوى أن

هذه سمة مميزة في اللغة الإنجليزية يقابلها سمة أخرى تتمثل في كلمة "furniture" (أثاث)، عند الحديث عن "أثاث الردهة" يكون المقصود عدة عناصر مختلفة وبرغم هذا تأتي الكلمة دائما مفردة :

(٢-٣٤) ذلك الأثاث بديع حقًا (2-34) *These furniture(s) are rather nice .

ماذا عن كلمة "grain" (عشب) ؟ هل عند النظر إلى حقل مليء بالعشب يكون التركيز على عنصر واحد أم عدة عناصر ؟ الإجابة هنا مبهمة لأنه عند الحديث عن العشب يكون من الصعب التفرقة بين عنصر أو عدة عناصر، ولكن النحو الإنجليزى يفرض علينا اختيار صيغة عددية لكل كلمة فلا يسعنا سوى الاختيار اعتباطيا : كلمة "wheat" (قمح) مفردة بلا جمع، كلمة "oats" (شعير) جمع بلا مفرد، كما رأينا يجب أن تأتي كل كلمة إما جمعا أو مفردا ولا مفر من الاختيار.

نخلص مما سبق أن فصيلة العدد تؤثر على أشكال كلمات بعينها، فمتى توجد الفصيلة يتتبع ذلك ظهور الكلمة في إحدى الصيغتين - المفرد أو الجمع - ولا مفر من حدوث ذلك.

السؤال الآن هو : هل فئة العدد عالمية ؟ الإجابة هنا لا، معظم اللغات الأوروبية تتشابه مع اللغة الإنجليزية في وجود صيغتي المفرد بها، (نجد - مع وجود اختلافات طفيفة - أن الكلمة الفرنسية التي تعني "سروال" تأتي في كلتا الصيغتين، وكذلك الكلمات الإسبانية المرادفة لكل من "الهليون"(١٢) و"السبانخ"، أما الكلمة الباسكية التي تعني "كرنب" تأتي في الجمع فقط ، أما "عنب" فتأتي مفردة فقط.

تفتقد بعض اللغات فصيلة العدد تماما، أو على الأقل لا تتمثل هذه الفصيلة في أسماء بعض اللغات، فعلى سبيل المثال لا تميز اللغات اليابانية أو الصينية بين المفرد والجمع، وبالمثل اللغة "المالية" (اللغة الرئيسية في ماليزيا)، لا تعتبر فصيلة العدد في تلك اللغات جزءا من النحو، أما إذا اقتضت الضرورة ظهورها فتستخدم للدلالة عليها كلمات مثل "واحد"، "اثنان" ، "كثير".

على النقيض من اللغة الإنجليزية تمتلك بعض اللغات نظام مفصل لفصيلة العدد، فمثلا يتمثل في اللغة العربية نظام ثلاثي للعدد بالأسماء : المفرد والمثنى والجمع "مالك"

(١٢) نبات تؤكل سيقانه .

- "مالكان" - "مالكون"، تضيف اللغة الباسيفيكية "اللاركية" صيغة رابعة في الضمائر فقط وليس في الأسماء: "mane" (هو أو هي) - "matua" (هما الاثنان) - "matido" (هم الثلاثة) - "mati" (هم) (للأربعة فأكثر)، تتمثل في لغة شرق إفريقيا " تيجر" ثلاثة صيغ مختلفة للأسماء: المفرد والجمع و "paucal" أو الجمع القليل : "faras" (حصان)، (خيول قليلة) (خيول) ، (تدل - في الكلمات السابقة على الهمزة)، أخيرا نقول أن أية لغة لها مطلق الحرية في تكوين الصيغات العددية الخاصة بها أو تجاهلها على الإطلاق وتتقلص مساحة هذه الحرية في حالة تواجد تلك الصيغ بالفعل في نحو هذه اللغة، فيلزم اتباع تلك الصيغ اتباعا دقيقا.

النوع :

يعد النوع من أهم الفصائل النحوية وأكثرها غرابة، نظرا لأنه من أكثر الفئات التي يصعب تفسيرها، فإننا سنحاول توضيح معناه قليلا.

تنقسم الأسماء في كل اللغات التي تتمثل فيها فصيلة النوع - قليل من اللغات يتمثل فيها ذلك - إلى قسمين أو أكثر تسمى أقسام النوع، يختلف السلوك النحوي من قسم إلى آخر اختلافا ملحوظا.

تشتمل اللغة الفرنسية على فئتين من النوع : المؤنث والمذكر (قد تكون المسميات خادعة في بعض الأحيان)، يظهر الاختلاف بين هاتين الفئتين نحويا في عدة جوانب، فعلى سبيل المثال تستخدم أداة التعريف الفرنسية "le" أمام الاسم المذكر بينما تستخدم الأداة "la" أمام الاسم المؤنث، تبعا لذلك توضع أداة التعريف "le" أمام كلمة "livre" (كتاب) باعتبارها كلمة مذكرة، في حين توضع أداة التعريف "la" أمام كلمة "table" (منضدة) باعتبارها كلمة مؤنثة، تتبع كل كلمة من كلمات اللغة فئة واحدة من هاتين الفئتين، انظر الكلمات الآتية : "le chien" (الكلب)، "le mot" (الكلمة)، "le bif-teck" (اللحم)، "le mystère" (الغموض)، "la maison" (المنزل)، "la voiture" (السيارة)، "la moutarde" (المسطردة)، "la découverte" (الاكتشاف).

يرجع السبب في تسمية النوع بهذين المسميين إلى أن معظم الأسماء التي تدل على المذكر تنتمي إلى فئة النوع المذكر وبالمثل تنتمي معظم الأسماء التي تدل على المؤنث إلى فئة النوع المؤنث، فتكون كل من الكلمات "homme" (رجل)، "taureau"

(ثور) ، "maitre" (سيد) مذكرة، وتكون كل من "femme" (امرأة)، "vache" (بقرة)، "maitresse" (سيدة) كلمات مؤنثة، لكن هذا التناسق لا يسير دائما، فكلمة "sentinelle" (حارس أو خفير) مؤنثة مع العلم بأن الغالبية العظمى من الخفراء رجال، على الجانب الآخر تكون كلمة "contralto" (المُرنّة)[١٣] مذكرة في حين أن كل المرنات من النساء، على أية حال لا تنتمي الغالبية العظمى من الأسماء الفرنسية إلى فئة المذكر أو المؤنث، بل تنتمي إلى فئة أو أخرى على أسس اعتباطية - اعتباطية من حيث معانيها، أي أنه ليس هناك سبب رئيسي يجعل كل من، كتب، كلمات، غموض كلمات مذكرة، أو كل من: سيارات، مسطردة، اكتشافات مؤنثة.

نخلص مما سبق أنه لا توجد علاقة خاصة بين الجنس والنوع، فالعلاقة وثيقة بين الجنس وعلم الأحياء، بينما يختص النحو بالجنس ولا يوجد سبب يجعل كلاً من النوع والجنس مرتبطين اللهم إلا بعض الطرق الواهية غير المترابطة ، والتي نجدها باللغة الفرنسية.

كما رأينا لا توجد أية علاقة بين الجنس والنوع في كثير من اللغات، وأكثر من ذلك قد لا توجد علاقة بين المعنى والجنس بالمرة، تتضمن اللغة الإفريقية السواحيلية - على سبيل المثال - ثمانية فئات للنوع : تنتمي معظم الأسماء الدالة على البشر من الجنسين إلى فئة نوعية واحدة يطلق عليها الفئة رقم واحد وتضم هذه الفئة أيضا معظم أسماء الحيوانات، تشتمل الفئة الثانية على العديد من الكلمات الدالة على الأشياء ذات الحجم الكبير، في حين تشتمل الفئة الثالثة على الأشياء الصغيرة الحجم، بالرغم من ذلك نجد أن الجنس في اللغة السواحيلية لا يرتبط بالنوع على الإطلاق ويكاد يكون ارتباطه بالمعنى لا يذكر، لذا فعلاقاته بالنوع والمعنى اعتباطية وغير متوقعة.

تشتمل لغة "نافاهو"[١٤] – لغة أمريكا الشمالية – على عشر فئات للنوع، في هذه اللغة يمكن التنبؤ بالجنس عن طريق المعنى بينما لا يلعب النوع أي دور في ذلك، تنقسم فئة النوع إلى فئة للكائنات البشرية وأخرى للسوائل وثالثة للأشياء المستديرة كالحجارة والكرات ورابعة للأشياء الطويلة كالأقلام وخامسة للأشياء الطويلة المرنة كالحبال والأحزمة وهكذا.

(١٣) مطربة لها صوت رنان .

(١٤) لغة مستخدمة في الأريزونا .

أما اللغة غير الأوروبية التي لا يوجد بها علاقة بين الجنس والنوع فهي اللغة الأسترالية "ديربيل"، سنلقي فيما يلي نظرة على فئة النوع الشهيرة والجديرة بالاهتمام في اللغة الأسترالية، تشتمل تلك اللغة على أربع تصنيفات للنوع من السهل توقعها بمعرفة بعض المعلومات، فيما يلي ملخص لمجموعات الكلمات التي تنتمي لكل تصنيف :

النوع (١)	النوع (٢)	النوع (٣)	النوع (٤)
الرجال. الكنغر. الأبوسوم. الخفافيش. معظم الثعابين. معظم الأسماك. بعض الطيور. معظم الحشرات. القمر. العواصف، قوس قزح. حراب المعارك. حراب الصيد.	النساء. البَنْدَقُوْط(١٥) الكلاب. منقار البط. الثعابين الخطيرة. الأسماك الخطيرة. معظم الطيور. الفراشات، الصراصير. العقارب. بعض الحشرات القارصة. كل الكلمات المرتبطة بالنار والماء والشمس والنجوم. الترس. النباتات الضارة.	كل الأشجار والنباتات الصالحة للأكل.	أجزاء الجسم. اللحم. النحل والعسل. الرياح. العصي. الأشجار والنباتات غير الصالحة للأكل وغير الضارة. الطين، الأحجار والضوضاء، اللغة وغيرها.

تتنوع أداة التعريف "الـ" في تلك اللغة - مثل اللغة الفرنسية - فهي تشتمل على أربع أشكال منها : "bayl" للتصنيف الأول، "balan" للثاني، "balam" للثالث، "bala" للرابع.

سنذكر الآن القواعد التي يتحدد الجنس وفقا لها في اللغة "الدربالية" :

١- الفئة الأولى : للكلمات الخاصة بالرجال والمخلوقات غير البشرية.

٢- الفئة الثانية : للكلمات الخاصة بالنساء والنار والماء والمعارك.

(١٥) فأر هندي ضخم.

٣ – الفئة الثالثة للكلمات الخاصة بالنباتات الصالحة للأكل.

٤ – الفئة الرابعة : ما يتبقى من كلمات.

هناك عدة قواعد أخرى لها من الأهمية ما يفوق تلك القواعد الأربعة الأساسية وهي :

٥ – أية كلمة تتعلق بالرياضيات وتخص الرجال أو النساء تضمها الفئة الأولى والثانية على الترتيب.

٦ – أية كلمة تدل على شيء خطير تضمها الفئة الثانية.

٧ – أية كلمة تدل على شيء ذي أهمية خاصة في المجتمع الديربالي تضمها فئة غير معروفة.

دعونا نطبق القواعد السابقة على كلمات التصنيفات الأربعة : طبقا للقاعدة الأولى تختص فئة النوع الأولى بالكلمات الدالة على الرجال أو الكائنات غير البشرية، فإذا جئنا للأدوات التي تستخدم في عملية الصيد كالبمرنج[١٦] والحراب والتي يقوم بها الرجال فقط نجدها تندرج تحت الفئة الأولى، يعتبر كل من القمر والعواصف وقوس قزح رجال في الأساطير الديربالية؛ لذلك طبقا للقاعدة الخامسة تكون هذه الكلمات ضمن الفئة الأولى أيضا. طبقا للقاعدة الثانية تختص الفئة الثانية بالكلمات الدالة على النساء والنار والماء والحرب. طبقا للقاعد السادسة تختص الفئة الثانية أيضا بالأشياء الخطيرة حتى وإن كانت تلك الأشياء دالة على نوع آخر، فتكون كل من الثعابين السامة والقراص[١٧] والدويدات اللاذعة ضمن كلمات الفئة الثانية. تعتبر الطيور في الأساطير أرواحاً للنساء لذا تتضمن الفئة الثانية أسماء الطيور طبقا للقاعدة الخامسة باستثناء قليل منها والتي تعتبر ذكورا في الأساطير وتكون تبعا لذلك ضمن الفئة الأولى، تعد الشمس أسطوريا من الإناث يتبعها في ذلك النجوم ونظرا لأنها تحمل صفة التوهج فهي تتبع الفئة الثانية ، أما عن سبب تواجد كلمات مثل البَنْدَقُوْط والكلاب ومنقار البط والنُّضْناض (قنفذ النمل) بالفئة الثانية فهو غير معروف؛ ربما يكون ذلك بسبب ارتباطهم بأحد الأساطير غير المعروفة أو لأن مجيئهم في تلك الفئة مجيئا اعتباطيا

(١٦) قوس خشبي معقوف يقذف ويستخدمه سكان أستراليا الأصليين .
(١٧) نبات بري له أوراق شائكة .

أو غير مقيد بقاعدة ما كالكلمات الفرنسية "حارس" و"مرنة ". تختص الفئة الثالثة بالنباتات الصالحة للأكل، أما الفئة الرابعة فهي فئة البواقي التي تضم كل الكلمات التي لا يستقيم مجيؤها في الفئات الثلاث الأولى، فنجد أن النحل والعسل يتبعان تلك الفئة طبقا للقاعدة السابعة وهذا بسبب أن العسل هو الطعام الحلو والمورد الوحيد للشرب بعد الماء مما يمثل أهمية خاصة للمجتمع الديربالي، أخيرا نقول إن في هذا النظام المدهش يكون من السهل التوقع بالنوع بخلاف النظام المتبع في لغات أخرى مثل الفرنسية والسواحيلية، ولكن المشكلة تكمن في القواعد السبع المتسمة بقليل من الغموض.

السؤال الأخير هو: ماذا عن اللغة الإنجليزية ؟ لا تشتمل اللغة الإنجليزية على نظام الجنس، صحيح أنها تشتمل على بعض الكلمات الدالة بصفة أساسية على المذكر مثل "ثور" و"ديك"، وكذلك كلمات أخرى دالة على المؤنث مثل "بقرة" و"دجاجة"، كما أنها تفرق بين الضمائر المذكرة **"he"** (هو) والمؤنثة **"she"** (هي) والضمائر التي تشير إلى الجمادات والأطفال **"it"** (هذا)، ولكنها تختلف عن الفرنسية والسواحيلية[١٨] والديربالية في أنها لا تقسم كلماتها إلى فئات تتطلب كل منها سلوكاً نحوياً مختلفاً، تشتمل اللغة الإنجليزية – ككل اللغات – على الوسائل اللازمة لتوضيح الفروق بين الأجناس المختلفة ، ولكنها لا تشتمل على النوع.

(١٨) اللغة الرسمية في تنزانيا وكينيا .

الفصل الثالث

اللغة والمعنى

عند سؤال معظم الناس عن الوظيفة التي وجدت من أجلها اللغة تكون إجابتهم هي : اللغة وسيلة التعبير عن المعاني وتوصيلها إلى الناس، إن القدرة على التعبير عن المعاني جانب لا يمكن إغفاله كوظيفة للغة، فإذا جاء كلامنا قاصرا في توصيل المعاني المرادة منه تكاد تكون فرصة قيام اللغة بوظائفها الأخرى منعدمة، إذن ما المعنى وكيف يتسنى لنا التعرف عليه ؟

لا يعد السؤال السابق بسيطا، فليس هناك سؤال يمس اللغة تكون إجابته أقل وضوحا وأكثر إثارة للجدل من إجابته، يطلق على دراسة المعنى "علم الدِّلالة"، وهو فرع من فروع علم اللغويات والذي كان - أكثر من أي فرع آخر - من الصعب على الإطلاق إحراز أي تقدم به، فكثيرا ما اختلف علماء الدِّلالة حول الأسئلة المطروحة، ناهيك عن الطريقة التي من المفروض أن تكون عليها الإجابات، أصبح العديد من اللغويين بالولايات المتحدة الأمريكية في الفترة ١٩٤٠ وحتى ١٩٥٠ غير عابئين بكل ما يخص علم الدلالة حيث قاموا بتعريف علم اللغويات مستثنين منه علم الدلالة وحجتهم في ذلك أن دراسة المعنى أمر تافه لا يجب أن يقام له وزن، لحسن الحظ أن هذا الرأي لم يكتب له الانتشار مما أتاح لذلك العلم أن يصبح الآن واحدا من أكثر المناطق المطروقة في علم اللغويات، لكن تبقى مشكلة صعوبة الأسئلة، وفي هذا الفصل سننظر إلى قليل من الطرق التي من خلالها يتم التعبير عن المعاني في اللغة.

صعوبة تعريف الكلمات :

يعتمد معنى أية جملة على عنصرين على الأقل : معاني الكلمات بالجملة، والتركيب النحوي لتلك الجملة، انظر إلى الأمثلة الآتية :

(٣-١) عقر الكلب الرجل الذي يبيع اللبن. **(3-1) The dog bit the milkman.**

(٣-٢) عقر الكلب ساعي البريد. (3-2) The dog bit the postman .

(٣-٣) يعقر الكلب ساعي البريد. (3-3) The dog is biting the postman .

(٣-٤) عقر ساعي البريد الكلب . (3-4) The postman bit the dog.

يتطابق التركيب النحوى لكل من المثال الأول والثاني، ولكنهما يتضمنان كلمات مختلفة، لذا فالمعاني التي يعبران عنها تكون مختلفة، يشتمل المثالان الثاني والثالث على نفس الكلمات تقريبا في حين يختلف تركيبهما النحوى فتكون المعاني التي يعبران عنها مختلفة كذلك، أما المثالين (٣-٢)، (٣-٤) فيتطابقان في كل من التركيب النحوى والكلمات ولكن ما زالت المعاني الناتجة منهما غير متطابقة لأن الكلمات انخرطت في التركيب النحوى بطرق متباينة.

طبقا لما تقدم يكون من الضروري توافر عنصرين على الأقل حتى يتسنى لنا التعرف على معنى جملة ما، هذان العنصران هما معرفة معاني كل الكلمات التي تتكون منها الجملة وفهم أدق التفاصيل الخاصة بالتركيب النحوى لتلك الجملة، هل هذا كل ما نريد معرفته ؟ يجيب بعض الناس على هذا السؤال بالإيجاب، ولقد كان لوجهة النظر الإيجابية هذه تأثير كبير على علم الدلالة وأطلق عليها "قاعدة التكوين لفريج" نسبة للفيلسوف الألماني الذى كان أول من أشار إليها.

كما سيتضح لنا من خلال الفصل الحالي من الكتاب، قد لا تبدو الأشياء بسيطة مثلما توحي قاعدة "فريج"، في ذات الوقت ـ بالرغم من ذلك ـ دعونا نفترض أن النحاة الذين تحدثنا عنهم في الفصل الثاني قد صنعوا خيرا كثيرا بشرحهم للقواعد اللغوية وليكن دورنا الآن تفسير مشكلة معاني الكلمات.

يطلق على دراسة معاني الكلمات "علم الدلالة المعجمي" وهو يختص ـ بالإضافة إلى المعاني المفردة ـ بالطريقة التي ترتبط بها معاني الكلمات المختلفة، لنبدأ فيما يلي بسؤال بسيط: ماذا تعني كلمة كلب ؟

ليتضح السؤال قليلا تخيل أن شخصا من المريخ هبط لتوه على كوكب الأرض وتسنى له تعلم القليل من الإنجليزية عن طريق مشاهدة البرامج التي يبثها التليفزيون على الأرض، ولكن لم يسبق له رؤية الكلب، إنه حتى لم يسمع الكلمة ويريد منك إعطاؤه تعريفا كاملا لها، سيجوب هذا الشخص الأرض جيئة وذهابا في كل مرة

يصادف فيها شيئا جديدا، ويرجع إلى تعريفك ليعرف ما إذا كان هذا الشيء الجديد كلبا أم لا، لذلك فهو يتوقع أن يعطيه التعريف النتيجة التي يبغيها، وإذا ما خذله ذلك التعريف ذات مرة سيصاب بالضيق، الآن نمهلك دقيقتين من الوقت كي تكتب له تعريفا لكلمة كلب.

قد ترغب في مقارنة تعريفك بآخر ورد بأحد القواميس الجيدة، لذا فإننا نقدم لك تعريفا من "قاموس كولنز الإنجليزي" (قمنا بحذف بعض المعاني الإضافية التي لا تمت لموضوعنا بصلة) :

كلب : اسم .

١ – من الثدييات النابية المستأنسة – تتوافر منه سلالات عديدة ذات تنوعات هائلة في الحجم والشكل .

٢ – من آكلات اللحوم ، ينتمي إلى الفصيلة التي تضم الدِّنْغ(١٩) والقَيُوط(٢٠).

لابد أن تعريفك مختلف تمام الاختلاف عن ذلك التعريف وعلى أي حال فإننا سنفنده فيما بعد ولكن الآن دعنا نفترض أن ذلك الشخص المريخي قد استخدم تعريف القاموس.

في البداية، سيواجه ذلك الشخص مشكلة وهي أن القاموس يعطي معنيين لكلمة كلب، بالطبع سيجعل ذلك الأمور أصعب، لذلك علينا إخباره بأن يتجاهل المعنى الثاني، فعلى الأرجح أنك لم تفكر بالدنغ أو القيوط عند كتابتك للتعريف.

إن رحلة المريخي للبحث عن المعنى طويلة، إنه يفند تعريف القاموس ويبحث أولا إذا كان الشيء الذي يراه ثديا أم لا، ليس هذا بسهل أيضا لأن كثير من علماء الأحياء رفضوا الاعتراف بأن حيوان منقار البط من الثدييات : فامتلاكه للأرجل المتشابكة ورقوده على البيض ليست من الصفات المميزة الثدييات، لكن فلنفترض أن ذلك المريخي ماهر في علم الحيوان ويسلم بأن ما يراه ما هو إلا حيوانا ثدييا.

(١٩) كلب أسترالي ضار .
(٢٠) ذئب شمال أميركي صغير .

السؤال التالي : هل هو نابي ثيبي من فصيلة الكلاب ؟ تستحيل الإجابة على السؤال لأن "نابي" كلمة أخرى تطلق على الكلاب، إذا عرفت أنه كلب ستعرف تبعا لذلك أنه نابي، أما إذا كنت لا تعرف أنه كلب فلا جدوى من السؤال.

هل هو مستأنس ؟ وكيف يتسنى للمريخي معرفة ذلك ؟ ربما يرتدي طوقا ـ ولكن الطوق لم يذكر في التعريف كما أن الكثير من القطط يرتدون الطوق، افترض أن ذلك الشيء الذي يراه المريخي يهدر بطريقة تهديدية، أو أنه يجري مندفعا قاصدا الفتك بعنق المريخي، هل يدل هذا على أنه مستأنس ؟ هل هذا السلوك لا يؤهله لأن يكون كلبا ؟

بعد ذلك يكمل المريخي التعريف بحنق، هل يتوافر من هذا الشيء سلالات عدة مختلفة الأحجام والأشكال ؟ ذلك غير جلي فالشيء الذي أمامه له حجم واحد وشكل واحد، وحتى إذا ما تعرف على أشياء أخرى تختلف في شكلها عن الشيء الذي يراه أمامه كيف يعرف أنها من نفس سلالة الكلاب وهو لا يستطيع الجزم بأن أحدها كلبا ؟

كما نرى لم نتمكن من إحراز أي تقدم مما سبق ذكره، ويبقى لنا تفنيد تعريفك فماذا كتبت ؟ افترض أن ما كتبته يكون كالتالي :

الكلب حيوان من ذوات الأربع، جسمه مغطى بفرو سميك، وله أنف طويل، وآذان طويلة، ومخالب بقدميه، وذيل، يأكل اللحم ويطارد الحيوانات الصغيرة ويصدر نباحا مميزا مزعجا، إذا ما تربى مع البشر منذ صغره يظل معهم.

هل سيلقى هذا التعريف قبولا لدى المريخي أكثر من تعريف القاموس ؟ برغم وجود بعض المشكلات الهامة يظل هذا التعريف محاولة لا بأس بها، تتمثل هذه المشكلات في عدد من الأسئلة أولها : ماذا عن الفرو ؟ هل الحيوان الذي لا يتغطى أنفه أو قدماه أو أذناه أو مناطق أخرى بجسمه بالفرو لا يزال يتغطى جسمه بالفرو ؟ ماذا إذا فقد فروه كله بسبب أحد الأمراض، هل يعدم كونه كلبا ؟ كم يبلغ طول الأذن حتى يمكن اعتبارها طويلة ؟ أربع بوصات ؟ ست بوصات ؟ وماذا إذا كان الحيوان ذا آذان قصيرة، هل يفقد بسبب ذلك صفة كونه كلبا ؟ وماذا عن الأنف الطويل ؟ برغم عدم تواجد تلك الصفة الأخيرة في البلْدُغ(٢١) وكلب بكين(٢٢) فهما لا يزالان من الكلاب.

(٢١) كلب قوي جريء ضخم الرأس قصير الشعر .
(٢٢) كلب صغير قصير القوائم عريض الوجه طويل الشعر ناعمه .

ماذا تعني ضوضاء النباح ؟ إننا نطلق على صوت كل من الكلب البوليسي والكلب الصغير المستأنس نباحا، كيف يمكننا معرفة أن هذه الأصوات نباح ؟ يتم ذلك عن طريق تيقننا بأن ذلك الشيء الذى يصدر الصوت ما هو إلا كلب - بالطبع لن يجدى ذلك كثيرا مع المريخي.

لا ينطبق التعريف على سلالات معينة من الكلاب - مثل الكلاب المكسيكية العديمة الشعر - لأنها لا تملك فروا على أجسادها ولكنها برغم ذلك لم تعدم صفة كونها كلابا، بالمثل يعد البازنجي[٢٢] كلبا برغم عدم قدرته على النباح، كما أن الكثير من الكلاب ليس لها ذيل وما زلنا نعتبرها من الكلاب، كما نرى أخفق التعريف فى توصيل فكرته.

ماذا عن الذنغ والقيوط اللذين ذكرهما تعريف القاموس، أو الذئب والثعلب والضبع وابن آوى ؟ هل تحسب من الكلاب ؟ وإذا لم تكن من الكلاب، فما سبب ذلك ؟ أى جزء من التعريف لم ينطبق عليها ؟ نجد أن كل حيوان منها يصدر عواء معينا من الممكن اعتباره نباحا، كما أنه من الشائع تسمية عواء الثعلب بالنباح، علاوة على ذلك يتم استئناس الذئاب وبعض من الحيوانات الأخرى، فالكلاب فى الأصل ما هى إلا ذئاب مستأنسة، وفى الوقت الحاضر يمكن تربية الكلاب والذئاب مع بعضها بعضا.

أما عن الجزء الوحيد من التعريف الذى لا يمكن تطبيقه على القطة هو الجزء الخاص بالنباح، بالرغم من ذلك إذا صادفتك بعض القطط ذات الطبيعة الخاصة والتى قد تصدر عواء يشبه نباح الكلب هل يؤهلها ذلك لأن تصبح من الكلاب ؟ لماذا لا ؟

ما رأيك فى كلب ميت ؟كلب محنط ؟ أو تمثال لكلب ؟ أو صورة لكلب ؟ أو لوحة مرسومة لكلب ؟ لا تمس هذه الأشياء تعريفنا بأى صورة من الصور، ولكننا ما زلنا نطلق الكلمة "كلب" على كل ما فيها، حتى "سنوبى" كلب الصيد الكرتونى الذى يتكون من مجرد خطوط من الحبر على الورق يعد من الكلاب.

يزيد كل ما تقدم الإحساس بالإحباط وعدم الرضى عند المريخى، إنه يسأل فى حيرة "كيف يمكنك استخدام كلمة "كلب" بهذه السهولة وأنت لا تعرف معناها بالضبط ؟"

(٢٢) كلب صيد أفريقى صغير نادراً ما ينبح .

إننا ـ على العكس ـ نعرف ما تعنيه الكلمة بالضبط ، فإذا قال لك شخص ما "يوجد كلب غريب في الحديقة"، فإنك ستتوقع على الفور أن ما ستراه كلبا وليس قيوطا أو قطا، أي إننا نعرف معنى الكلمة برغم عدم قدرتنا على تعريفها، الشيء الذي يذكرنا بشكل أو بآخر بما تم مناقشته في الفصل الثاني : معرفتنا بالقواعد النحوية برغم عدم مقدرتنا على تعريفها، نقابل هنا نفس المشكلة أمام كل كلمة نحاول تعريفها .

لا يعني ذلك أنه ليس من الممكن تعريف كل الكلمات، لأنه بإمكاننا إعطاء تعريفات لعدد قليل من الكلمات بدون مواجهة ما سبق ذكره من عقبات، على سبيل المثال كانت كلمة "متر" يتم تعريفها منذ فترة قصيرة بأنها المسافة بين نقطتين في ساق معدنية معينة موضوعة بسرداب معين بباريس، وإذا أردت معرفة إذا ما كان مترك يطابق طول المتر الأساسي ما عليك إلا أخذه ومقارنته بذلك المتر الكائن بباريس، ما انطبق على كلمة "متر" لا ينطبق على كلمات أخرى كثيرة، فإنه ـ على سبيل المثال ـ يصعب الاحتفاظ بكلب ما وجعله مقياسا موضوعا في مكان معين لمقارنة الكلاب الأخرى به، ينطبق الأمر ذاته على أشياء مثل الكرسي أو الابتسامة.

السؤال هنا كيف يمكننا استخدام كل الكلمات بنجاح وبلا أدنى جهد ونحن نجهل طريقة تعريفها ؟ وهو سؤال ليس بسهل وطالما طرقه علماء اللغويات وعلماء النفس، تعد "نظرية القالب" من أكثر الاقتراحات ـ التي قيلت في شأن هذا السؤال ـ إقناعا، وتتلخص في أننا نحمل في أذهاننا نتاجا لتجارب مررنا بها، صورة قالب لكلب معين يتم مقارنته دائما بأي كلب يصادفنا حتى نصل إلى مدى مطابقة كل منهما للآخر، إذا كان التطابق بينهما كبيرا فإننا نأتي بنتيجة وهي أن ما نراه كلبا بالفعل والعكس صحيح، تبعا لذلك قد يكون المقياس أو المعيار غير قاطع مما يجعلنا نقبل كلبًا بلا فرو أو آخر لا ينبح طالما أن صفاته الأخرى تطابق القالب.

حسنا، ولكن كم يبلغ عدد الصفات التي لا يمكن انطباقها على الكلب، والتي عند توافرها لا يمكن اعتبار الشيء المقصود كلبا ؟ إلى أي مدى تنطبق القوالب على الأشكال المقصودة ؟ إننا أمام مشكلة كبرى، ولكن في وسعنا النجاة بالاستعانة بشيء لا يمكن اعتباره حقيقة لغوية على الإطلاق : إنها الطريقة التي تسير بها الأشياء في العالم الطبيعي، إن كل شيء نصادفه يكون إما كلبا أو غير ذلك، أي إنه قد يطابق القالب تماما أو لا يطابقه مطلقا، ليست القطط فقط هي التي تفتقد إلى الكثير من

صفات الكلاب، بل إن الذئاب والقيوط تفتقد إلى تلك الصفات أيضا، تختلف الذئاب عن الكلاب كثيرا ومن أكثر الصفات التي تميزها اعتيادنا على رؤية الكلاب في حياتنا اليومية، بينما تندر الذئاب بل تنعدم فتكاد لا نراها في الحياة اليومية.

كحد أدنى، يوجد منحى واحد يلزم فيه الجزم إما بصلاحية تواجد كلمة ما بموقع ما أو عدم تواجدها: إنه القانون، كثيرا ما نسمع أقوالاً مثل "يجب أن تدفع ضريبة على دخلك" فما معنى الدخل ؟ هل البقشيش دخل ؟ هل الهدايا دخل ؟ هل فوزك بمبلغ من المال من لعبة البوكر (لعبة من ألعاب الورق) دخل ؟ إذا وجدت بعض المال في الشارع، فهل هذا يعد دخلا ؟ لكي تعرف قدر الضريبة التي عليك دفعها، من الضروري أن يعطيك أحد الأشخاص إجابات محددة عن الأسئلة السابقة، لذلك نرى أن المحامين يقضون جل وقتهم في مناقشة أمثال تلك الأسئلة، كما يجتمع القضاة والمحلفون لإصدار أحكام في هذا الشأن، أي أننا في الوقت الذي تنطق فيه الكلمات بلا قيد أو شرط نجد رجال القانون يهتمون بكل تفصيل دقيق.

معاني الكلمات وتركيب المفردات اللغوية :

لا تحمل الكلمات معانٍ وهي قائمة بذاتها، فبوجه عام يرتبط معنى أية كلمة بمعانٍ لكلمات أخرى بطرق قد تكون بسيطة أو معقدة، على سبيل المثال ترتبط الكلمة "صغير" بالكلمة "قديم" أكثر من ارتباطها بالكلمة "كسول"، وعلى غرار ذلك ترتبط كلمة "ورد" بكلمة "زهر" من جهة و كلمة "لَيْلَك" (نوع من الزهر) من جهة أخرى، وكلمة "أحمر" من جهة ثالثة، يختص جزء كبير من علم الدلالة المعجمي بتوضيح هذه العلاقات بين المعاني.

يعد الترادف واحداً من أبرز الطرق التي يتم بها ارتباط معاني الكلمات، إنه الحالة التي تتماثل فيها معاني الكلمات، ولكن هل هناك كلمات تحمل نفس المعاني بالضبط ؟ تتأرجح الإجابة على هذا السؤال بين الإيجاب والنفي، لاحظ الكلمتين **"pail"**، **"bucket"** (دلو)، أي شيء يمكن تسميته **"pail"** يمكن أيضا تسميته **"bucket"** والعكس بالعكس، فهما مترادفتان لحد بعيد، ولكن لا يمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر، تدل الكلمة التي تستخدمها على المكان الذي تنتمي إليه، بصفة عامة تشيع **"bucket"** في كل من إنجلترا وويلز وجنوب الولايات المتحدة الأمريكية، في الوقت الذي تعتبر فيه **"pail"**

قروية، أما في اسكتلندا وشمال الولايات المتحدة يغلب استخدام "pail" وتعتبر "bucket" قروية.

ما يهمنا هنا بغض النظر عن مثل هذه التعقيدات هو أنه حتى إذا أشارت كلمتان إلى نفس الأشياء أو الأحداث فإنهما غالبا ما تحملان تداعيات مختلفة، يعزف المايسترو "آن صوفي متر" الكمان، بينما يعزف قائد الرقصة التربيعية[٢٤] الكمنجة، تتشابه الآلتان إلى حد كبير وتختلفان في السعر والأداء، تبدو الكلمتين "big"، "large" وكأنهما مترادفتان، ولكن عند تأمل الجملة الآتية نجد أنه لابد من استخدام "big" وليس غيرها : "She got her big break in London, and now she's a big noise at the BBC and she's making big money" (لقد قضت عطلتها الطويلة في لندن، وهي الآن تصنع الكثير من الشهرة في هيئة الإذاعة البريطانية كما أنها اكتسبت أموالا كثيرة).

هل تمثل هذه التداعيات جزءا من معاني الكلمات ؟ يتوقف ذلك على ما ترغب في فعله، فإذا كان كل ما يهمك هو تحديد الكلمة التي تشير إلى شيء أو ظاهرة ما فإنك في هذه الحالة تتجاهل التداعيات وتعلن أن كلا من الكمان والكمنجة كلمات مترادفة، أما إذا كنت مهتما بالاستخدام الأمثل للكلمات في سياقها تكون التداعيات ذات أهمية.

يأتي الآن دور التضاد أو المطابقة كأحد العلاقات المألوفة بين المعاني، وهو تناقض معاني الكلمات، يبدو الأمر بسيطا في البداية ولكن كما اعتدنا تأتي الرياح دائما بما لا تشتهي السفن، بادئ ذي بدء نقول إن كلا من المتضادات (ساخن وبارد)، (ميت وحي)، و(متزوج وأعزب)، و(مفتوح ومغلق) لا ترتبط ببعضها على أسس متساوية، انظر أولا إلى الجمل الآتية ثم قرر أيها صحيح، لكي تتجنب أية تعقيدات نحن في غنى عنها، افترض أن كل الأسماء الواردة بالجمل تشير إلى أناس بالغين :

(3.5) This water is neither hot nor cold .

(٣–٥) ليس الماء بالساخن ولا بالبارد.

(3.6) This table is neither clean nor dirty .

(٣–٦) المنضدة ليست نظيفة ولا قذرة .

(٢٤) رقصة يؤديها الراقصون وهم على صورة مربع .

(3.7) That door is neither open nor shut .

(٣-٧) الباب ليس مفتوحاً ولا مغلقاً .

(3.8) Janet is neither married nor single .

(٣-٨) ليست "جانيت" متزوجة ولا غير متزوجة .

(3.9) My friend Sandy is neither male nor female .

(٣-٩) صديقتي "ساندي" ليست ذكرا أو أنثى .

(3.10) Your statement is neither true nor false .

(٣-١٠) عبارتك لا بالصحيحة ولا بالخاطئة .

(3.11) Her results are neither good nor bad .

(٣-١١) نتائجك ليست طيبة ولا سيئة .

ما رأيك في تلك الجمل ؟ بودنا الآن أن نخبرك أنه من ضمن تلك الجمل توجد جملتان فقط لا تتضارب عليهما الآراء، وتبقى بقية الجمل محل جدال. يمكن لأي شخص تقبل عدد من الاحتمالات الواقعة بين "ساخن" و"بارد" أو بين "طيب" و"سيئ" لأنها من "المتضادات المتدرجة". يطبق بعض الناس صفة التدرج على كل من "نظيف" و"قذر" بينما يرفض البعض الآخر ذلك ويصرون بشدة على أن أي شيء غير نظيف يجب أن يكون قذرا بلا تدرج بينهما، بالنسبة لهؤلاء الناس تسمى تلك الكلمات باسم "المتضادات الثنائية". ويعني هذا المسمى كلمتان غير متجانستين لا توجد بينهما أية احتمالات للتدرج، يرى بعض الناس في كل من (صحيح-خطأ) و(ميت - حي)، خير مثال للمتضادات الثنائية ولكن لا يخلو رأيهم هذا من جدال أيضا.

تقدم الكلمات (متزوج وأعزب) حالة جديرة بالانتباه حين يصر بعض الناس على أن أي شخص بالغ لابد أن يكون إما متزوجًا أو أعزب ولا يستمع هؤلاء إلى أي نقاش بشأن هذا الأمر، على الجانب الآخر يرى البعض - بنفس الدرجة من الإصرار - أن (متزوج وأعزب) يدخلان ضمن عدد من الاحتمالات التي تشتمل على "مخطوب" و"مرتبط" و"يعيش مع شخص ما" و"منفصل" و"مطلق" و"أرمل" وغير ذلك، مما يجعل الجدال هنا حاداً بالفعل.

تتفرد المتضادات المتدرجة بخاصية جديرة بالملاحظة، افترض أن المريض نحى أمر الكلب جانبا وجاءك يسأل "كم تبلغ درجة الحرارة التي تجعل الشيء ساخنا ؟"، لا توجد إجابة محددة لهذا السؤال اللهم إلا إجابة واحدة وهي "يتوقف هذا على الظروف" . تكون درجة الحرارة ٩٥ درجة سيلزية (تقترب من الغليان) ساخنة بالنسبة لمياه الاستحمام، ولكن عندما يصل الفرن إلى درجة الحرارة ذاتها لا يكون ساخنا كثيرا، كذلك تهب درجة الحرارة ٣٠ مئوية يوما ساخنا في لندن بينما تجعل نفس الدرجة الجو باردا في دالاس، يعتبر رجال الفضاء الشمس نجما باردا مع العلم بأن درجة حرارة سطحها تصل إلى ٦٠٠٠ درجة مئوية تقريبا. نستنتج من ذلك أن هذا الذي تتوقف عليه الظروف هو توقعاتنا، فنحن نصف ماء الاستحمام أو الأفران بالسخونة إذا بلغت درجة حرارتهما النهاية القصوى لتوقعاتنا بالنسبة لكل منهما، لذلك فإن كلمة "ساخن" ليس لها معنى مطلق مثلها في ذلك مثل الكلمات المتدرجة "جيد" و"كبير"، إننا ننتقل بلا أدنى جهد بين تعبيرات مثل (قهوة ساخنة ، يوم ساخن)، و(فراشة كبيرة ، كلب كبير ، شاحنة كبيرة ، جزيرة كبيرة)، و(خمر جيد، أخبار جيدة، طبيب جيد، طقس جيد) حتى أن ما نفعله يمر علينا مرور الكرام. هذا هو الأمر المذهل والجدير بالاهتمام فقد حاول العلماء والمهندسون تطوير ما يسمونه بالذكاء الاصطناعي وانتهوا أنه من الصعوبة ـ التي تصل إلى حد الاستحالة ـ برمجة حاسباتهم الآلية لاستخدام تلك التعبيرات والانتقال بينها بنفس طريقتنا في ذلك.

يأتي الآن دور العلاقة الكائنة بين الكلمتين "rose" (وردة) و"flower" (زهرة)، تعد أية وردة زهرة وليس العكس : ربما تكون الزهرة وردة وربما تكون أيضا نرجس أو سوسن، لذلك تعتبر وردة جزء من الزهرة بينما تعد الزهرة كلمة جامعة لجميع أنواع الورود.

إن علاقة الجزء بالكل شيء مألوف ولكنه لا يسير بطريقة واحدة في كل الحالات، ذكرنا أن وردة جزءا من زهرة ولكن هل زهرة جزء من النبات ؟ إذا سُئلت عن الأجزاء التي تجمعها كلمة إناء ربما تذكر كلمات مثل صندوق، جرة، أو حقيبة، ماذا عن ظرف، صندوق البريد، أو جيب ؟ هل تعد هذه الكلمات آنية ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا ؟ تتسع هذه الأغراض لأشياء عدة، فلماذا تفقد صفة الاحتواء المتمثلة في كلمة إناء ؟

إن تحديد كلمة جامعة لفئة ما من مفرداتنا اللغوية ليس بالشيء الموثوق فيه، فقد جرت العادة ـ مثلا ـ إطلاق كلمة شجرة على أي نبات كبير الحجم يدخل الخشب في

تركيبه بالرغم من أن الأشجار لا تحتل مجموعة بمفردها في تصنيف النباتات، ذلك التصنيف الموضوع من قبل علماء النبات، كما أن بعض اللغات لا تدخل ضمن مفرداتها نفس الكلمة، كبعض اللغات الأسترالية التي تضم أسماء لأنواع معينة من الأشجار فحسب، من ناحية أخرى تضم بعض اللغات مصطلح جامع وحيد يفيد معنى "الكائنات الطائرة" ويطلق على الطيور والخفافيش والحشرات التي تطير - وعلى النقيض لا يتمثل ذلك في اللغة الإنجليزية، (مما يدعو للدهشة اتهام متحدثي اللغات غير الأوروبية "البدائية" من قبل الأوروبيين الجاهلين بعلم اللغة لأنهم لا يستخدمون كلمة مثل "شجرة" بحجة إخفاقهم في إحداث تعميم واضح، كما أنهم نتيجة لإخفاقهم في إحداث تمييز بين الكلمات لجأوا إلى استخدام كلمات جامعة مثل "الكائنات الطائرة"، نأمل بأن يتضح لقراء كتابنا هذا أمر ما وهو أن اتهام الناس لكونهم مختلفين عن الأوروبيين - لغويا أو غير ذلك - أمر عنصري مبالغ فيه ولا معنى له).

إن تحديد إذا ما كانت كلمات بعينها جزءا من مصطلح جامع أمر يثير الجدل في اللغة الإنجليزية في أغلب الأحيان، ينطبق الكلام ذاته على معظم اللغات فيما عدا اللغات الأسترالية التي تعرض لنا بوضوح شديد الكلمات التي تتجلى بها صفة الجزئية، تشتمل كل لغة من هذه اللغات على طريقة فريدة للحديث لا مفر من استخدامها في حضور بعض الأقارب، تسمى هذه الطريقة "أسلوب التجنب"، تقع الحماة على رأس هؤلاء الأقارب ومن هنا يسمى الأسلوب "بلغة الحماة"، يتميز "أسلوب التجنب" باختلاف مفرداته عن مفردات اللغة الحياتية العادية، بالطبع تقل كلمات "أسلوب التجنب" كثيرا عن مثيلاتها في اللغة الحياتية وهذا سبب في احتواء هذا الأسلوب على وفرة من المصطلحات الجامعة، حتى أن كل مصطلح من تلك المصطلحات يقوم بوظيفة واحدة تؤديها مجموعة من الكلمات المختلفة تتضمنها اللغة الحياتية، يقدم ما سبق من كلام دليلا مباشرا بشأن علم الدلالة المعجمي : تعتبر كل الكلمات المشتملة عليها اللغة الحياتية والممثلة بمصطلحات مفردة في "أسلوب التجنب" أجزاء لمصطلحات جامعة، حتى وإن لم تفصح اللغة الحياتية عن هذه المصطلحات الجامعة، ستوضح كلامنا هذا فيما يلي بأمثلة من اللغة "الدربالية" وهي لغة أسترالية يتمثل فيها "أسلوب التجنب" تمثلا جليا.

لا تضم اللغة الدربالية اليومية مصطلحا جامعا يمكن إطلاقه على السحالي ضمن مفرداتها، بل تحدد أسماء خاصة لكل نوع من تلك الزواحف : "banggarra"

(السحلية ذات اللسان الأزرق)،"biyu" (السحلية ذات الأهداب)، "buynyjul" (السحلية حمراء البطن)، "gaguju" (السَّقَنْقور أو السحلية الصغيرة الجسم)، على العكس يقدم "أسلوب التجنب" مصطلحا واحدا لكل هذه الأنواع وهو "jijan"، لذا نخرج مما ذكر بنتيجة وهي أن كل هذه المصطلحات تمثل أجزاء من مصطلحات جامعة عند متحدثي اللغة الدربالية في الوقت الذي تخلو فيه اللغة اليومية من هذه المصطلحات الجامعة.

المعنى وعلم النحو :

يتضح مما تقدم أننا اعتبرنا النحو والمعنى جانبين مختلفين تماما من اللغة، وهما بالفعل كذلك برغم ارتباطهما ببعضهما بعضًا في حالات أخرى، قد شهدنا في الفصل الثاني بعض الأمثلة التي توضح ذلك عندما تحدثنا عن الفصائل النحوية (العدد، الجنس)، تعبر تلك الفئات عن حالات بعينها يكون فيها المعنى مرتبطا بنحو لغة ما، يحضرنا هنا الحديث عن فصيلة نحوية وثيقة الصلة بالمعنى، وهي فصيلة يصعب شرحها : الزمن.

يُعرَّف الزمن بأنه الوقت من وجهة نحوية، هامٌ أن تدرك التباين بينهما، باديء ذي بدء نقول أن الوقت لا يدخل ضمن مكونات اللغة لأنه مكون لعلم الفيزياء وعلم النفس، لا شك أننا نعرف جيدا معنى مرور الوقت وكيفية تقسيمه إلى الماضي والمضارع والمستقبل، كما يمكننا تقسيم الوقت إلى وحدات أكثر دقة من تلك الثلاث مما يجعلنا نميز الماضي القريب عن الماضي البعيد والمستقبل القريب عن المستقبل البعيد، لأنه باستطاعتنا التفرقة بين دقائق قليلة مضت في يوم ما ووقت مبكر من ذلك اليوم، أو الأمس وقبل الأمس، أو الأسبوع الماضي والشهر الماضي والسنة الماضية، لا توجد حدود للتمييز الذي تستطيع القيام به : مائة وسبعة وعشرون عامًا مضت يختلف عن مائة وثمانية وعشرون، لاحظ أن هذا التمييز يتم باستخدام كلمات مناسبة أو مجموعة من الكلمات، لذلك لا يرتبط هذا التمييز بنحو اللغة الإنجليزية.

لكننا قد نرى بعض اللغات التي تعرض مثل هذه الفروق الزمنية في علم النحو الخاص بها ، ولا يسير ذلك على كل تلك الفروق لأنها كثيرة ، لذا تتضمن بعض اللغات - التي لا تدخل فصيلة الزمن ضمن محتويات نحوها - تلك الفروق الزمنية ذات العدد المحدد.

تعرض اللغة الإنجليزية - مثلها في ذلك مثل لغات عديدة - الفروق الزمنية في أفعالها، فالأفعال الإنجليزية تقدم فروقا زمنية تسير بطريقة منظمة : الفعل "أحب" يقابله "أحب"، "يذهب" يقابله "ذهب"، "يفعل" يقابله "فعل"، لذلك تكون الطريقة التي تعبر بها الأفعال عن الزمن غير قياسية، لا يهمنا ذلك كثيرا، ما يهمنا الآن هو العلاقة بين الزمن والوقت والتي تبدو جلية منذ الوهلة الأولى: تشير جملة "إنني أحبها" إلى الزمن المضارع بينما تشير "أحببتها" إلى الماضي.

قد تندهش عندما تعرف أن بعض اللغات لا تمتلك فصيلة الزمن، ومن تلك اللغات اللغة الصينية، حيث لا يوجد بتلك اللغة ما يماثل الأفعال "يذهب" و"ذهب"، كل ما يفعله المتحدث الصيني عندما يريد التعبير عن الفروق في الوقت هو استخدام كلمات مناسبة تدل على الوقت مثل : "اذهب الآن"، "ذهبت الأمس"، "سأذهب غدا"، "سأذهب في عشر دقائق"، "ذهبت منذ عشرين عاما"، إنهم يفعلون ذلك ببساطة ولا يشعرون بافتقادهم لتلك الفصيلة.

على العكس، تمتلك الكثير من اللغات فصيلة الزمن، فاللغة التركية على سبيل المثال تتضمن ثلاثة أزمنة : الماضي **"gittim"** (ذهبت)، المضارع **"gidiyorum"** (أنا ذاهب)، المستقبل **"gidecegim"** (سوف أذهب)، هذا هو النظام الشائع في معظم اللغات ولكنه ليس الوحيد، تتضمن لغات عدة نوعين فقط من الأزمنة المتسمة بالوضوح، تتضمن إحدى لغات جنوب إفريقيا أكثر من أحد عشر زمنًا : خمس درجات مختلفة للماضي، خمس درجات مختلفة المستقبل، بالإضافة إلى الزمن المضارع، تظهر الفروق في الزمن عند متحدثي هذه اللغة وكذلك اللغات الأخرى التي تتمثل بها فئة الزمن، فهم لا يمتلكون الاختيار في استخدام أحد الأزمنة دون الأخرى، كل ما يجب عليهم فعله هو استخدام الزمن الملائم للوقت المتحدث عنه، ذلك تفسير لعبارة "الزمن هو وقت من وجهة نحوية".

تظهر الفروق الزمنية غالبا - كما رأينا - في الأفعال وليس دائما، فنجد أنها تتجلى في لغة "الهوبا" المستخدمة في كاليفورنيا بالأسماء، تشتمل كلمة "منزل" - مثلا - على ثلاثة أزمنة : المضارع في كلمة **"xonta"** (البيت الذي يتواجد حاليا)، الماضي في**"xontaneen"** (البيت الذي أصبح أنقاضًا)، المستقبل في **"xontate"** (البيت الذي لم ينشأ بعد)، لا تسير اللغة الإنجليزية بهذا النظام، بل تستخدم بدلا منه كلمات معينة :

ربما يعتبر شخص ما كلمة "الزوجة السابقة" الزمن الماضي من كلمة "زوجة"، و بالتالي تكون "خطيبة" الزمن المستقبل من نفس الكلمة.

حديثنا الآن عن اللغة الإنجليزية، كم عدد الأزمنة التي تتضمنها تلك اللغة ؟ ربما تصاب بالدهشة عندما تعرف أن الإنجليزية تشتمل على زمنين فقط ألا وهما الزمن الماضي والمضارع (من الأفضل أن نطلق عليه الزمن اللاماضي)، لا تشتمل الإنجليزية على زمن للمستقبل ولكن بالطبع توجد بها طرق متعددة للتعبير عن المستقبل، تستخدم هذه الطرق تعبيرات مضارعة (لاماضية) تتيح لنا التعبير عن قاعدة عريضة من الاتجاهات المختلفة للأحداث المستقبلية ولا تسمى أي منها بالزمن المستقبل، فيما يلي نموذج للتعبيرات التي نستخدمها للحديث عن المستقبل، وقد وضعنا في كل جملة التركيب المضارع بجانب الماضي (باستثناء جملتين لا نظير لهما في الماضي) :

(3.12) (a) She goes to London tomorrow .

(أ) ستذهب إلى لندن في الغد .

(b) She went to London yesterday .

(ب) ذهبت إلى لندن بالأمس .

(3.13) (a) She's going to London tomorrow .

(أ) ستذهب إلى لندن في الغد .

(b) She was going to London tomorrow .

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن في الغد .

(3.14) (a) She's going to go to London tomorrow .

(أ) من المقرر أن تذهب إلى لندن في الغد .

(b) She was going to go to London tomorrow .

(ب) كان من المقرر أن تذهب إلى لندن في الغد .

(3.15) (a) She has to go to London tomorrow .

(أ) يجب أن تذهب إلى لندن غدا .

(b) She had to go to London tomorrow .

(ب) كان يجب أن تذهب إلى لندن في الغد .

(3.16) (a) She must go to London tomorrow .

(أ) يجب أن تذهب إلي لندن غدا .

(3.17) (a) She will go to London tomorrow.

(أ) ستذهب إلى لندن غدا.

(b) She would go to London tomorrow .

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن غدا.

(3.18) (a) She shall go to London tomorrow .

(أ) ستذهب إلي لندن غدا.

(b) She should go to London tomorrow.

(ب) كانت سوف تذهب إلى لندن غدا.

(3.19) (a) She'll be going to London tomorrow.

(أ) ستكون في لندن غدا.

(b) She'd be going to London tomorrow.

(ب) كان من المفترض أن تكون في لندن غدا.

(3.20) (a) She wants to go to London tomorrow.

(أ) تريد أن تذهب إلي لندن غدا.

(b) She wanted to go to London tomorrow.

(ب) كانت تريد أن تذهب إلي لندن غدا.

she ought to go to London tomorrow.((3.21)

ينبغي أن تذهب إلي لندن غدا.

(تمتلك بعض أشكال الزمن الماضي معان خاصة لا تسمح للحال "غداً" أن يكون متواجداً بالجملة، كما أن العلاقة في المعنى بين أشكال الزمن المضارع والماضي لاتكون مباشرة دائماً وبخاصة في الجملة (٣-١٢))، إذا لم يتضح لك أن الجمل (ب) كلها في الزمن الماضي قم بإضافة كل من "تخبرني جانيت أن ..."، و"أخبرتني جانيت أن ..." قبل تلك الجمل ، ستجد أن الجزء الثاني الذي أضفناه - أخبرتني جانيت أن - صحيح وأكثر طبيعية من الجزء الأول، هذا اختبار تقليدي لأشكال الزمن الماضي في اللغة الإنجليزية.

ذكرت بعض الكتب التقليدية أحد أشكال الأزمنة - يتمثل في الجملة (٣-١٧) - تحت مسمى اعتباطي وهو "الزمن المستقبل" وهذا يعد خطأ، لا يدخل الشكل "will" (سوف) ضمن الزمن المستقبل، وقد يخطئ الكثير من متحدثي اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية ثانية في اعتبار الأشكال الآتية تعبر عن الزمن المستقبل : **What "will you do tonight ?"** (ماذا ستفعل الليلة ؟)، **"I shall go to a film"** (سوف أذهب لمشاهدة فيلم)، **"When Janet will get there ?"** (متى ستذهب جانيت هناك ؟)، **"We shall start"** (سوف نبدأ)، أما عن تصحيح ذلك الخطأ نقول : **"What are you doing tonight ?"** (ماذا ستفعل الليلة ؟)، **"I'm going to a film"** (سأذهب لمشاهدة فيلم)، **"When Janet gets here ?"** (متى ستأتي جانيت ؟) وهكذا بقية الجمل بدون استخدام **"will"** أو **"shall"** إذن لا تدل كل من **"will"** أو **"shall"** على الزمن المستقبل، فهما مجرد أشكال للزمن المضارع يتشابهان مع **"must"** (يجب)، **"ought"** (ينبغي)، **"have to"** (يجب) ويعبران عن رؤية خاصة للأحداث المستقبلية.

كذلك لا تتقيد أشكال الزمن الماضي بالإشارة إلى الأحداث الماضية لأن لها استخدامات أخرى، تأمل الجمل التالية **"It's time you went to bed"** (حان وقت نومك)، **"If I spoke better French, I could get a job in Paris"** (إذا تحدثت الفرنسية بطريقة أفضل سأتمكن من الحصول على وظيفة في باريس)، نلاحظ أن كلا من الأشكال **"went"** (ذهب) و **"spoke"** (تحدث) ماضية، ولكن "الذهاب" و"التحدث" لا يشيران إلى الماضي بأي حال من الأحوال : يشير الأول إلى المستقبل الحالي بينما يشير الثاني إلى المضارع الافتراضي أو المستقبل، يوضح لنا هذا السلوك أهمية التمييز بين الوقت (كفكرة غير لغوية) والزمن (كفصيلة نحوية) فهما مختلفان تماما.

ولكيلا تعتقد أننا نقحم القواعد اللغوية في فصل يدور موضوعه حول المعنى، دعونا نعود إلى النقطة الرئيسية محور حديثنا : بينما تقوم القواعد النحوية بدور مهم للتعبير عن المعنى، فإن كلا منهما جزءان منفصلان تماما، إننا عندما نقول أن اللغة الصينية لا تضم فصيلة نحوية دالة على الزمن لا يستتبع ذلك القول بأن متحدثي تلك اللغة لا يمكنهم إدراك الفروق الوقتية، سواء اشتملت اللغة على أحد عشر زمنا أو ثلاث أزمنة أو زمنين أو حتى خلت من الأزمنة نهائيا، فإن متحدثي تلك اللغة لا يجدون أدنى صعوبة في الحديث عن الزمن الماضي أو المضارع أو المستقبل، يمكن لجميع اللغات التعبير عن أشياء مثل "الثلاثاء قبل الماضي"، "الساعة التاسعة والنصف صباح باكر"، أو "في عام ١٤٥٣"، وتختلف تلك اللغات عن بعضها بعضا في حجم التفاصيل النحوية التي تضيفها للفعل (أو غيره من العناصر) حتى يمكن التعبير عن الأشياء التي تخص الوقت، أيْ أن أيّ شيء تعبر عنه لغة ما يمكن لأية لغة أخرى التعبير عنه، يطلق على تلك الملاحظة مسمى "قاعدة التعبير بالكلمات"، كانت تلك القاعدة محل استحسان عدد كبير من اللغويين، ولكنها تأثرت بالاعتبارات الثقافية للمجتمعات، بالرغم من ذلك لا تعد الترجمة أمر بسيط، فقد حاول القليل من اللغويين إغفال "قاعدة التعبير بالكلمات" من أجل رؤية مغايرة لها تماما وهي العلاقة بين اللغة والمعنى، وهذا ما سوف نناقشه فيما يلي.

المعنى والعالم :

إذا حاولت ترجمة نص ما من لغة إلى أخرى ستجد الأمر ليس بسهل، والسبب الرئيسي لذلك هو أن الكلمات لا تتماثل مع بعضها بعضا في اللغات المختلفة، فمثلا يوجد فرق كبير – في الإنجليزية – بين الكلمتين "ape" (قرد كبير الحجم كالغوريلا)، و"monkey" (قرد صغير الحجم)، بينما توجد كلمة واحدة في اللغة الإنجليزية للتعبير عن هذه الحيوانات وهي "singe"، من ناحية أخرى تقابل الكلمة الإنجليزية"ball" (كرة) ست من الكلمات الفرنسية المختلفة المعنى وهي "boule"، "boulet"، "boulette"، "balle"، "pelote"، "ballon".

بعد ما ذكرناه سابقا حالات بسيطة، فهناك حالات أخرى تعرض مجموعات من المعاني يتم تقسيمها في اللغات المختلفة إلى كلمات متباينة تماما، تعبر الكلمات

الإنجليـــزية "road" (طريق)، "street" (شـــارع)، "way" (ممر أو طريق) عن نفس المعاني التي تعبر عنها الكلمات الفرنسية الخمس الآتية : "route"،"rue"،"chemin"، "voie"،"chaussée"، ولكن لا تماثل الكلمـات الإنجليزية أيًا من الكلمـات الفرنسـيـة، ينطبق الأمر ذاته على الكلمات الإنجليزية "hard" (صعب)، "harsh" (قاس)،"rough" (خشن) والكلمـات الفـرنسـيـة "dur"،"rêche"،"rude"،"âpre"،"rigoureux"، وبالمثل الكلمات الإنجليزية "large" (واسع)، "big" (كبير)، "great" (عظيم)، "grand" (فخم) والكلمات الفرنسية"grand"،"gros"، وهكذا.

إن كلا من الإنجليزية والفرنسية لغات أوروبية تتحدثها بلدان تتشابه تقاليد مجتمعاتها وتتشارك في الخلفية الثقافية، بالرغم من ذلك ما زالت الترجمة بين هاتين اللغتين أمر عسير، إذن إلى أي مدى تبلغ صعوبة الترجمة التي تتحدثها مجتمعات تتباين عاداتها وخلفياتها ؟

هناك وجهة نظر في هذا الشـأن ولكنها لا ترقى إلى درجة الأغلبية بالرغم من كونها على درجة كبيرة من الأهمية، تذهب وجهة النظر هذه إلى أن تلك الترجمة بين لغتين مختلفتين أمر مستحيل، وذلك لسبب وحيد غاية في الأهمية، قدم وجهة النظر هذه عالم اللغة الألماني الشهير "إدوارد سابير" وطورها تلميذه "بنيامين لي ورف"، لذلك تم تسميتها نظرية "سابير – ورف" وقد فضل البعض تسميتها "نظرية الاتصال اللغوي"، يمكن التعبير عن تلك النظرية بطرق عدة وبدرجات متباينة ولكن الصياغة الشائعة لها تقول : "يؤثر تركيب لغتنا بدرجة كبيرة على الطريقة التي نستوعب العالم بها"، قد يبدو هذا الافتراض المدهش مقبولا منذ الوهلة الأولى، يستخدم متحدثو اللغة الإنجليزية كلمات مختلفة للدلالة على القردة بنوعيها الصغيرة والكبيرة، في الوقت الذي يفتقد متحدثو الفرنسية ذلك، هل هذا يستتبع القول بأن متحدثي الإنجليزية يفهمون الفارق بين القردة الصغيرة والكبيرة بدرجة أكبر من متحدثي الفرنسية ؟ هذا ليس صحيحا، فمن واقع تجربتنا نرى أن العديد من متحدثي الإنجليزية ليس لديهم أية فكرة عما يميز هاتين المجموعتين من الحيوانات، ولذلك فهم يستخدمون كلمتي "ape" و"monkey" بالتبادل دون النظر إلى ما تعنيه كل منهما بدقة، لكن ما نتحدث عنه ليس ما يقصده "ورف" في نظريته.

اشتغل "ورف" مفتشا في تأمين الحرائق قبل اشتغاله بعلم اللغويات. اكتشف "ورف" خلال تجرياته حرص العاملين في تعاملهم مع أنابيب الغاز الملأى، ذلك الحرص الذي كان يتراجع عند التعامل مع الأنابيب الفارغة، هذه الفعلة غير سليمة، لأنك إذا أشعلت ثقابا في أنبوبة بترول مملوءة سيشتعل الغاز على الفور أما إذا أشعلت أنبوبة فارغة فإن الغاز المتبخر المتبقي سينفجر بعنف، استنتج "ورف" وجود شيء ما بشأن الكلمة "فارغ" والتي حثت العمال على هذه الفعلة الطائشة.

انتهج "ورف" - من جراء ملاحظاته هذه - دراسة علم اللغة، وبخاصة لغات أمريكا الشمالية مثل "الهوبي" و"النوتكا" و"الشاوني"، كان ما اكتشفه عجيب بحق، فلغة الهوبي مثلا تعبر عن زمن المستقبل بوضوح بينما لا يظهر بها فرق واضح بين الزمن المضارع والماضي، علاوة على ذلك تشتمل تلك اللغة على نظام للأفعال غني للغاية، فنرى أفعالا تصرف للتعبير عن أفكار غير مألوفة مثل الاستمرار والتكرار. كما أن الأفكار التي يجب التعبير عنها في اللغة الإنجليزية باستخدام أفعال متباينة تماما يعبر عنها في تلك اللغة باستخدام الفعل ذاته كل مرة مع اختلاف في شكله، إليك بعض الأمثلة :

"róya" تتبع النور	"royàyata" تدور
"tiri" يبدأ	"tiririta" يرتعش
"wiwa" يتعثر	"wiwáwata" يمرج
"kwila" يتقدم خطوة	"kwilálata" يسير للأمام
"ripi" يصدر عنها ضوء	"ripípita" تومض
"imi" تصنع ضوضاء	"imímita" ترعد
"ngàro" يلوك بأسنانه شيئا صلبا	"ngarórota" يحاول مضغ شيء صلب

تستطيع الآن أن تعي ما يحدث، ولابد أنك لاحظت مدى اقتصادية ويسر ذلك النظام، ينوي "ورف" القول بأنه في الوقت الذي يعتبر متحدثو الإنجليزية كلا من "السير" و"التقدم بخطوات" نشاطين مختلفين، يعتبرهما متحدثو لغة "الهوبا" جانبين لنشاط واحد مثله في ذلك مثل نشاط السير الذي يعبر عنه في الإنجليزية بالأفعال "he walks" يسير و "he walked" سار.

تحتوى لغة النافاهو – لغة أخرى مستخدمة بأمريكا الشمالية – على وفرة من المفردات الدالة على الخطوط والأشكال المتنوعة وكذلك الألوان، إليك مثال بسيط :

"**dzígai**" خط أبيض اللون ممتد لمسافة معينة.

"**adziisgai**" مجموعة من الخطوط المتوازية البيضاء ممتدة لمسافة معينة.

"**hadziisgai**" خط أبيض يمتد في وضع عمودى باتجاه صاعد من أسفل إلى أعلى شيء ما.

"**ahééhesgai**" أكثر من خطين ذوى لون أبيض يكونا دوائر متحدة المركز.

"**álch'inidzigai**" خطان ذوى لون أبيض يلتقيان فى نقطة واحدة.

"**álnánágah**" خط أبيض غير مستو.

يسمح هذا الكم من المفردات لمتحدثى لغة النافاهو بالحديث دون جهد عن كل أنواع الأشكال الهندسية التى تتطلب شرحا مطولا باللغة الإنجليزية، يرجع السبب فى ذلك إلى أن متحدثى لغة النافاهو يدركون معانى المصطلحات الهندسية التى تعرضها لغتهم، جدير بالذكر أن أسماء الأماكن فى لغة النافاهو يغلب عليها الطابع الهندسى، فمثلا يسمى شكل مثير لتكوين حجرى معين يقع فى الأريزونا "**Tsé Áhé'il'áhá**" وتعنى حرفيا (صخرتان فى وضع عمودى متواز متبادل)، يطلق على هاتين الصخرتين فى اللغة الإنجليزية "أقدام الفيل"، نخرج مما سبق بأن متحدثى اللغة الإنجليزية يشاهدون أشياء شبيهة بأشياء أخرى، بينما يرى متحدثو لغة النافاهو العلاقات الهندسية التى تربط الأشياء.

اكتشف "ورف" اختلافا ملحوظا بين لغات أمريكا الشمالية وأوروبا، ليدلل على ذلك ساق لنا المثال الآتى : "**He invites people to a feast**" (إنه يدعو الناس إلى مأدبة)، يمكن تقسيم هذا المثال بفكرته المعقدة إلى عناصر صغيرة دالة على معنى وهى "**invite**" (يدعو)، "**people**" (الناس)، "**feast**" (مأدبة)، يعبر عن هذه الجملة الإنجليزية بكلمة واحدة من لغة "النوتكا" لغة كولومبيا البريطانية وهى "**Tl'imshya'isita'itlma**"، وتتكون من الأصل "**Tl'imsh**" (يسلق) وخمس لواحق هى :"**ya**" (وتعنى – "**ed**" (اللاحقة الدالة على الزمن الماضى فى اللغة الإنجليزية)، "**is**" (**eat** يأكل)، "**ita**" (**ers**-اللاحقة الدالة على الفاعل فى اللغة الإنجليزية)، "**itl**" (**go-for** يذهب إلى)، "**ma**" (**he-does** يفعل)، بترجمة تلك الجملة إلى الإنجليزية تكون كالتالى **"He does some-thing involving going for eaters of boiled food "** (إنه يفعل شيئا ما كأن يذهب

ليأكل طعامًا مسلوقًا)، يوضح "ورف" أن لغة "النوتكا" تقسم الفكرة التي عبرت عنها الجملة الإنجليزية بطريقة مغايرة فلا يظهر فيها الكلمات (يدعو أو الناس أو مأدبة)، إن تلك اللغـة تعـبر عن مـعنى خـاص بهـا يقـوم على الكلمـات "cook" (يطهـو)، "eat" (يأكل) "do something" (يفعل شيئا ما).

يعد تقسيم اللغات المختلفة للعالم كل بطريقة خاصة أمرا مؤكدا، لهذا افترضت نظرية سابير – ورف أن المتحدثين لتلك اللغات ينظرون إلى العالم برؤى مختلفة نتيجة للتركيبات المختلفة للغات التي يستخدمونها، ولكن هذا الافتراض يتبعه جدال طويل، يبدو جليا أن "ورف" قد ذهب بعيدا عندما أظهر تلك الفروق الشاسعة بين لغات أمريكا الشمالية وأوروبا، فإلى الآن ما زال اللغويون يدرسون مدى صلاحية نظرية الارتباط اللغوي حتى يومنا هذا.

تمثل المصطلحات الدالة على الألوان أبرز الطرق التي يمكن بواسطتها اختبار نظرية سابير – ورف بل الوصول إلى نتائج غير مسبوقة من خلالها، تشتمل كل لغة على مصطلحات للألوان الرئيسية، يبلغ عدد تلك المصطلحات في اللغة الإنجليزية أحد عشر مصطلحا وهي : الأسود، والأبيض، والأحمر، والأخضر، والأزرق، والأصفر، والبرتقالي، والأرجواني، والرمادي، والبني، والوردي، أما بقية الألوان الأخرى كالقرمزي والأخضر الفاتح والأحمر المائل إلى البرتقالي والأصفر الفاتح فهي غير رئيسية بشكل أو بآخر، بالمثل تحتوي اللغات الأخرى على عدد مختلف من مصطلحات الألوان الرئيسية : فمثلا تشتمل لغة أمريكا الشمالية "نيز بيرس" (Nez Percé) على سبع مصطلحات، أما اللغة النيجيرية "إيبو" (Ibo) فتشتمل على أربع مصطلحات، في حين تضم لغة جنوة الجديدة "جالي" (Jalé) مصطلحين فقط للألوان، تتوزع جميع الألوان التي تحويها لغة ما على مصطلحات الألوان الرئيسية لتلك اللغة، فعلى سبيل المثال تشتمل لغة الفلبين "هانونو" (Hanunóo) على أربعة مصطلحات رئيسية للألوان تتوزع كالتالي : biru (ma) يضم هذا المصطلح اللون الأسود ودرجات البني القاتم والأزرق والأرجواني، -Lagti (ma) يضم الأبيض ودرجات الوردي الفاتح والأزرق والأصفر، -rara (ma) يضم الأحمر والبرتقالي والقرمزي القاتم، Latuy (ma) يضم الأصفر والدرجات الفاتحة للأخضر والبني.

يدل تقسيم مصطلحات الألوان بتلك الطريقة في اللغات المختلفة على ما ذكرناه من قبل بشأن نظر تلك اللغات إلى العالم بطرق متباينة، كما يدعم هذا التقسيم بدوره نظرية سابير – ورف، سؤالنا الآن هو : إذا أصر أحد متحدثي اللغة الإنجليزية على أن لون قلم ما أصفر في حين أن لونه أخضر، بينما أصر متحدث اللغة "الهانونو" أن لون ذلك القلم يجمع بين الأصفر والأخضر (ma) latuy ، هل يستتبع ذلك القول بأن كلاً من هذين المتحدثين ينظر إلى العالم بوجهة مختلفة ؟

منذ عقود مضت قرر كل من "برنت برلين" و"بول كاي" – وهما من الأنثروبولوجيين (علماء الإنسان) – الإجابة على السؤال السابق، بدأ كل منهما دراسة استخدام مصطلحات الألوان عند أناس يتحدثون لغات مختلفة تحوى كل منها عدداً مختلفًا من مصطلحات الألوان الرئيسية، نظروا في البداية إلى الحدود التي تفصل بين تلك المصطلحات ووجدوا أنه كلما قل عدد هذه المصطلحات في لغة ما ضمت تلك المصطلحات عدداً أكبر من الألوان، كما اكتشفوا عدم وضوح تلك الحدود، فمتحدثو اللغة الإنجليزية لا يستطيعون تحديد النقطة التي يتحول عندها اللون الأحمر إلى البرتقالي أو الوردي أو الأرجواني، كما يعجز متحدثو اللغات الأخرى عن فعل الأمر ذاته فيما يخص مصطلحاتهم.

أمر "برلين" و"كاي" الأفراد موضوع البحث باختيار درجة اللون الرئيسية لكل مصطلحات الألوان باستخدام رسم بياني يحوى هذه المصطلحات، لم تأت النتائج هذه المرة غير واضحة، فقد تمكن متحدثو اللغة الإنجليزية من تحديد درجة اللون الأحمر الرئيسية وهي تلك التي يطلق عليها "أحمر الشفاه"، بالمثل تم لمتحدثي اللغات الأخرى تحديد درجات الألوان الرئيسية الخاصة بمصطلحات لغتهم، عند هذه النقطة من الدراسة أطلق "برلين" و"كاي" على درجة اللون الرئيسي اسم **"foci"** .

نأتي الآن إلى أعجب اكتشافات "برلين" و"كاي"، لقد وجدا أن درجة اللون الرئيسية التي أطلقا عليها مسمى **"foci"** تكون واحدة في جميع اللغات بالرغم من اختلاف عدد مصطلحات الألوان الرئيسية وامتداداتها في كل لغة، أي أن درجة اللون الرئيسية تكون قاسما مشتركا بين جميع اللغات، تطابق مصطلحات الألوان الرئيسية في لغة "الهانونو" – على سبيل المثال – مثيلاتها في اللغة الإنجليزية، أي أن كلاً من الألوان (ma) biru، -(ma) Lagti، -(ma) rara، (ma) - Latuy وهي مصطلحات الألوان

الرئيسية للغة الهانونو - تطابق كلاً من الألوان الإنجليزية الأسود والأبيض والأحمر والأخضر. الفارق الأوحد بين هاتين اللغتين هو أن اللغة الإنجليزية قد أضافت قليلاً من مصطلحات الألوان الرئيسية فأصبح عدد مصطلحاتها الرئيسية يفوق مصطلحات لغة الهانونو.

تتجلى هذه الظاهرة في كل اللغات التي قام "برلين" و"كاي" بدراستها. تختار جميع اللغات عدداً من مصطلحات الألوان الرئيسية من بين أحد عشر مصطلحا ، كأن تختار لغة ما مصطلحين وتختار لغة ثانية ثلاث مصطلحات وتختار ثالثة أربع مصطلحات. بالإضافة إلى ذلك يمكن توقع الترتيب الذي يسير وفقه ذلك الاختيار؛ في البداية يتم اختيار اللون الأسود ثم الأبيض فالأحمر فالأخضر أو الأصفر فالأزرق فالبني ثم يتوالى اختيار بقية الألوان - الوردي والرمادي والأرجواني - دون ترتيب محدد. وفقا لذلك تشتمل لغة "بلينز تاميل (Plains Tamil) الهندية على ست مصطلحات رئيسية للألوان وهي الأسود والأبيض والأحمر والأخضر والأصفر والأزرق.

تبدو تلك الاكتشافات مدهشة بحق، إن مصطلحات الألوان التي كانت في الماضي خير دليل على نظرية الارتباط اللغوي أصبحت الآن محكومة بقواعد عالمية صارمة تظهر الاختلاف بين اللغات.

أثارت دراسات "برلين" و"كاي" الجدل حيث ظهرت قليل من وجهات النظر المخالفة لما توصل إليه كل منهما، ولكن بالرغم من ذلك ظلت استنتاجاتهما محل اعتبار. لم ينته الأمر عند ذلك الحد، فقد أثبت عالما النفس "لوسي" و"شويدر" أن قدرة الأفراد على تذكر الألوان ترتبط ارتباطا وثيقا بمصطلحات الألوان التي تحويها لغة ما ، كلما زاد عدد مصطلحات الألوان الرئيسية التي تحويها اللغة زادت قدرة الأفراد الذين يتحدثون تلك اللغة على تذكر الألوان بدقة. يوضح هذا الاكتشاف أن ما توصل إليه "برلين" و"كاي" بشأن القواعد العالمية التي تحكم اللغات جميعا ليست نهاية المطاف، وأنه يجب الانتباه إلى اعتبارات أخرى كالنسبية اللغوية، لازال في نظرية سابير - ورف متسع للنقاش.

يبقى لنا نقطة أخيرة في هذا الموضوع قبل أن نطوي صفحاته، إنها مثال ناقشه ورف بشأن شعب الإسكيمو وكلمة "snow" (ثلج) المدرجة بلغتهم، لابد أنه قد تنامى إلى علمك أية معلومات بشأن هذه الكلمة لأن شعب الإسكيمو يمتلكون عدداً من الكلمات

التي مفادها كلمة "ثلج" ، إذن كم يبلغ عدد تلك الكلمات ؟ لسوء الحظ، ليس هناك اتفاق على العدد، فجماعة من الناس يقولون أنه يبلغ خمسين كلمة وجماعة ثانية يقولون مائة وجماعة ثالثة يقولون مائتين وقلة قليلة تزعم أن العدد يصل إلى أربعمائة، ترى أيهم صحيح ؟

بداية نقول أن شعب الإسكيمو لا يتحدث لغة واحدة، بل لغتين رئيسيتين – وهما "الإنويت" (Inuit) و "اليوبك" (Yupik) تحتوى كل منهما على عدد من اللهجات المتشعبة، إذن يجب النظر إلى لهجة بعينها من أجل معرفة عدد الكلمات، وبالنسبة للّهجات الأخرى لن يختلف ذلك العدد كثيرا، دعونا نبحث في لغة غرب جرين لاند وهي "الإنويت" حيث أنها تلقت من دراسة اللغويين الجانب الأكبر منذ عدة أجيال، كما يوجد في متناولنا قاموس مفصل عن تلك اللغة، إذن لنا الآن أن نطرح السؤال الآتي : كم يبلغ عدد الكلمات الدالة على كلمة "ثلج" في ذلك القاموس ؟ إنهما كلمتان فقط : "qanik"أي الثلج بالهواء أو الكِسْفة الثلجية(٢٥) ، و الثلج المتساقط على الأرض.

تقتضي الأمانة العلمية أن نذكر ما قاله عالم الأنثروبولوجي واللغوي الأمريكي "فرانز بوز" في هذا الشأن، فأثناء دراسته لإحدى اللهجات غير المعروفة للغة "الإنويت" ادعى أن عدد الكلمات الدالة على كلمة "ثلج" يبلغ أربع كلمات وهي : "aput" (ثلج على الأرض)، "gana" (ثلج متساقط)، "piqsirpoq" (ثلج متراكم)، "qimuqsuq" (ثلج تكدسه الريح أو تسوقه).

سواء كان عدد الكلمات اثنين أو أربع، فإنه لا يزال بعيدا عما ذكر من قبل – أربعمائة أو خمسين، في الواقع لا يختلف هذا العدد عما هو موجود باللغة الإنجليزية التي تشتمل على كل من : "snow" (ثلج، وهي الكلمة الشائعة)، "slush" (ثلج نصف ذائب على الأرض)، "blizzard" (عاصفة ثلجية)، "sleet" (وتعني في بريطانيا الثلج الذي يذوب أثناء تساقطه، أما في أمريكا فتعني المطر المتجمد)، بالإضافة إلى ما سبق يمكن لأي متزحلق على الجليد إضافة كلمات أخرى يميز بها بين الأنواع المختلفة للثلج زمن أمثالها : "powder" (المسحوق)، "crust" (القشرة)، "hard pack" (كتلة صلبة) وغير ذلك، من المحتمل أن يفوق عدد الكلمات الدالة على الأنواع المختلفة للثلج والتي يستخدمها أي متزحلق على الجليد يتحدث الإنجليزية ما يستخدمه أحد سكان ألاسكا أو جرين لاند.

(٢٥) كتلة رقيقة من الثلج المتساقط .

اللغة والسياق :

واحد من أهم وأروع الأشياء التي يمكن ملاحظتها عن اللغة هو الطريقة التي يستخدم فيها الكلام للتعبير عن المعاني غير الظاهرة، تأمل ما يلي :

(أ) أين كان "جون" ليلة أمس ؟

(ب) كانت هناك سيارة بيتل صفراء اللون أمام منزل "سوزى" هذا الصباح.

ظاهريا تبدو تلك إجابة حمقاء على مثل ذلك السؤال البسيط، فالسائل طرح سؤالا بشأن "جون" ولكن المجيب لم يذكر كلمة واحدة بخصوصه بل ذكر السيارة البيتل و"سوزى" اللذين لم يرد ذكرهما في السؤال بأى حال من الأحوال، بالرغم من ذلك فإننا واثقون من أنك ستوافق على أن الإجابة عادية ومنطقية للغاية، فيما أن السائل على علم باقتناء جون لسيارة بيتل صفراء (وحتى إن كان لم يعرف ذلك من قبل) فالإجابة ستكون واضحة له، أى أن المجيب ينوى القول "أنا لا أعرف أين كان جون الليلة الماضية ولكن عندى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد بأنه قضى تلك الليلة مع سوزى".

كيف تسير الأمور على ذلك النحو ؟ كيف يمكن للسائل أن يتحقق من أن تلك الإجابة التي تبدو عديمة الصلة بالموضوع هى الإجابة المفيدة التي ستشفى فضوله ؟

بالطبع ليس من الممكن الزعم بأن ما قاله المجيب على السؤال يعنى بدقة " قضى جون الليلة الماضية مع سوزى " انظر ما يحدث عند إلقاء السؤال بصيغة مغايرة :

(أ) رأيت "جون" يعطى هدية جميلة "لسوزى" في يوم ميلادها.

(ب) نعم كانت هناك سيارة بيتل صفراء أمام منزلها هذا الصباح.

في هذه المرة سيفسر السائل الإجابة على النحو التالى : "أعتقد أنه من الممكن أن يكون جون قد أهدى سوزى سيارة صفراء في يوم ميلادها"، أى أن الإجابة تشبه مثيلتها السابقة ولكن في هذه المرة يختلف التفسير، هذا ما نقصده بقولنا أنه من الممكن التعبير عن معان غير ظاهرة تدهشك عند التفكير بها.

إن النقطة الرئيسية هنا هى أهمية السياق الذى يقال فيه الكلام، إننا لا نقول الكلام في فراغ بل نقوله في سياق هو في جزء منه لغوى (الأشياء التي قيلت مسبقا)،

وفي جزء آخر غير لغوى (ظروف المتحدثين مثل معرفتهم للعالم من حولهم وخبراتهم وتوقعاتهم)، وإننا نحقق الاستفادة من كل ما نكر عندما نفسر ما يقوله الناس.

عند توصلنا لهذه الحقيقة يبدو لنا أن موضوع معانى الكلام شىء غاية فى التعقيد – تذكَّر أن هذه الصعوبة الكاملة هى التى أوحت لبعض اللغويين بترك الأمر برمته – إن الأمر معقد بالفعل، إنك إذا أمسكت بشىء ما ثم تركته فإنك تعرف أن ذلك الشىء سيسقط فورا على الأرض وإذا كان هذا الشىء فنجانًا مصنوعًا من الصينى فإنك تعرف أنه من المحتمل له أن يتبعثر. يجب على العاملين فى مجال الذكاء الاصطناعى إضافة تلك الأشياء لبرامج الحاسبات الآلية بجدية لأن هذه البرامج لا تعى شيئًا عن بعض الأفكار مثل الجاذبية والقابلية للكسر.

ومع هذا وبالرغم من الطبيعة المحبطة للمهمة إلا أن اللغويين نجحوا في إحراز بعض التقدم فى شرح كيفية توصيل المعانى، تتمثل الخطوة الأولى فى إدراك تواجد طريقتين مختلفتين كحد أدنى لاستخلاص المعانى من مقاطع الكلام، تتمثل الطريقة الأولى في مجرد ملاحظة محتوى المقاطع ذاتها (الكلمات التى تحتويها وترتيبها النحوى). هذا النوع من المعانى خاص بالكلام وهو المتواجد دائمًا مهما اختلف السياق، أما الطريقة الثانية لاستخلاص المعانى تتم عن طريق مقارنة الكلام بالسياق باتباع الطريقة التي أوضحناها منذ قليل، يشتق المعنى هنا ليس من الكلام وحده بل من مجموع كل من الكلام والسياق المذكور فيه. تسمى هذه الدراسة التى تبحث عن كيفية الحصول على تلك المعانى بدراسة مفاهيم الكلام أى دراسة المعنى المشتق من السياق، لابد أننا قد عرفنا الآن أن هذا الفرع من العلوم مختلف عن علم المعانى كما أنه يحتاج إلى دراسات مختلفة.

يمثل الاتجاه الذى افترضه الفيلسوف اللغوى "بول جريس" واحدًا من أهم الاتجاهات الخاصة بعلم مفاهيم الكلام، كُوِّن جريس عددًا من القواعد التى تحكم الطريقة التي تفهم بها المقاطع داخل سياقها، تسمى هذه القواعد بقواعد جريس، يطلق على اثنين من هذه القواعد "قاعدة الارتباط" والتى تقول "اجعل كلامك مرتبطًا ببعضه بعضًا"، "قاعدة الكم" والتى تقول "قل ما يحلو لك كلما تطلب الموقف ذلك"، انظر فيما يلى كيفية تطبيق تلك الحقائق على مثالنا الخاص بالسيارة البيتل.

لقد سأل السائل عن مكان جون بالليلة الماضية وجاءته الإجابة تفيد بأنه توجد سيارة بيتل صفراء أمام منزل سوزى هذا الصباح، إذا افترضنا أن المجيب قد اتبع القواعد سنجد أن السائل يطرح بعض الاستفسارات بطريقة أو بأخرى قائلا : " لابد للإجابة أن تكون ذات صلة لذلك يجب أن يقصد منها أن تكون إجابة لسؤالي، بشأن الكم، لا يعرف المجيب أين كان جون وإلا كان أخبرني بذلك، لكنه ذكر سيارة بيتل صفراء وأنا أعرف أن جون يقود ذلك النوع من السيارات لذا بشيء من التقريب على أن افهم أن هذه السيارة تخص جون وهو الذي أحضرها معه، وبما أنني أخبرت أن تلك السيارة كانت أمام منزل سوزى هذا الصباح فذلك يستتبع الجزم بتواجد جون هناك، وبما أنني لم أتمكن من إيجاده ليلة أمس فإن التوقع الأمثل هو تواجده مع سوزى حيث قضى الليلة فى منزلها ".

إننا بالطبع لا نتبع في عملنا مثل هذه الطريقة المفرطة في الإيضاح والمكونة من سلسلة من التساؤلات والافتراضات ولكنها رؤية مفصلة لما يجب أن يدور بداخل رءوسنا عندما نتحدث مع الآخرين، إننا حاذقون في مثل هذا النوع من التساؤلات والافتراضات، فنحن نقوم به بسرعة وبلا أدنى جهد حتى إننا في أحيان كثيرة لا نعير اهتماما لما نفعله، كأن فعلنا لذلك ينبع من اتباعنا لقواعد التحادث تشبه قواعد "جريس".

من المبالغة الادعاء بأن كل متحدث يكون متعاونا في جميع الأوقات وبصفة دائمة، وبالمثل لايكون كل متحدث غير متعاون دائما، ولكن من أروع النتائج التي يمكن استخلاصها من عمل "جريس" هي الإدراك بأن المتحدثين يتعمدون الإخلال بالقواعد من الناحية الظاهرية حتى يحققوا ما يبغونه من تعاون على المستوى العميق، يطلق على هذا السلوك مسمى "الاستهانة بالقواعد"، وفيما يلي مثال واقعي حدث لكاتبنا.

منذ سنوات مضت، وعندما كان لتوه خريجا حديثا – صادف أن كان متواجدا بمكتب أستاذه عندما دق جرس التليفون، كان من الطبيعي أن يتسنى له الاستماع إلى طرف واحد من الحديث، كذلك تسنى له أن يستوعب الأمر برمته، كل ما في الأمر أن تلميذا يدعى "هيربي" انتهى لتوه من رسالة الدكتوراه الخاصة به وتقدم لشغل وظيفة، لذا كان الطرف الآخر على التليفون يطلب من الأستاذ معلومات بشأن "هيربي"، فيما يلي ما سمعه الكاتب من حديث :

"إنه شخص ظريف للغاية – الجميع يحبونه"

(صمت)

"إنه ذو شخصية متكاملة – إنني متأكد أنه سيتأقلم مع الجميع عندك"

(صمت)

نعم، أؤكد لك أنه شخص ظريف، ومحبوب جدا".

عند هذه النقطة انتهى الحديث، والآن هل تعتقد أن "هيربي" قد حصل على الوظيفة ؟ إننا متأكدون من عدم تمام ذلك، لكن لماذا و الأستاذ لم يذكر إلا كل طيب عن "هيربي" ؟

بالفعل ذكر الأستاذ كل ما هو طيب، ولكن ذلك الطيب لم يكن الشيء المطلوب، لأن كل ما يهم الطالب هو قدرة "هيربي" على البحث، فقد كان يأمل سماع شيء من ذلك القبيل "إن هيربي باحث ممتاز، سيروقك عمله كثيرا"، ولكنه بدلا من ذلك لم يحصل على شيء سوى مدح في مميزات "هيربي"، بالرغم من إلحاح الطالب في السؤال عن قدرة "هيربي" على العمل، لم يجب الأستاذ الإجابة الشافية، لقد أخل الأستاذ – من الناحية السطحية – بقواعد الاتصال والكم وذلك إلى حد كبير، ولكنه على المستوى العميق لا يزال متعاونا لأن رد فعل الطالب سيكون كالتالي : "إذا كان لديه ما يقوله بشأن عمل هيربي لقاله على الفور، وهذا إن دل على شيء يدل على أن ما لديه لن يفيد هيربي، لذلك أستطيع استنتاج أنه ليس باحثا جيدا وهذا ما أود معرفته".

إننا نفعل كل هذه الأشياء وبصفة دائمة، فمعرفتنا بكيفية التواصل بنجاح عن طريق اتباع تلك الطرق غير المباشرة واحدة من الأشياء التي تجعلنا ماهرين في استخدام اللغة الإنجليزية، توفر قواعد "جريس" وصفا جيدا للطريقة التي يتبعها متحدثو اللغة الإنجليزية، ترى هل يحدث ذلك مع لغات أخرى ؟

توضح الأدلة اشتمال اللغات الأخرى على قواعد مغايرة، ففي اللغات الأسترالية – على سبيل المثال – يعتبر التوضيح ضرورة اجتماعية، كما يعد الغموض في الحديث خطأ كبيرا، تبعا لذلك لا يستخدم متحدث اللغة الأسترالية في حديثه اليومي مصطلحات جامعة مثل "شجرة" أو "سحلية" إذا كانت لديه الفرصة في استخدام

مصطلحات أكثر تحديدا للدلالة على هاتين الكلمتين، كما أنه لم يحاول مطلقا استخدام كلمة غامضة مثل "يذهب" إن كان ينوى قول عبارات مثل "يصعد أعلى التل على قدميه"، لذا فإن اللغات الأسترالية غنية بمثل هذه الكلمات المحددة، نستنتج الآن أن سلوك الأستاذ الذى تحدثنا عنه منذ قليل يكون غير مقبول أو غير منطقى بالنسبة للأستراليين، (كان عزوف الأستراليين عن استخدام المصطلحات الجامعة سببا رئيسيا ضلل الباحثين الأوربيين الأوائل وجعلهم يستنتجون - خطأ - أن اللغات الأسترالية لا تحتوى على أية مصطلحات جامعة وأن الأستراليين لا يعبرون عن التعميم، هذه إشارة تذكرنا بمدى تأصل قواعد التحدث عندنا).

على الجانب الآخر، يرفض متحدثو اللغة الرئيسية فى مدغشقر استخدام التصريح فيأتى كلامهم تبعا لذلك غامضا لدرجة كبيرة، أسند اللغوى "إلينور أوشس كينان" - الذى درس تلك اللغة دراسة مستفيضة - ذلك السلوك إلى سببين، أولهما استخدام تلك اللغة فى مجموعة قرى مغلقة صغيرة المساحة تكون فيها المعلومات الجديدة نادرة، لذا يكتسب الفرد الذى يحصل على معلومات لم يعرفها أحد من قبله مكانة سامية، فيكون الأفراد تبعا لذلك لاهثين وراء تلك المكانة، أما ثانى الأسباب التى ذكرها "كينان" هو اعتبار أى قول يتفوه به شخص ما ويسبب إحراجا لشخص آخر خزى كبير، وكذلك يعد من العيب التنبؤ بشىء ما والإفصاح عنه وهو غير صحيح، لهذا يتجنب الأفراد مثل هذه المواقف لدرجة كبيرة فيكون ما يقولونه أقل القليل، نتيجة لما تقدم يجد الغرباء فى ذلك المجتمع صعوبة فى الحصول على إجابات مباشرة لأسئلتهم البسيطة، يبدو جليا أن قاعدة "جريس" الخاصة بالكم لا تُتبع بلغة مدغشقر، فهى لغة محكومة بقواعد مختلفة عن تلك التى تحكم كلامنا.

الفصل الرابع

تنوُّع اللغة

إننا – كبقية البشر – نستخدم مسمى اللغة الإنجليزية للإشارة إلى هذه اللغة بصفة خاصة، كما أنه ليست لدينا أية مشكلة في تمييز تلك اللغة عن اللغة الفرنسية أو الصينية، لكن هذا المسمى يضعنا فى مأزق كبير لم نكن ننتبه إليه، لنعرف فيما يلى السبب في ذلك.

التنوع الجغرافى :

هل تثق فى قدرتك على تمييز اللغة الإنجليزية عند رؤيتها ؟ تأمل أولا الأمثلة التالية ولنر وجهة نظرك فيها :

(4.1) We had us a real nice house.

(4.2) She's a dinky-di pommie Sheila.

(4.3) I might could do it.

(4.4) The lass divn't gan to the pictures, pet.

(4.5) They're a lousy team any more.

(4.6) I am not knowing where to find a stepney.

ماذا ترى في كل جملة من هذه الجمل ؟ هل هى عادية ؟ مألوفة ؟ مفهومة ؟ هل هى جملة إنجليزية ؟

تعتمد إجابات الأسئلة السابقة على خبراتك الشخصية من جهة، وكذا المكان الذى تنتمى إليه من جهة أخرى، وهو الأمر الأكثر أهمية، تلك الجمل صحيحة تماما ومفهومة في بعض أجزاء العالم الناطق بالإنجليزية ولكنها غير مألوفة بالمرة في أجزاء أخرى، ستكون بعض الجمل السابقة الذكر غريبة عليك كما أنك لن تستوعب واحدة أو اثنتين من بينها بما أنه – على الأرجح – لم يتسن لك قضاء وقت كاف فى كل جزء من الكرة الأرضية ينطق بالإنجليزية.

بالرغم مما سبق ذكره لا يزال بعض المتحدثين لأشكال كالجمل السابقة يعتبرون أنفسهم متحدثين للإنجليزية كما يعتبرهم متحدثو الإنجليزية الآخرون كذلك. يتفوه أي شخص من منطقة جغرافية ما بأحد هذه الأشكال دون مراجعتها، كما قد تنتابه الدهشة عندما يعرف أن متحدثي نفس اللغة - لغته - يجدون شيئًا من الصعوبة أو الغرابة فيما ينطق به.

يدور حديثنا الآن حول أحد أشكال التنوع في اللغة وهو التنوع الجغرافي، يتم تحدث اللغة الإنجليزية بطرق مختلفة وفي أماكن مختلفة، مثلها في ذلك مثل أغلب اللغات، وهذا ما نسميه باللهجات المكانية، بإمكانك بلا شك إدراك تواجد اللهجات المكانية وتمييزها عند الاستماع إليها حتى وإن تفاجأت أو اندهشت أو ارتبكت عند سماعها (كذلك ربما تنحاز إلى إحدى هذه اللهجات، وهذا موضوع سنقوم بمناقشته في الفصل الثامن).

ماذا عن الجمل التي عرضناها في أول الفصل ؟ نبدأ بالجملة (٤-١) التي نسمعها في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية وأماكن أخرى من حين لآخر والتي تعني "إن منزلنا حقا جميل"، تعني الجملة (٤-٢) "إنها امرأة إنجليزية حتى النخاع". وهي جملة أسترالية، أما الجملة (٤-٣) والتي تعني "ربما أستطيع فعل ذلك الشيء" توجد عادة في أنحاء عدة من اسكتلندا وأجزاء من منطقة جبل "أبالاشين" بالولايات المتحدة الأمريكية، تعني الجملة (٤-٤) "لا تذهب الفتاة إلى السينما" ونسمعها في منطقة شمال شرق إنجلترا، أما الجملة (٤-٥) - والتي تبدو غامضة لكثير من البريطانيين - نسمعها في أجزاء عديدة من الشمال الشرقي للولايات المتحدة وتعني - تقريبا - "إنهم اعتادوا أن يكونوا فريقا جيدا ولكنهم الآن غير ذلك"، أي أنها تعني عكس الجملة "إنه فريق غير سيء الآن"، أخيرا تعني الجملة (٤-٦) "لا أعرف أين أجد إطاراً بديلاً" ونسمعها في الهند.

توضح تلك الأمثلة باختصار بعض التنوعات الواسعة التي نلاحظها في مفردات ونحو اللغة الإنجليزية، ربما نجد أيضا تلك التنوعات في نطق الكلمات، فلابد أنك لاحظت متحدثين للإنجليزية ينطقونها بطريقة تختلف عن طريقتك، وهذا يعني أن هؤلاء المتحدثين يستخدمون لكنة مختلفة عن لكنتك، اللكنة ببساطة هي طريقة معينة لنطق اللغة، من الضروري أن تعرف أن كل متحدث لديه لكنة وليس فقط عامل البناء الذي ينتمي إلى منطقة "جلاسكو" أو سائق التاكسي النيويوركي أو مطرب البوب الجاميكي

لأن كل منا يستخدم لكنة خاصة به : نحن وأنت وملكة إنجلترا، إنك من المؤكد تعتبر بعض اللكنات أكثر شيوعا أو أرفع مكانة من غيرها وهذا لا يغير من الحقيقة القائلة بأن كل متحدث لديه لكنة خاصة.

إن الاختلافات اللغوية بين اللكنات جلية بدرجة تجعلك قادرا على تمييز المُستخدم منها في إنجلترا، أو اسكتلندا، أو أستراليا، أو شمال أمريكا، أو الكاريبي بسهولة، وربما تستطيع التعرف في التو واللحظة على متحدث قادم من "ليفربول" أو "جلاسكو" أو "نيويورك"، لكن تذكر ما قلناه في الفصل الأول بشأن اختلاف كم الفونيمات التي يستخدمها متحدثو اللغة الإنجليزية، أي أننا لا نملك نفس العدد من الصوامت والصوائت، حتى وإن تحقق هذا فإننا لا نوظفها بنفس الطريقة، نتيجة لذلك تُنطق مجموعات من الكلمات بطريقة ما من قبل بعض الناس بينما ينطقها البعض الآخر بطريقة أخرى.

إليك أمثلة قليلة من تلك الكلمات، حاول أن تنطق كل زوج منها لترى إذا ما كانت طريقة النطق متشابهة أم مختلفة، أتبعنا كل مجموعة من تلك الكلمات بتعليقات مختصرة عن مستخدمي طريقة النطق المذكورة، لاحظ مدى عمومية تلك التعليقات، فربما لا تنطبق طريقة النطق المذكورة على المنطقة التي تتواجد بها.

١ - (father أب، farther أبعد) : تنطق الكلمتين بنفس الطريقة من قبل أغلب قاطني إنجلترا (باستثناء الجنوب الغربي وأجزاء من الشمال)، وويلز، وكل الأشخاص تقريبا بإستراليا و نيوزلندا وجنوب إفريقيا، ومعظم قاطني جنوب الولايات المتحدة الأمريكية وساحلها الشرقي، يختلف نطق هاتين الكلمتين عند بقية المتحدثين.

٢ - (whineعويل، wineخمر) : يفرق معظم الأسكتلنديين والأيرلنديين وعديد من الأمريكيين والكنديين وبعض النيوزلنديين بين نطق هاتين الكلمتين، أما الغالبية الباقية فينطقونهما بنفس الطريقة، وهي الطريقة السائدة بالولايات المتحدة الأمريكية.

٣ - (caught مسك، cot سرير أطفال) : ينطق الكنديون وعديد من الأسكتلنديين وبعض الأمريكيين هاتين الكلمتين بطريقة متشابهة، أما البقية فيميزون بينهما (يعد كلامنا هذا طريقة مجدية للتمييز بين الكنديين والأمريكيين، ولكن لاحظ أيضا اختفاء هذا التمييز بالولايات).

٤ - (hoarse خشن، horse فرس) : يميز بينهما أغلب الناس في أسكتلندا وأيرلندا وبعض الأمريكيين، أما البقية الباقية فينطقونهما بنفس الطريقة.

(stare يحملق، stir يثير) : لا يحدث تفرقة بينهما من قبل معظم قاطني منطقة ليفربول ومانشستر(إنجلترا)، تحدث التفرقة في الأماكن الأخرى.

(pour يسكب، poor فقير) : يختلف نطقهما لدى معظم الأسكتلنديين وعديد من الأمريكيين بالشمال، بينما يتوحد النطق لدى الباقين.

(through خلال، threw رمي) : يختلف نطقهما لدى أغلب المتحدثين بويلز وقليل من ساكني إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، يغلب على الباقين نطقهما بطريقة مختلفة.

(do يفعل، dew ندى) : يتحد نطقهما في شمال أمريكا وشرق إنجلترا، يختلف النطق ببقية الأماكن وإن دلت بعض الإشارات على بداية اختفاء ذلك الاختلاف في بعض أجزاء من إنجلترا.

يمكن للكلمات الآتية أن تضاف للقائمة السابقة : (pore مسام الجلد، paw مخلب)، (pool حوض السباحة، pull يدفع)، (merry سعيد، marry يتزوج، Mary ماري)، (book كتاب، buck ذكر الظبي)، (tow يسحب، toe إصبع)، (air هواء، hair شعر)، (free حر، three ثلاث)، (hire يعين، higher أعلى) وغيرها الكثير والكثير، ربما تندهش عندما تجد متحدثي الإنجليزية يحدثون تمييزا في نطق الكلمات لا تصنعه أنت أو يخفقون في ما تستطيع فعله، كما أنك ستجد واحداً أو أكثر من أمثلتنا صعبة التصديق، لكن مما لا شك فيه أن كل زوج من تلك الكلمات يتم نطقه بطريقة ما من قبل بعض الناس بينما ينطقه الآخرون بطريقة مختلفة، لنقلها بصراحة، يفوق التنوع في نطق اللغة الإنجليزية ما نتوقعه من خلال خبراتنا الشخصية.

طبقا لما تقدم، يمثل ذلك التنوع الهائل عقبة كبرى في طريق أية محاولة لإصلاح النظام الهجائي الشاذ للغة الإنجليزية، إنه من الطبيعي أن نكتب كلماتنا بنفس الطريقة التي ننطقها بها، ولكن أي نطق يمكننا اعتباره القاعدة التي تسير عليها الكتابة والهجاء ؟ هل يجب نطق مجموعات الكلمات السابقة بطريقة موحدة أم بطرق مختلفة وفقا لتلك القاعدة الجديدة ؟ قد يقترح من نادى بالإصلاح أن يكون نطقه هو تلك القاعدة، ولكن هذا ليس حلاً عملياً.

يقتضي الموقف هنا أن نقر بعدم كون اللغة الإنجليزية خارجة عن المألوف فيما يخص التنوعات المكانية لأن اللغات التي تُستخدم في أماكن شاسعة من الكرة الأرضية تتمثل فيها نفس التنوعات وبنفس الدرجة : من تلك اللغات الإسبانية والفرنسية والإيطالية والعربية والصينية وغيرها، كما أن اللغة الباسكية المستخدمة في مساحة لا تتعدى المائة ميل في الثلاثين ميلا تشتمل على كم هائل من التنوعات ربما يفوق ما نجده في اللغة الإنجليزية، تتميز اللغة الإنجليزية بحرصها على التوحد المكاني وبخاصة في قارتي أمريكا الشمالية وأستراليا.

أنواع أخرى من التنوعات :

بالرغم من أن اللهجات الإقليمية واللكنات من أبرز أشكال التنوعات في أية لغة إلا أنهما جزء واحد من تلك التنوعات المتعددة، يمكننا ملاحظة أنواع من التنوعات في أحد المجتمعات أو في كلام فرد واحد من تلك المجتمعات، فيما يلي أمثلة أخرى من اللغة الإنجليزية والمستخدمة في لندن وبخاصة في الجنوب الشرقي لإنجلترا. ماذا تلاحظ في سياق كل من تلك الأمثلة ؟

(4.7) Would you mind very much if *I* were to open a window ?

(٤-٧) هل تمانع في أن أفتح النافذة ؟

(4.8) Ta , mate.

(٤-٨) شكرا يا سيدي.

(4.9) Oh , Julia , what an absolutely divine tonic !

(٤-٩) يالها من سترة رائعة الجمال يا جوليا !

(4.10) All monies owing in respect of 2 (d) above shall be payable not later than the date of completion specified therein.

(٤-١٠) يجب أن تُدفع كل الأموال التي ذكرها البند ٢(ب) قبل انقضاء الموعد المحدد مسبقا.

(4.11) I refer the right Honourable gentleman to my previous answer.

(٤-١١) إنني أخص بإجابتي السابقة السيد المبجل الجالس جهة اليمين.

(4.12) Yanks 2 , Planks 0.

(٤-١٢) "يانكس" ٢، "بلانكس".

نبدأ بالجملة (٤-٧) والتي ينطقها - بلا شك - شخص من الطبقة الوسطى في إطار رسمي، أي أن الحديث الدائر ليس حديثا بين الأصدقاء، أما الجملة (٤-٨) فهي كلام أحد أفراد الطبقة العاملة حيث أن كلمتي "ta" (شكرا) و "mate" (سيد) دلالات على حديث تلك الطبقة بلندن، بإمكانك سماع المثال (٤-٩) من سيدة، لأننا نادرا ما نسمع كلا من كلمتي "divine" (رائع) و "tunic" (سترة) من الرجال، علاوة على أن إظهار شخص ما إعجابه بملابس شخص آخر أمر خاص بالسيدات أكثر من الرجال، تختلف الجملة (٤- ١٠) عما تقدم، فأسلوبها الجاف غير الشخصي وكلماتها غير المألوفة - "monies" (مال)، "therein" (مسبقا) - ينم عن أنها مأخوذة من وثيقة قانونية، كما أن الطبيعة الرسمية للمثال (٤-١١) يجعل من مجلس العموم المكان الأمثل لكي تقال به، أما المثال (٤ - ١٢) فلا يمكن له إلا أن يكون عنوانا في إحدى الصحف المصغرة الشائعة، إن أسلوبه المختصر والسريع يخبر بطريقة تلقائية نتيجة مباراة لكرة القدم بين إنجلترا وأمريكا ويعلق بصورة واضحة وفي عجالة على أداء الفريق الإنجليزي.

توضح الأمثلة السابقة بعض التنوعات المتعددة المتمثلة في المجتمع الواحد، أولا: تتحدث أنواع متباينة من البشر بطرق شتى؛ فمثلا متحدثو الطبقة الوسطى لا يتحدثون كطبقة العمال، كما أن النساء يتحدثون بطريقة تختلف عن الرجال وكذا الاختلاف بين كبار السن وصغار السن، ثانيا : يتحدث الشخص الواحد بطريقة تختلف باختلاف السياق، فالشخص المذكور بالمثال (٤ - ٧) سيتحدث بطريقة مختلفة إذا كان الموقف أقل رسمية، كما أن الوزير المتحدث بالجملة (٤-١١) لا يمكنه قولها خارج نطاق مجلس العموم إلا إذا كان يسخر من شخص ما، أخيرا، تكون وسيلة التعبير على جانب من الأهمية، فبينما تمثل الوثائق القانونية الحد الأقصى من الرسمية - نجد أغلب أنواع الوثائق المكتوبة مختلفة تماما عما هو منطوق.

إذا كانت لديك خبرة بالحياة في لندن ستكون الأمثلة التي ذكرناها مألوفة لك بطريقة أو بأخرى، أما إذا افتقدت تلك الخبرة فإنك ستتعرف عليها عن طريق أمثلة

أخرى مشابهة لها وموجودة بالتنوع الخاص بالمكان الذي تتواجد به، يكتسب الفرد الذي يتعلم اللغة في طفولته قدرا من التحكم في استخدام التنوعات، فالشخص المنتمي للطبقة الوسطى يتعلم أن يقول "thank you very much" (أشكرك بشدة)، ولا يقول "ta , mate" (شكرا يا سيدي)، كما أن الرجل لا يتعلم التعبير عن إعجابه بالملابس بتلك الطريقة الحماسية التي ذكرناها، أي أن كل فرد لديه قدر من التعليم يكتسب قدرا من التحكم في التنوعات الرسمية المكتوبة للغة الإنجليزية، علاوة على ذلك يعي كل فرد أهمية التنوعات التي لا يستخدمها هو بصفة شخصية : فأنت حينما تقابل شخصا يتحدث الإنجليزية بلهجة مخالفة للهجتك، يكون باستطاعتك استنتاج حقائق بشأن ذلك الشخص الذي تتعامل معه، أخيرا، يتعلم كل شخص التحكم في الكم المناسب من التنوعات، فأنت تستطيع بلا أدنى جهد التنقل بين النوع المناسب من الإنجليزية عندما تتحدث مع صديق قريب في حانة أو بار أو عند الحديث في مقابلة التقدم لأحد الوظائف، لهذا يعد من الغريب أن يحاول أي شخص يتحدث الإنجليزية استخدام نفس أسلوب الكلام في تلك الظروف المتباينة.

دراسة التنوعات :

إن لدراسة التنوعات تاريخا طويلا في علم اللغة، فقد جذبت اللهجات المكانية الانتباه منذ وقت مبكر وتتبع اللغويون الأوروبيون – منذ أكثر من قرن مضى – ذلك الفرع الذي تسميه نحن علم اللهجات، أي دراسة اللهجات المكانية، قام علماء اللهجات بتجميع كم هائل من البيانات عن التنوعات الإنجليزية والفرنسية والألمانية ولغات أخرى، ثم قدموا ما توصلوا إليه في صورة خرائط، يمثل الشكل (٤–١) خريطة مبسطة للهجات إنجليزية، والخريطة تعرض الكلمة الشائعة للمصطلح "شخص مؤنث صغير السن" والمستخدمة في بدايات هذا القرن، تسمى الخطوط التي تفصل اللهجات المكانية عن بعضها البعض بالأيسُوكلوس أما إذا نظرنا إلى خريطة مشابهة ولكنها مصممة في وقتنا الحالي نجد النتائج مختلفة تماما حيث حلت الكلمة الجنوبية الشرقية (التي تضمها الإنجليزية النموذجية) "girl" (بنت) محل الكلمات الأخرى فيما عدا كلمة "lass" (صبية) التي بقي استخدامها في الشمال.



شكل (٤–١)

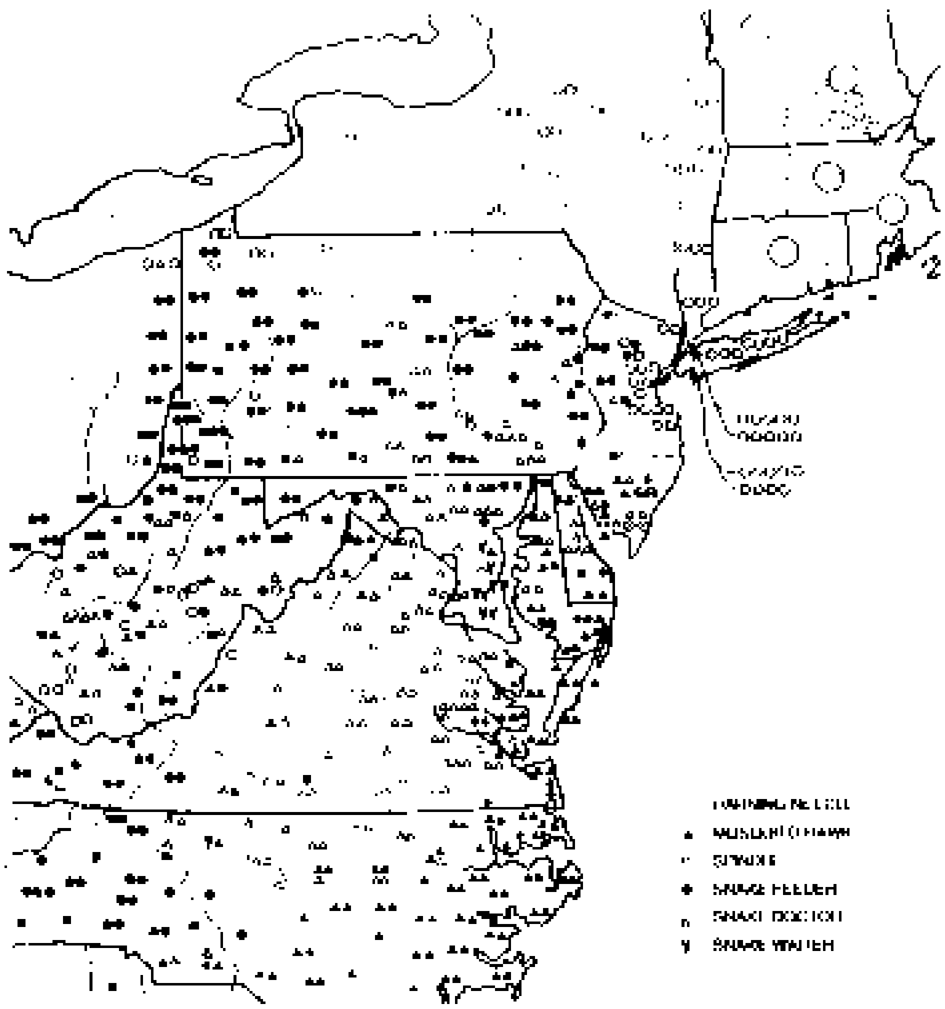
الكلمات الدالة على "فتاة" بإنجلترا

صبية **Lass**	فتاة بكر **Maiden**
فتاة أو خادمة **Wench**	بنت **Girl**
نيوكاسيل **Newcastle**	كارليسل **Carlisle**
سندرلاند **Sunderland**	دارهام **durham**
مديلبورو **Middlesborough**	لانكستر **Lancaster**

برادفورد Bradford	بلاكبرن Blackburn
مانشستر Manchester	شيستر chester
ستوك Stoke	يورك york
ليدس Leeds	هَلْ hull
سكَنْثورب Scunthorpe	شيفيلد Sheffield
جريمسبي Grimsby	لينكولن Lincoln
نوتينجهام Nottingham	جرانثام grantham
ديربي Derby	ولفرهامبتون wolverhampton
ولسال Walsall	برمنجهام Brimingham
نورثامبتون Northampton	هيرفورد Hereford
جلوسستر Gloucester	ليسستر Leicester
بيتربورو Peterborough	النرويج Norwich
كامبريدج Cambridge	بدفورد Bedford
إبسوش Ipswich	أكسفورد oxford
لندن London	بريستول Bristol
ساليسبري Salisbury	بورنموث Bournemouth
إكسيتر Exeter	بلايموث Plymouth
ترورو Truro	ثوزامبتون Southampton
بريتون Brighton	دوفر dover
بورتسموث Portsmouth	

تعـرض الخـريطة تفـاصـيل أكـثـر بشـأن الكلمـات الشـائعـة لكلمـة dragonf (يعْسوب)[٢٦] المستـخدمة فى شرق الولايات المتحدة الأمريكية، إنها تبين عشـوائية الخطوط الفاصلة بين اللهجات وذلك بخلاف الخريطة (٤-٢).

(٢٦) ذباب فارسي .



شكل (٤-٢)

الكلمات الدالة على "اليعسوب" فى شرق الولايات المتحدة الأمريكية

Snake Feeder ●	Darining Needle O
Snake Doctor Ⲕ	Mosquito Hawk ▲
Snake Waiter ↓	Spindle σ

جدير بالذكر أنه نتيجة للجهود التي قام بها جغرافيو اللهجات تسنى لنا معرفة اللهجات المكانية للغة الإنجليزية وغيرها من اللغات، أما الأنواع الأخرى للتنوعات فلم تسترع الانتباه في الأوقات المبكرة، في أغلب أوقات قرننا الحالي تم تجاهل التنوعات بدرجة كبيرة في إطار المجتمعات الواحدة، ففي أفضل الأحوال اعتُبرت تلك التنوعات غير متسقة بدرجة تجعلها قابلة للدراسة أما في الأحوال السيئة أصبحت مستبعدة باعتبارها سطحية، وغير مهمة، بل ومزعجة، بالرغم من ذلك حوَّل العلماء الاجتماعيون للغة – دارسو العلاقة بين اللغة والمجتمع- في عام ١٩٦٠ انتباههم لتلك التنوعات وبدأوا في غضون سنين قليلة التوصل إلى نتائج مذهلة.

اختصت بعض اكتشافاتهم المذهلة بالطريقة التي يختلف وفقها المتحدثون من مقطع إلى آخر، لتأخذ مثلا الشكل "ing" – في كلمة "going" (ذهاب)، نجد أن أغلب متحدثي الإنجليزية لديهم طريقتان لنطق هذا الشكل : طريقة تطابق كتابته وأخرى تطابق الكتابة "goin" أي بدون الحرف "g"، فتجد أن متحدثا ما يستخدم إحدى طريقتي النطق في حين والطريقة الأخرى في حين آخر بلا ضابط لذلك الاستخدام، لذا اعتبر هذا النوع من التنوع الحر منذ وقت بعيد غير مجدٍ للدراسة، بالرغم من ذلك قام اللغوي الاجتماعي البريطاني "بيتر ترودجيل" بدراسة هذين الشكلين "going" , "goin" بمدينة النرويج الإنجليزية في عام ١٩٧٠ واتَّبع في ذلك اتجاها جديدا كان اللغوي الأمريكي "وليم لابوف" قد اخترعه قبل محاولته تلك بسنين قليلة والذي يسمى بالاتجاه الكمي، كل ما فعله ترودجل هو :

١ـ قام بجمع عدد من متحدثي اللغة النرويجية ذوي الخلفيات المتنوعة.

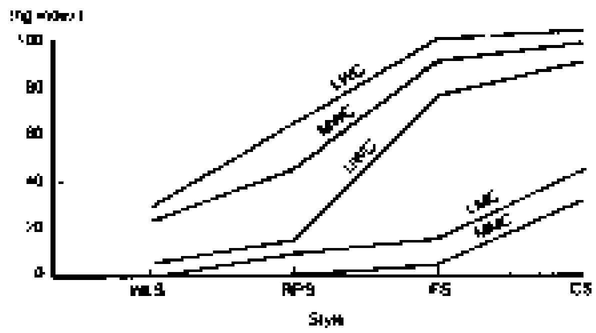
٢ـ قام بوضع كل متحدث في أحد أنماط أربعة :

(أ) "casual speech" الكلام العادي (CS) : وهو الحديث المعتاد غير الرسمي.

(ب) "formal speech" الكلام الرسمي (FS) : وهو الكلام المنمق المستخدم في المقابلات الرسمية.

(ت) "reading - passage speech" حديث القراءة (RPS) : الكلام الذي يستخدمه صاحبه عند القراءة من نص مكتوب بصوت مرتفع.

	WLS	RPS	FS	CS
MMC	0	0	3	28
LMC	0	10	15	42
UWC	5	15	74	87
MWC	23	44	88	95
LWC	29	66	98	100



شكل (٤-٣)

معدلات استخدام الشكل – in بمدينة النرويج الإنجليزية   مقياس (ng)



الطبقة المتوسطة (MMC)	٠	٠	٠	٠
الطبقة المتوسطة المنخفضة (LMC)	٠	٠	٠	٠
الطبقة العاملة العليا (UWC)	٥	٥	٥	٥
الطبقة العاملة المتوسطة (MWC)	٢٣	٢٣	٢٣	٢٣
الطبقة العاملة المنخفضة (LWC)	٢٩	٢٩	٢٩	٢٩

ماذا ؟ وظيفة من وظائف اللغة ؟ أليست وظيفة اللغة هي التواصل ؟ مرة أخرى نجيب بالإثبات على هذا السؤال، إن كل فرد في حاجة إلى الحفاظ على الهوية الخاصة به، أحد الجوانب الهامة لتلك الهوية هي المشاركة في الجماعات واللغة هي التي توفر السبيل القوى للحفاظ والثبات على المشاركة في الجماعة، لا شك أن السباك سالف الذكر ينتمي إلى جماعة تتكون من أسرة وأصدقاء يشاركونه الخبرات والاهتمامات والظروف والقيم، وحتى يظل فردا في تلك المجموعة فلزاما عليه أن يتحدث حديثهم، لهذا لا يهم أن يكون هذا الحديث ذا مكانة مرتفعة أو منخفضة بل يكون المهم هو الحديث بالطريقة التي يتحدث بها الآخرون لأن فعْل ذلك يحمل رسالة صريحة تقول "إنني أعتبر نفسي فرداً في جماعتكم".

لذلك عندما يحاول السباك تغيير كلامه عمدا يكون قد أفصح عن شيء بوضوح وهو "لم أعد واحدا من جماعتكم"، وهو إذا أصر على موقفه ذلك سيعي الآخرون الرسالة وسيجد نفسه خارجا عن الجماعة، لأجل ذلك تعد اللغة أداة بالغة القوة للإعلان عن هوية شخص ما والحفاظ عليها وليس هناك سبب يمكن من خلاله القول بأن تلك الوظيفة تقل أهمية عند معظم الناس من وظيفة توصيل المعلومات، إننا نجد اللغويين يطلقون مصطلح "المكانة الخفية" على الأشكال اللغوية التي تقل مكانتها بالنسبة للمجتمع ككل بينما تتعاظم أهميتها في الحفاظ على مكانة متحدث ما داخل جماعة اجتماعية معينة.

يحدث أحيانا أن يبدأ المتحدث في تغيير طريقة كلامه فكاتبنا يقول : "عدد ليس بالقليل من زملائنا الجامعيين نشأوا وهم يتحدثون لهجة مكانية أو اجتماعية أقل مكانة ثم قضوا سنوات في اكتساب ذلك النوع من الإنجليزية الخاص بالطبقة الوسطى والذي يعد مناسبا للحياة الأكاديمية، وكنت واحدا منهم، بالطبع قام كل واحد منا بنشر نفس الرسالة التي قال بها السباك : إننا لا نعتبر أنفسنا جزءا من الدائرة الاجتماعية التي نشأنا فيها، بل إننا نرغب في إعلان شيء وهو أننا نعتبر أنفسنا جزءا من مجموعة مختلفة تماما وهي جماعة العمل الأكاديمي".

اللغة والنوع والجنس :

يعد التقسيم بين الرجال والنساء في مجتمع ما واحداً من أوضح التقسيمات الاجتماعية، ومما يدعو للدهشة أن هذا التقسيم يتضح بشدة في كلام ذلك المجتمع، بل أكثر من ذلك قد يكون هذا الاختلاف كبيراً في بعض اللغات حتى أن بعض الرجال والنساء يستخدم كل منهم على حدة كلمات مختلفة ونطقاً مختلفاً أو أشكالاً نحوية مختلفة، يحدث ذلك – على سبيل المثال – في اللغة اليابانية حيث نجد اختلافاً بين الرجال والنساء في استخدامهم للكلمات :

النساء	الرجال	المعنى
onaka	hara	معدة
taberu	kuu	يأكل
atashi	boku	أنا
ohiya	mizu	ماء
oishii	umai	لذيذ

بالمثل نجد في لغة "الكوازاتي" – لغة مستخدمة في لويزيانا – كلمات عديدة تختلف نهايتها عند التنقل بين استخدامها فيما بين النساء والرجال، فمثلا تعني الجملة (ارفع هذا) "lakawhol" في كلام النساء، بينما تعني "lakawhos" في كلام الرجال.

لا يوجد في اللغة الإنجليزية شيء من هذا القبيل، وإن دلت الأبحاث على أن الرجال والنساء يتحدثون بطرق مختلفة بالفعل في تلك اللغة، فالنساء يقضون معظم أوقاتهم في الحديث عن الملابس والأطفال بينما يتحدث الرجال كثيرا عن السيارات والرياضات، فيما يلي بعض هذه الاختلافات التي تظهر في كلام النساء والرجال، لاحظ أن بعض هذه الاختلافات لا تزال محل نقاش :

١ – تستخدم النساء بصفة دائمة عددا من المصطلحات الدالة على الإعجاب والتي نادرا ما يستخدمها الرجال، مثل بديع – ظريف – فاتن – مبهج، وغيرها.

٢ – يقال إن النساء يفلحن في إظهار تفرقة واضحة في مجالات معينة أكثر من الرجال ومنها المصطلحات الدالة على الألوان، فنحن نراهن يستخدمن بكثرة مصطلحات مثل اللون الأخضر المائل إلى الصفرة، اللون القرمزي، اللون البيج.

(ث) "word - list speech" الكلام بالتسلسل (WLS) : عندما يقرأ الشخص قائمة من الكلمات بطريقة تسلسلية.

٣ـ قام بتسجيل كل المواضع التى ينطق فيها الأشخاص الشكلين .goin' , going

٤ – قام بتعيين كل شخص – مستخدما فئة ذاتية – فى واحد من خمس طبقات :

"the lower working class" (LWC) الطبقة العاملة المنخفضة.

"the middle working class" (MWC) الطبقة العاملة المتوسطة.

"the upper working class" (UWC) الطبقة العاملة العليا.

"the lower middle class" (LMC) الطبقة المتوسطة المنخفضة.

"the middle class" (MMC) الطبقة المتوسطة.

٥– قام بحساب متوسط عدد المرات التي يُنطق بها الشكل "'goin" عند كل فرد من الأفراد الخمس في كل من المواقف الأربعة، وحول هذا الرقم إلى نسبة مئوية.

أطلق "ترودجيل" على تلك النسبة اسم مقياس (ng)، كلما ارتفع هذا المقياس دل ذلك على ازدياد استخدام الشكل "'goin" وقلة استخدام الشكل "going"، يعرض الشكل (٤–٣) ما توصل إليه "ترودجيل" من نتائج في شكل جدول رقمي ورسم بياني.

لاحظ النتائج غير المتوقعة التى جاء بها "ترودجيل" : تستخدم كل مجموعة من المتحدثين ، بل كل فرد كلا النوعين من النطق فى أغلب المواقف أو جلها ، ولكن من ناحية أخرى يلجأ كل فرد إلى استخدام الشكل -in بنسبة أكبر كلما أصبح الموقف غير رسمي ، ويدل على ذلك ارتفاع الرسم البياني لكل مجموعة ، كما يستخدم الفرد المنتمى إلى جماعة منخفضة المكانة الشكل -in بنسبة أكبر مما يستخدمها الشخص المنتمى إلى جماعة مرتفعة المكانة ، ويدل على ذلك عدم إمكانية تقاطع خطوط الرسم البيانى .

تتجلى تلك النتائج عندما تتم دراسة التنوع من وجهة كمية أو إحصائية ، فمن الصعوبة بمكان التوقع بنوع الشكل الذى سيستخدمه المتحدث فى موقف ما ، ولكن من الناحية الإحصائية يكون سلوك المتحدث ثابتا بدرجة ملحوظة ، علاوة على ذلك يمكننا – فى حالة دراسة الرسم البيانى – الجزم بأن نطق الشكل -ing يدل على ارتفاع المكانة الاجتماعية أكثر من الشكل -in ، فكل متحدث يتجه نحو الشكل -ing كلما أصبح الموقف أكثر رسمية، وتستخدم الجماعات ذات المكانة الاجتماعية المرتفعة ذلك الشكل أكثر من الجماعات المنخفضة المكانة .

يطلق على ما تقدم "الطبقة الاجتماعية"، توصل العلماء الاجتماعون للغة إلى نفس النتائج في مجتمعات شتى بمختلف أنحاء العالم وبخاصة تلك التي تشتمل على أعداد هائلة من المتنوعات اللغوية ، يبدو جليًا من تلك النتائج أن الأشكال اللغوية المتصارعة من أجل البقاء لها غالبًا أهمية اجتماعية يعرفها المتحدثون جيداً ، يؤدى هذا الاستنتاج النهائي إلى لغز جديد .

اللغة والهوية :

إذا كان المتحدثون يعرفون بحق الأهمية الاجتماعية للأشكال المتنافسة مما يجعلهم يستخدمون في أغلب الأحيان الأشكال اللائقة ويتجهون إليها بقوة في مواقف معينة ، فلماذا لا يترك هؤلاء المتحدثون أو حتى معظمهم الأشكال الأقل لياقة ويتحولون إلى الأشكال الأكثر لياقة فقط ؟ لماذا يتمسك شخص ما باستخدام الأشكال التي يعي جيداً أنها أقل لياقة ؟ يضاف إلى السؤال المزيد من الفاعلية عندما ندرك أن المتحدثين من الطبقة العاملة يصفون كلامهم بأنه " إنجليزية ليست جيدة" ويصرحون مرارًا بإعجابهم بكلام الطبقة المتوسطة .

إن الطريقة البسيطة لإجابة هذا السؤال هي النظر إلى المثال الافتراضي الآتي : تخيل أن سباكا أو ميكانيكيا يقطن بلندن ويتحدث الإنجليزية الخاصة بالطبقة العاملة في منطقته، افترض أنه نتيجة لاستيائه من كلامه وتأثره بكلام الطبقة الوسطى مما يسمعه بالتليفزيون أو من زبائنه الذين يغدقون عليه بالأجر الكبير، قرر محاولة ترك كلامه الذى اعتاده من أجل التقرب إلى كلام الطبقة الوسطى، ماذا ستكون النتيجة ؟ هل سيتقبل أصدقاؤه وعائلته الأمر بصدر رحب ؟ هل سيعجبون بكلامه اللائق، بل يحاولون تقليده ؟ بالطبع لا، بل بالعكس سيهزءون من جهوده لثوان قليلة ثم لا يلبثوا أن يسأموا ويتنحوا عنه جانبا بل ربما يظهرون تجاهه العداء بسبب ذلك، لذا سيجد ذلك السباك أو الميكانيكي الطموح نفسه بدون أصدقاء ولكن لماذا ؟ أليس من حق كل فرد التمتع بمكانة لائقة ؟

لا ليس كذلك، فنحن عند حديثنا بلباقة عن "الأشكال ذات المكانة" تغاضينا عن شيء غاية في الأهمية – شيء ذى علاقة بواحدة من الوظائف الحيوية للغة.

٣ – يقال إن الرجال يسبون أكثر من النساء، ربما كان يحدث ذلك بالجيل السابق وإن قلت قليل من التعبيرات الفظة مستخدمة من قبل الرجال بصفة أساسية.

٤ – يقال إن النساء يستخدمن الأسئلة المذيلة بكثرة عن الرجال فهم كثيرا ما يقولن أشياء مثل : إنها طريفة أليس كذلك ؟ وكأنهن يبحثن عن التأكيد (تتباين الآراء في هذا الافتراض بصفة خاصة).

٥ – يقاطع الرجال في الحديث أكثر من النساء، يأتي هذا الافتراض مفاجأة للرجال والذين يؤمنون بعكسه تماما ولكن الأبحاث المكثفة أثبتت صدق ما نقول بما لا يدع مجالاً للشك.

٦ – كثيرا ما يدير النساء الحديث بطريقة صبيانية.

٧ – بصفة عامة، يعد كلام النساء تعاوني بينما كلام الرجال تنافسي، لأن النساء عند الحديث دائما ما يتعاطفن مع بعضهن بعضا كما أنهن يساندن ويثنين على إسهامات الآخرين، يحاول الرجال – على العكس – التغلب على بعضهم البعض وإظهار التقدم والتفوق على الآخرين من خلال ما يقولونه.

٨ – يكثر النساء المنتميات إلى جماعة اجتماعية واحدة من استخدام الأشكال ذات المكانة الظاهرة، كما يملن إلى الإشادة بأنهن يستخدمن الأشكال ذات المكانة المرتفعة كثيرا حتى وإن كان هذا غير صحيح، على العكس يستخدم الرجال أشكالا لائقة بأعداد أقل ويتحدثون كثيرا عن استخدامهم لأشكال أقل مكانة مما يستخدمون.

يشير أنصار النساء غالبا إلى تلك الاختلافات كدليل على دور النساء الثانوي في المجتمع، من المتوقع أن تكون أفعالهن لائقة بوصفهن سيدات، وأن يذعنّ لقرارات الرجال، وأن يسعين للحصول على موافقة الرجال قبل الشروع في فعل أي شيء، وأن يقصرن أحاديثهن على موضوعات تافهة في رأي الرجال، مما لا شك فيه أن أنصار النساء محقون في آرائهم تلك ولكن بعضهم رفضوها وهاجموا بشدة ما يرونه انحياز اللغة الإنجليزية إلى الرجال، ما معنى ذلك ؟

ربما تنامى إلى علمك من قبل أن الجامعات – بخلاف وقت الدراسة – تقوم بتوفير بعض الخدمات مثل عقد الملتقيات وذلك من أجل تحقيق ربح إضافي، لاحظ منظمو تلك الملتقيات – بالجامعة التي كان يعمل بها مؤلف الكتاب – منذ سنوات مضت

تزامن ملتقى البحارة والممرضات، انتهازا لتلك الفرصة قام المنظمون بإقامة حفل راقص، ولكن اتضح لهم بعد ذلك أن الممرضات رجال.

لم يخطر لأولئك المنظمون أن الممرضات ليسوا نساء بل رجالا، فمهنة التمريض من أكثر المهن التي يظهر بها اختلاف النوع بصورة جلية، جرت العادة أن يكون البحارة والأطباء وسائقي السيارات الأجرة والقضاة من الرجال، في حين خُصصت مهن مثل التمريض وعرض الأزياء ومرافقة الأطفال والسكرتارية والدعارة للنساء، سادت تلك التوقعات منذ فترة ليست بقليلة ولكن بمرور الوقت أصبح من النادر اقتصار بعض المهن على أحد الجنسين فقط، فأصبحنا نسمع عن رجال يمتهنون مهنة التمريض، لكن المشكلة الحقيقية من وجهة نظر النقاد هي تواجد مصطلحات دالة على التفرقة الجنسية مثل "chairman" (رئيس)، "postman" (رجل البريد)، "fireman" (رجل المطافئ) من ناحية، و"cleaning lady" (الخادمة)، "tea lady" (المضيفة) من ناحية أخرى، لذا أدى التذمر على استخدام مثل هذه المصطلحات إلى استبدالها بأخرى بل تفضيل الجديد على القديم مثل "cleaner" (من يقوم بالتنظيف)، "firefighter" (مكافح الحرائق) وهي كلمة جديدة مبتكرة، كما أصبح لكل قسم بالجامعة "chair" (رئيس) وليس "chairman" (رئيس) أو "chairwoman" (رئيسة).

على الرغم من ذلك يصعب استبدال بعض المصطلحات بأخرى، فمثلا لا يوجد بديل يستخدم على نطاق واسع للكلمة "postman" (رجل البريد)، هل"postperson" أم "postie" أم "post delivery person" ؟ (كلها تعني من يقوم بتسليم البريد)، الأصعب من ذلك مصطلحات مثل "manhole" (فتحة الدخول)، "man-eating" (القرش أو آكل البشر)، "to man" (إلى فلان)، بل الأدهى من ذلك وتلك استخدام الكلمة الجامعة غير المعرّفة "man" لتعني إنسان وذلك في جمل مثل "Man first reached the Americas 13.000 years ago" (اكتشف الإنسان الأمريكتين منذ ١٣,٠٠٠ عام)، رضخت النساء لتلك الاستخدامات لقرون عدة ولكن يبدو أننا الآن نخطو حثيثا نحو تنقية اللغة من مثل هذه الاستخدامات الجنسية.

إلى أي مدى يمكننا الذهاب في هذا الأمر ؟ لابد أنك لاحظت الاستخدام المتكرر لكلمات لا تفي بالغرض مثل "his" و "her" (للدلالة على الملكية) في جمل مثل "Why should anyone persist in using forms which he or she recognize as being of low prestige ?" (لماذا يصر أي شخص على استخدام أشكال يراها هو أو هي ذات

مكانة منخفضة ؟) إن الاختيار ما بين أحد هذين الضميرين أمر ليس بواضح، إذن فماذا بوسعنا أن نفعل ؟ ذهب بعض الناس مذهبا بعيدا عندما قاموا بتقديم ضمير جديد غير دال على الجنس مثل "herm" (خليط من her و him) ،لكن عدد قليل جدا أظهر الحماس تجاه تلك التجديدات الصارخة، كما لم يظهر بديل لها في الوقت الحالي.

الحياة باستخدام لغتين :

إن استخدام مجتمعات أو أشخاص بعينهم للغتين أو أكثر في سياق الحياة اليومية واحد من أقصى ما يمكن قوله عن التنوعات، يشتهر متحدثو اللغة الإنجليزية بإخفاقهم في تعلم اللغات الأخرى في الوقت الذي تستخدم نسبة كبيرة من سكان الأرض أكثر من لغة بصفة منتظمة كل يوم، اعتاد الناس في جنوة الجديدة وغابة الأمازون الممطرة – حيث تستخدم لغات عدة في مناطق محدودة المساحة – تعلم لغتين أو ثلاثة من لغات المناطق المجاورة له بالإضافة إلى لغتهم الخاصة وحدث ذلك أيضا في أستراليا قبل أن يطبع الاستعمار الأوروبي بثقافتهم، كما يستخدم الملايين من الناس في أوروبا أكثر من لغة برغم تواجد الدول المركزية الكبيرة المساحة صاحبة الأساس القوى والتي يفترض أن تكون لها لغاتها المستقلة.

لا يتوقع أي شخص غريب عن نطاق أي بلد ما سبق ذكره، فإننا نتوقع مثلا أن يتحدث الناس بالفرنسية في فرنسا، وبالطبع يحدث ذلك بالنسبة لمعظم الأشخاص البالغين، ولكن يتحدث الملايين من الفرنسيين الألمانية والبريتانية(٢٧) والباسكية والأوكيتانية(٢٨) والكاتالانية(٢٩) والكورسيكية كلغة أولى بدلا من الفرنسية، لقد ظلت ويلز جزءا من بريطانيا ما يقرب من ألف عام بينما يتحدث نصف مليون فرد في شمالها وغربها اللغة الويلزية كلغة أولى ويبدءون في تعلم الإنجليزية بعد الالتحاق بالمدرسة، أي إنهم يتحدثون الويلزية بالمنزل مع عائلاتهم وأصدقائهم بينما يتحدثون الإنجليزية مع الغرباء.

كان كل سكان ويلز منذ عدة قرون يتحدثون اللغة الويلزية، ولكن لغتهم بدأت في فقدان مكانتها نظرا لما للغة الإنجليزية من تأثير قوي، فهي اللغة الرئيسية للمملكة

(٢٧) لغة مستخدمة في شمالي غرب فرنسا .
(٢٨) لغة مستخدمة في جنوب فرنسا .
(٢٩) لغة مستخدمة في شرق شمال شرق شبه جزيرة سيبريا .

المتحدة، يتمثل هذا التأثير في عدة عوامل أولها إدراك الويلزيون منذ زمن بعيد أن معرفة اللغة الإنجليزية سيتيح العديد من الفرص خارج ويلز، وثانيها اضطهاد السلطات البريطانية للغة الويلزية من حين لآخر، فقد رأينا منذ سنوات ليست بالبعيدة أن تلاميذ المدارس يعاقبون من جرم حديثهم باللغة الويلزية داخل المدرسة، لاشك أن الكثير من متحدثي اللغة الويلزية قد تضجروا من جراء ما يعتبرونه محو تدريجي للغتهم وثقافتهم من جراء انتشار اللغة الإنجليزية كما أن بعضهم بدأ في التصرف بقوة تبدأ من رفضهم للكلام باللغة الإنجليزية مطلقا وتنتهي بالهجوم على المنازل التي يمتلكها متحدثو اللغة الإنجليزية وحرقها، تمس تلك القضية الجانب الاقتصادي، فالأثرياء من ساكني لندن يتخذون من الأكواخ بشمال ويلز بيوتا يقضون فيها أجازاتهم مما سبب في ارتفاع أسعار المساكن لدرجة جعلت ساكني المنطقة الأصليين غير قادرين على مجاراتها، إن هذه القضية قضية هوية من الدرجة الأولى، فكما رأينا من قبل أن حديث أي شخص هو الدليل الواضح على هويته الشخصية في كل مكان بما في ذلك ويلز، لذلك شعر سكان ويلز بحجم الخطر الذي يواجهونه والذي يتمثل في فقدان هويتهم كرجال ونساء من ويلز وتحويلهم إلى مجرد مجهولين أو لنقل غرباء يتحدثون الإنجليزية على هامش العالم الإنجليزي.

يطلق على اللغة الويلزية لغة القلة، وقد نجد هذا المصطلح غريبًا قليلا حيث أن متحدثي تلك اللغة يمثلون أغلبية في كثير من أنحاء ويلز بينما يعدون قلة بالنسبة لبريطانيا ككل، انتهجت بريطانيا مؤخرا – شأنها في ذلك شأن بلدان أوروبية أخرى – سياسة أكثر تنويرا تجاه تلك اللغات المسماة بلغات القلة الموجودة بها، فلم تعد اللغة الويلزية مضطهدة على الملأ، كما تم تشجيع التعلم والنشر والبث الإعلامي باللغة الويلزية، بالإضافة إلى ذلك أصبحت الوثائق الرسمية ثنائية اللغة، وحتى المرافعات القانونية أصبح من الممكن إلقاؤها باللغة الويلزية، لكن برغم كل ما تقدم يبقى لنا أن نعرف هل كل هذه الإجراءات كافية بأن تنقذ اللغة الويلزية من الضغط الواقع عليها باستمرار من جارتها ذات المكانة الأعظم في العالم أجمع – اللغة الإنجليزية؟

من الغريب أن نرى أفراد أعظم دول العالم المتحدثة بالإنجليزية – الولايات المتحدة الأمريكية – قد أصبحوا في الآونة الأخيرة قلقين على مستقبل لغتهم حيث نجد مئات من اللغات الأهلية بالولايات المتحدة الأمريكية قد اختفت أو أصبحت أقل أهمية

من جراء انتشار اللغة الإنجليزية، تدفق المهاجرون على الولايات المتحدة الأمريكية – على مدار تاريخها – من كل أنحاء العالم، ففي أوقات مختلفة استقرت أعداد كبيرة من متحدثي الألمانية والإيطالية والمجرية والروسية والصينية والفيتنامية وغيرهم بأمريكا، كُتبت لهذه اللغات المهاجرة الحياة لبعض الوقت ولأجيال عدة وفي مجتمعات بعينها، ولكن في أغلب الأحيان كان أطفال المهاجرين سرعان ما ينتقلون إلى اللغة الإنجليزية وهي عملية يطلق عليها الأمريكيون "الإناء المذيب"، لكن في العقدين الأخيرين ازداد عدد المهاجرين المتحدثين للغة الإسبانية ازديادا ملحوظا، الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية من المكسيك وبروتوريكو وكوبا وسائر أنحاء أمريكا اللاتينية، مما جعل اللغة الإسبانية تُستخدم في أجزاء كبيرة من نيويورك وفلوريدا وجنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية حيث أصبحت اللغة الأولى في مناحي عدة مثل التعليم والصحة والسياسة العامة.

كان رد فعل العديد من الأمريكيين المتحدثين للإنجليزية تجاه ذلك الانتشار الحاد للغة الإسبانية عنيفا، حيث أصدرت حكومات العديد من الولايات قوانين تعلن اللغة الإنجليزية لغة رسمية، كما ازداد الضغط الواقع على واشنطن حتى تنتهج نفس السياسة على مستوى البلاد (مما يدعو للدهشة أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تمتلك لغة رسمية خاصة بها).

سؤالنا الآن هو : هل هناك داع لتلك القوانين ؟ في اعتقادنا أنه لاداع إليها على الإطلاق وذلك لأسباب عدة:

أولاً : مكانة اللغة الإنجليزية على مستوى العالم أجمع وليس بالولايات المتحدة الأمريكية فقط، والتي لا تسمح بأي نوع من الهجوم عليها، إنها لغة الأعمال والتكنولوجيا، والاتصالات، والعلوم، والثقافة العامة.

ثانيًا : إذا قُدر للإسبانية أن تحتل مكانة اللغة الإنجليزية بالولايات المتحدة الأمريكية، فإن إصدار القوانين في ذلك الشأن لن يكون مجديا، إنها ستشبه إصدار قوانين ضد التضخم الاقتصادي أو الموت بسبب الأمراض المعدية.

أخيرا: ماذا لو خضعت الإنجليزية للإسبانية ؟ إن الإسبانية لغة ثرية ومعبرة، كما لا ينبغي للغة الإنجليزية – مثلها في ذلك مثل اللاتينية والفرنسية – أن تطمح في احتلال المكانة الأولى على الدوام.

الفصل الخامس

تغيرّ اللغة

تأمل الفقرة التالية :

And héo cende hire frum-cennedan sunu, and hine mid cild-clāpum bewand, and hine on binne ālegde for pæm pe híe næfdon rūm on cumena hūs . And hierdas wæron on pim ilcan ræce waciende , and niht - wæccan healdende ofer heora heorda. Pi stōd Dryhtnes engel wip hāe and Godes beorhtnes him ymbscān : and híe him micelum ege adrēdon.

هل يمكنك الخروج منها بمعنى ؟ إنك على الأرجح لن تستطيع استيعاب الكثير من معناها إلا في حالة معرفتك باللغة المكتوبة بها هذه القطعة، بل حصولك على تدريب متخصص بها، ربما يخدعك تكرار كلمة "and" (و)، ولكن بخلاف ذلك تبدو الفقرة مبهمة تماما.

هل بإمكانك تخمين اللغة التي تنتمي لها الفقرة ؟ هل هي الهولندية ؟ السويدية ؟ الأيسلندية ؟ أم لغة أخرى تفوق أولئك غرابة ؟

كُتبت هذه الفقرة باللغة الإنجليزية، بالطبع ليست الإنجليزية التي نستخدمها في وقتنا الحالي ولكنها إنجليزية على أية حال.

كتب هذه الفقرة متحدث للإنجليزية بجنوب غرب إنجلترا منذ ما يقرب من ألف عام، فقد كُتبت بذلك النوع من الإنجليزية التي تحدثها الناس في ذلك الوقت والتي يطلق عليها الإنجليزية القديمة أو الأنجلوسكسونية[٣٠]، تبدو لنا هذه اللغة غريبة حقا، فقد يتسنى لك فهم بعض كلماتها الغريبة ولكن تبقى تلك اللغة في المقام الأول غريبة وغير مألوفة لنا مثلها في ذلك مثل اللغة الهولندية الحديثة.

(٣٠) لغة سكان إنجلترا الجرمان قبل الفتح النورماني عام ١٠٦٦ .

لكن هذه اللغة ليست اللغة الهولندية، إنها الإنجليزية التي علمها من يتحدثونها لأطفالهم والذين علموها أيضا لأطفالهم، الذين علموها بدورهم لأطفالهم... وهكذا حتى وصولها لنا فيما بعد على مدار أربعين جيلا، وكان وصولها لنا مغايرا تماما، فأصبح من الصعب علينا فهمها دون دراسة متخصصة، ؟ إذن، ماذا حدث ؟

إجابة هذه السؤال باختصار تكمن في أن اللغة الإنجليزية قد تغيرت، فاختفت العديد من الكلمات الإنجليزية الصعبة وحلت محلها كلمات جديدة، في حين أن بعض الكلمات الأخرى بقيت مع حدوث تغيُّر كبير إما في أشكالها أو معانيها بحيث أصبح من العسير التعرف عليها، كما أن البنية النحوية للغة قد تغيرت بدرجة كبيرة وتغير النطق فجأة أيضا وتغير معه الهجاء بصورة واضحة.

لا تعد الإنجليزية استثناء في ذلك، فكل لغة يتحدثها البشر تتغير بصورة ثابتة، لذا فإن الدرس الهام الذي يمكننا استخلاصه من كتابنا هذا هو : اللغات في تغير مستمر.

سوف نبرز في هذا الفصل بعض الوسائل التي تتغير بواسطتها اللغة، ونمعن النظر في الأسباب المحدثة للتغير، ونبحث النتائج المترتبة على ذلك التغير، باديء ذي بدء دعونا ننظر بإمعان إلى تلك الفقرة الإنجليزية القديمة.

اللغة الإنجليزية منذ ألف عام :

بدءا بأول جملة بالفقرة نجد كلمة "and" المألوفة لدينا بالرغم من تغير نطقها إلا أن الهجاء لا يُظهر ذلك التغير، يصعب الأمر عندما نأتي لكلمة "hēo" والتي تعني (هي)، وهي تتكون من الكلمة "he" (هو) مضافا إليها النهاية الإنجليزية القديمة"o" الدالة على المؤنث، بقيت هذه الكلمة حتى وقت قريب في الشمال الغربي لإنجلترا على الشكل "hēoo"، ثم استُبدلت بكلمة جديدة وهي "she" (هي) والتي ربما يرجع أصلها إلى الكلمة الإنجليزية القديمة "sēo" والتي تعني "that one" (هذا الشيء) ويكون الشيء المشار إليه مؤنثا، تعني الكلمة "cende" (تلد) وهي التصريف الماضي للفعل"cennan"، وقد اختفي هذا الفعل تماما من اللغة ولكن على الأقل يمكنك التعرف على النهاية -de التي تشبه مثيلاتها في الأفعال الماضية "loved" (أحب) و "walked" (سار)، تبدو الكلمة "hire" أكثر وضوحا وتعني "her" (ملكها)، بينما تبدو الكلمة"frum-cennedan"

أكثر صعوبة، فالجزء الثاني منها يعني (مولود) وهو شكل آخر مشتق من الفعل "cennan"، أما الكلمة "frum" التي تعني (أولا) لم يعد لها وجود الآن، من ناحية أخرى، تبدو الكلمة "sunu" بسيطة وتعني "son" (ابن) وهي ملحقة بنهاية نحوية اندثرت منذ زمن بعيد.

تعني – "hine" على غير المتوقع – "him" (له)، بينما تعني "mid" "with" (بين) وقد اختفت من اللغة هي الأخرى باستثناء وجودها بالكلمة المركبة "midwife" (القابلة) والتي تعني حرفيا (مع السيدة)، بإمكانك استنتاج أن "cild-clāpum" تعني (ملابس الطفل) بالرغم من تغير الهجاء والنطق، كان يطلق على الحرف "þ" "شوكة" وقد استخدم في الإنجليزية القديمة ليدل على الصوت "th" الذي نستخدمه الآن، أما الفعل "bewand" فيعني "wound"(جُرِحَ) مضافا إليه السابقة -be التي اختفت في الوقت الحالي، كما اختفى معها الفعل "bewind"، تعد الكلمة "on" (على) مألوفة لدينا وإن كان من الأجدر في هذا السياق استخدام "in" بدلا منها، أما الكلمة "binne" فتماثل الكلمة الحديثة "bin" (وعاء) ملحقا بها نهاية أخرى، يعني الفعل "lald" "ālegde" (أرقد) مضافا إليه سابقة لم يعد لها وجود، كما قربه هجاؤه من النطق الحديث.

تعني العبارة "pām pe" – التي تعني حرفيا "for that that" (لذلك) – "because" (لأن) أي أن تلك العبارة تماثل كلمة واحدة لم يكن لها وجود باللغة الإنجليزية القديمة، أما الضمير "hīe" فيعني "they" (هم)، نلاحظ العلاقة بين تلك الكلمة وبين الضمير "he" (هو)، وقد اختفت هذه الكلمة أيضا إلا من الشكل "hem" ويعني "them" (لهم) الذي لا يزال يستخدم بالشكل "em" في التعبيرات المكتوبة مثل "Give 'em my regards" (بلغهم تحياتي)، لم تتواجد الأشكال الجديدة مثل "they" (هم) و "them" (لهم) بالإنجليزية القديمة بل تم استعارتها من اللغة النرويجية القديمة – وهي لغة الفايكنج[٢١] – بعد هزيمتهم لإنجلترا واستيطانهم بها وذلك في وقت ليس ببعيد عن كتابة فقرتنا موضوع النقاش، أما التركيب الغريب "næfdon" فيعني "they didn't have" (لا يمتلكون) : إنه اختصار للكلمة النافية "ne" التي تعني "not"(لا)، والفعل "hæfdon" هو التصريف الثاني للفعل "have" (يملك) الذي ما زال قيد

(٢١) القراصنة الإسكندنافيون.

الاستخدام حتى الآن، نلاحظ أن الشكل "rūm" الذى يعنى "room" (حجرة) لم يطرأ عليه تغير كبير اللهم إلا في التهجئة، تعد الكلمة "cumena" اشتقاقا من الكلمة "cuma" التي تعنى "guest" (ضيف) وتظهر بها نهاية أخرى.

يتجلى التشابه بين كلمتي "hūs" و "house" (منزل) بالرغم من تغير النطق بشكل كبير(يستثنى من ذلك أجزاء من أسكتلندا حيث لا يزال استخدام نطق شبيه بالنطق القديم قائما)، بالطبع تساوى العبارة "cumena hūs" "guest house" (ضيف المنزل).

لابد أنك الآن قد استوعبت الفقرة وأدركت أنها تذكر قصة الميلاد كما وردت في إنجيل القديس "لوقا"، وكما جاء في ترجمة الملك "جيمس" فإنها تكون على النحو التالي :

وأنجبت طفلها الأول ودثرته في قماط وأرقدته في المِزْوَد(٣٢) فلم يكن لهم مكان بالحانة، كان في نفس البلدة راعيا يعيش في الحقل وهو الذى دأب على حراستهم ليلاً، يا للعجب فقد فاجأهم ملاك الرب وسطع عليهم بهاء الرب ! وكانوا يقاسون خوفا شديدا.

تعد الفوارق النحوية من أكثر الميزات التي تميز اللغة الإنجليزية القديمة عن مثيلتها الحديثة، قد يتراءى لك اختلاف ترتيب الكلمات في الإنجليزية القديمة وكذلك اختفاء بعض الكلمات مثل أداة التنكير "a" وأداة التعريف "the" في الوقت الذى تكون الحاجة إليهم ملحة في الإنجليزية الحديثة (بدأت تلك الكلمات في الظهور منذ ألف عام فقط)، لكن التميز الواضح يتمثل في العدد الكبير للنهايات النحوية التي تحتويها الإنجليزية القديمة.

إذا سبق لك دراسة اللغة الألمانية الحديثة ستعرف أن هذه اللغة تحتوى كمًا لا حصر له من النهايات، ومن هنا تتشابه الإنجليزية القديمة معها فهي تشتمل على ثلاثة أجناس نحوية، والعديد من فئات الكلمات، والأفعال، وكذا الكثير من النهايات مثلها مثل اللغة الألمانية، إليك نموذج للتركيب القديم "se lange dæg" "the long day" (اليوم الطويل). لاحظ التغير في الصائت "a" بكلمة "day" (يوم) : يمثل "æ" صائتا قصيرا

(٣٢) معلف الدابة .

كالذى بكلمة) "bat" (خفاش) بينما يمثل "a" صائتا طويلا كالذى بكلمة "bar" (قضيب) :

	مفرد	جمع
حالة الرفع	Se lange dæg	Pā langan dagas
حالة الجر	Pæs langa dæges	Pàra langena daga
حالة الديتف (المفعول المباشر)	Pæm langan dæge	Pæm langum dagum
حالة المفعول غير المباشر	Pone langan dæg	Pā langan dagas

للتركيب "lang dæg" "a long day" (يوم طويل) نهايات مختلفة :

حالة الرفع	Lang dæg	Lange dagas
حالة الجر	Langes dæges	Langra daga
حالة الديتف (المفعول المباشر)	Langum dæge	Langum dagum
حالة المفعول غير المباشر	Langne dæg	Lange dagas

أى أن الصفات تشتمل على مجموعتين مختلفتين من النهايات وفقًا لنوع الكلمة التي تسبقها (إن وجدت)، بالطبع هناك العديد من الأصناف الأخرى للأسماء والتى تأتى معها مجموعة نهايات أخرى بخلاف الكلمة "dæg" (يوم)، هل يرضيك ما تم فعله من حذف لكل هذه التعقيدات ؟ حتى إن لم تكن راضيا فمن المؤكد أن يسعد كل من جليسات الأطفال الإيطاليات ورجال الأعمال الصينيين الذين ينكبون على دراسة اللغة الإنجليزية لأنه كل ما سيكون عليهم فعله هو تعلم معني مثل "the long day" (اليوم الطويل) فحسب ليكونوا قد حققوا ما يريدونه بعيدا عن تعلم أشياء معقدة مثل "langes, langum,langan"

السؤال الآن هو : كيف تم لنا التخلص من تلك النهايات ؟وماذا حدث ؟ لم يحدث شيء بعينه لأن اللغة الإنجليزية أخذت في التغير منذ اليوم الذى وصل فيه الإنجل والساكسون بريطانيا أى عام خمسمائة بعد الميلاد، لذا كان من الطبيعى حدوث هذا التغير الهائل بها، يمكن إيجاز هذا التغير فى أنه منذ أن أصبحت النهايات النحوية

أكثر تعقيدا مما سبق كانت الفرصة الحقيقية في حدوث أي تغير ليسهل به الأمر كله، لهذا كان التخلص من، بعض النهايات السبب وراء التخلص من نهايات أخرى وتبع ذلك فقدان العديد والعديد من النهايات حتى أصبحنا لا نمتلك سوى تلك الحفنة من النهايات والمتواجدة بكلمات مثل : "dogs, dog" (كلاب،كلب)، "loving ,loved ,loves ,love" (يحب ويأتي مع الضمائر أنا، أنت، نحن/ يحب ويأتي مع الضمائر هو، هي، غير العاقل/ أحَبَّ/ أُحب) والبعض الآخر القليل، كانت النتيجة أن أصبحت الإنجليزية هي اللغة المحتوية على أقل عدد من النهايات النحوية لتفوق في ذلك أية لغة أوروبية أخرى، إلا أن عدد هذه النهايات أكبر قليلا من اللغة الصينية التي لا تشتمل على أية نهايات، لكن هذا لا يستلزم الجزم بأن اللغة الإنجليزية من أكثر اللغات التي تشبه اللغة الصينية.

سؤالنا الآن هو هل بإمكاننا التخلص من كل النهايات النحوية بصفة نهائية ؟ ربما يتحقق ذلك ولكن التنبؤ بمثل هذا الأمر مستحيل، لأن اللغة تتغير ولكن هذا التغير لا يمكن توقعه، الممكن توقعه بدلا من ذلك هو استحداث بعض النهايات الجديدة.

يمكن تحقق ما سبق ذكره، فكلنا يعرف أن أجداد الصينيين كان لديهم الكثير من النهايات النحوية وجاء أحفادهم بدورهم وتخلصوا من كل تلك النهايات حتى أنهم الآن لا يمتلكون أية نهايات نحوية تميز بين (الكلب والكلاب) على سبيل المثال، أو (يحب وأحب). من ناحية أخرى تخلصت اللغة الهندية[٢٣] – اللغة الرئيسية للهند – من كم كبير من نهاياتها النحوية منذ قرون عديدة مضت وقامت باستحداث مجموعة نهايات أخرى جديدة.

يجدر الإشارة قبل أن نترك الإنجليزية القديمة إلى أن الكم الأكبر من النهايات النحوية قد فقد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقبيل القرن الرابع عشر أصبحت النهايات أقل عددا وأبسط وأكثر قياسية، لابد من وجود سبب معين لذلك.

غزا النورمانديون[٢٤] – متحدثو اللغة الفرنسية – إنجلترا في عام ١٠٦٦ فأصبحت الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد لقرنين متتاليين، كانت الفرنسية تُستخدم في أغلب الأغراض الهامة من قبل الطبقة الحاكمة بينما استمر معظم الناس في الحديث

(٢٣) لغة شمالي الهند الأدبية والرسمية .

(٢٤) أحد فاتحي نورمنديا الإسكندنافيين – الفرنسيين في القرن العاشر .

باللغة الإنجليزية حيث رأوها اللغة الأنسب لهم، وفي هذا الوقت لم يتواجد المعلمون الصارمون الذين يعاقبون تلاميذهم لاستخدامهم النهايات النحوية الخاطئة كما لم يكن هناك كلمات أو تركيبات لها السبق في المكانة عن غيرها لأن الإنجليزية فقدت مكانتها كلية، كانت المحاولة لتعلم الفرنسية التي تتحدثها الطبقة العليا مجرد مضيعة للوقت، ومن هنا كانت الفرصة في حدوث أي تغيرات يسببها متحدثو الإنجليزية سانحة.

على النقيض من ذلك تغير نحو اللغة الإنجليزية في السنوات المائة الأخيرة من القرنين السابق ذكرهما أكثر من ذى قبل نظرا لاحتلال الإنجليزية محل الفرنسية حتى أصبحت اللغة الرسمية لإنجلترا، تبعا لذلك أصبح شغل الناس الشاغل هو التحدث الصحيح لتلك اللغة حتى تليق مكانتهم بمكانة المجتمع الجديد، وفي الوقت الذى أصبحت اللغة أعظم مكانة أصبحت الحاجة إلى التغير أكثر من ذى قبل.

حقيقةً، استمرت الإنجليزية في التغير بثبات على مدى تاريخها ولا زالت تتغير حتى الآن. كانت النتيجة الحتمية لذلك التغير هى جهلنا بالإنجليزية التى استخدمت منذ قرون قليلة، كما أن الإنجليزية التى نستخدمها فى وقتنا الحالى ستصبح مبهمة بالنسبة لأحفادنا، لقد حدثت التغيرات ولازالت تحدث فى كل شكل من أشكال اللغة : النحو، النطق، المفردات، معانى الكلمات، دعونا ننظر فيما يلى إلى بعض الجوانب التى تغيرت عندها اللغة بادئين بأكثر أنواع التغير وضوحا.

إنها كلمة ظريفة، هل تمانع فى اقتراضها ؟

اختفت ما يقرب من ستين بالمائة من مفردات اللغة الإنجليزية القديمة وحلت محلها كلمات أخرى، كما أن العدد الكلى للكلمات الإنجليزية تنامى بشدة منذ انقضاء العهد الإنجليزى القديم : بلغ عدد المفردات الآن مئات الآلاف تقريبا وهو عدد يفوق مثيله فى أية لغة أخرى، فمن أين أتى هذا العدد الكبير من الكلمات ؟

تتوافر العديد من الطرق التى يمكن الحصول من خلالها على كلمات جديدة وأبسط تلك الطرق العملية المسماة بالاقتراض وهى نسخ لكلمات اللغات الأخرى، كان الإنجليز على مدى تاريخهم مقترضين نشطين لكلمات الشعوب الأخرى.

اقترض متحدثو الإنجليزية الأوائل قبل وصولهم لإنجلترا عدداً من الكلمات اللاتينية – التي كانت من أرقى اللغات بأوروبا حينئذ – وكان من ضمنها كلمات اقترضها الرومانيون منذ عهد مبكر من اليونانيين، ذابت تلك الكلمات في اللغة حتى أنه لم يتسن لغير العلماء معرفة أن تلك الكلمات ليست إنجليزية أصيلة ومنها : خمر، صابون، كنيسة، ملاك، شيطان، هلب السفينة، زبد، طباشير، جبن، غلاية، ميل، جنيه، فلفل، شارع، حائط، جوال، مطبخ، وحتى رخيص، كلمات كلها اقتُرضت من اللغة اللاتينية منذ أكثر من ألف وخمسمائة عام.

عندما جاء متحدثو الإنجليزية إلى بريطانيا لأول مرة كانت في ذاك الوقت خاضعة لاستعمار السلتيين(٣٥) – وهم الأسلاف المباشرون للويلزيين والكورنش، اقترضت اللغة الإنجليزية بعض الكلمات القليلة من اللغة السلتية مثل وادى، الغرير(٣٦)، الرمادى القاتم، وعاء القمامة، صليب، الدُّرويد(٣٧)، من ناحية أخرى دخلت اللغة الإنجليزية عدد هائل من أسماء الأماكن السلتية مثل كنت، دفون، كامبريا، لندن، ليدس، يورك، دوفر، كارلسل، كرو، بالإضافة إلى الحروف الأولى من كانتربرى، وكذلك أبردين، جلوستر، ليستر، وينشستر، لينكولن، ساليسبرى، كما أن العديد من الأنهار البريطانية لازالت تحمل أسماء أطلقها السلتيون منذ آلاف السنين ومنها : ثامز، ترنت، سيفرن، واى، أفون، كالدر، دى، درونت، إسك، أوز، تيس، أسك، وغيرها الكثير.

رحل الرومانيون المتحدثون للاتينية عن بريطانيا قبل مجيء الإنجليز إليها بوقت قليل ولكن اعتناق الإنجليز للمسيحية في القرن السابع الميلادى مكن اللغة اللاتينية من دخول البلاد فاقترضت الإنجليزية كلمات لاتينية بأعداد كبيرة ومنها : مدرسة، قانون(قاعدة)، قس، أسقف، هيكل الكنيسة، سيد، موظف كتابى، عضو بالجسم، سترة عسكرية، دائرة، ورق(جريدة)، مذنب، بلور، معبد، شجرة كمثرى، خس (مرة أخرى نلاحظ أن بعض هذه الكلمات يرجع في الأصل إلى اللغة اليونانية).

(٣٥) المتحدثون للغة السلتية وهي مجموعة من اللغات الهندية الأوروبية تشمل الأيرلندية والأسكتلندية والويلزية وهي لا تزال حية حتى اليوم في أيرلندا والشمال الغربي من أسكتلندا وويلز .
(٣٦) حيوان ثديي يحفر جحره في الأرض .
(٣٧) كاهن عند قدماء الإنجليز .

احتل الفايكنج بريطانيا من جهة إسكنديناقا واستوطنوا بها بأعداد كبيرة في القرن التاسع والعاشر، استوعب الإنجليز لغتهم – التي تطلق عليها النرويجية القديمة – لحد كبير، كما أنهم لم يترددوا في اقتراض ما يفوق المئات من كلماتها مثل : جوقلة، نافذة، ينظف، سماء، يعطي، يأخذ، يصبح، يضرب، يركل، يبعثر، نفاية، قُشرة، يعبس(عُبوس)، يحقق، رفيق، يريد، بشرة، سكين، قانون، سعيد، قبيح، خطأ، وكذلك الضمائر هم ولهم، تبدو هذه الكلمات وكأنها كلمات إنجليزية ولكن لاحظ أن وجود العنقود الصوتي بكلمة ما (sk) أو(sc) يدل على أنها كلمة إسكندنافية بما أن الكلمات الإنجليزية لا تضم مثل هذه العناقيد الصوتية، (يروي الكاتب أن أسلافه جاءوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية من إسكتلندا بينما يدل لقبه "Trask" على حتمية رجوع أصله إلى الفايكنج، تعني الكلمة träsk مستنقع أو بحيرة صغيرة في اللغة النرويجية)، كذلك قدم الفايكنج عدداً كبيراً من أسماء الأماكن لإنجلترا مثل : جريمسبي، دربي، وايتبي، كروسبي، روجبي، سكنثورب، لويستوفت، بريكبك.

نستنتج مما سبق أنه قبل ظهور الفقرة القديمة التي ذكرناها في بداية الفصل، قامت الإنجليزية بالفعل باقتراض آلاف من الكلمات من اللغة اللاتينية والسلتية والنرويجية القديمة والتي يظهر القليل منها في تلك الفقرة، لكن هذا الاقتراض يعد شيئا لا يذكر بالمقارنة بما حدث للغة الإنجليزية بعد ذلك، سبق أن تحدثنا عن احتلال النورمانديين المتحدثين للفرنسية لإنجلترا عام ١٠٦٦ وكيف أصبحت الفرنسية اللغة الرسمية للبلاد لمدة قرنين من الزمان، وبمرور الوقت تخلى أحفاد النورمانديين بعد عدة أجيال عن لغتهم من أجل اللغة الإنجليزية، وفيما بعد اقترضت الإنجليزية آلاف الكلمات التي تعد من أعظم الكلمات الفرنسية مكانة فأدى ذلك إلى تحول مرادفات اللغة تماما.

نتيجة لكل هذه الظروف نجد أن الكلمات التي تم اقتراضها من النورمانديين تتصل كلها بأمور الحرب والإدارة والتنظيم الاجتماعي والقانون ومنها : حكومة، قلعة، خدمة، محامي، رئيس الوزراء، جريمة، محكمة، دولة، ضيعة، قاضي، هيئة المحلفين، نقيب، ملازم أول، رقيب، جندي، حاكم، نبيل، ملكي، أمير، دوق، بارون، وتم اقتراض كلمات أخرى مرتبطة بكل منحى من مناحي الحياة : لحم البقر، لحم الغنم، لحم العجل، يشوي(مشوي)، يقلي، يسلق، الطهي بنار هادئة، فاكهة، لون، شفقة، فضيلة، شرف، شجاعة، لغة، جملة، سؤال، أدب، حرف(خطاب)، معهد، أحمق، مرعب، مرآة، ذكر، أنثى، كرامة، ثاني، لطيف، بطل، تهمة، فحص، عفيف، وغير ذلك، في الحقيقة من

المستحيل عمليا تركيب أى جملة إنجليزية دون استخدام أحد تلك الاقتراضات الفرنسية التى ترجع فى الزمن إلى العصور الوسطى، فحتى كلمة (وجه) ترجع إلى الفرنسية النورماندية وقد حلت محل الكلمة الإنجليزية "anleth" التى اختفت بين عشية وضحاها.

استعادت اللغة الإنجليزية – قبل حلول عام ١٤٠٠ – نفوذها على اللغة الفرنسية بإنجلترا وبدأت الاقتراضات الضخمة من تلك اللغة فى التراجع شيئا فشيئا ليس إلى العدم ولكن إلى قدر متواضع بالمقارنة بما سبق، لم يمنع هذا متحدثى الإنجليزية من إخفاء إعجابهم بكلمات فرنسية مثل : حساء، شرطة، نزهة، هاو، الجادّة[٣٨]، ذواقة، الكوريشيه(شغل الإبرة)، أنقاض، جسم الطائرة، جراج، مكشوف أو غير محتشم، هدية تذكارية، لباقة اجتماعية، مطعم، قائمة الطعام فى مطعم، رد دال على حضور البديهة، سيجارة، فارق دقيق، فن الباليه، البيريه، قهوة، كلمات كلها تم اقتراضها فى غضون القرنين أو الثلاثة قرون الماضية.

عوض انخفاض معدل الاقتراض من اللغة الفرنسية بالاقتراض المستمر من لغات شتى أخرى فى العالم، نجد أن متحدثى الإنجليزية بشمال أمريكا اقترضوا عدداً من كلمات اللغات الهندية المحلية مثل: التّيبَة[٣٩]، الوَغَم[٤٠]، التّـمْهُوك[٤١]، الظربان الأمريكى[٤٢]، الراكون[٤٣]، المُقسين[٤٤]، الطُّوْطَم[٤٥]، البَميكان[٤٦]، وأخذوا كذلك عدداً ليس بالقليل من أسماء الأماكن مثل ماساشوسيتس، كُونَكْتكَت، ميسيسبى، إلِنُويس، ميتشجن، إيرى، شيكاجو، أما الأسبانيون والبرتغاليون الذين استوطنوا فى الجنوب فقد اقترضوا كلمات لاحصر لها وجدت طريقها إلى اللغة الإنجليزية منها : تبغ،

(٣٨) شارع عريض تكتنفه الأشجار .
(٣٩) خيمة مخروطية الشكل من الجلد ، من خيام الهنود الحمر .
(٤٠) كوخ بيضاوى أو مستدير الشكل عند هنود أمريكا الحمر .
(٤١) فأس يصنعها الهنود الحمر كسلاح وأداة .
(٤٢) حيوان ثديى صغير نتن الرائحة .
(٤٣) حيوان شمال أمريكى ثديى من اللواحم .
(٤٤) أفعى سامة .
(٤٥) شيء كحيوان أو نبات يتخذ رمزا للقبيلة .
(٤٦) طعام مركز من أطعمة هنود أمريكا الحمر يتكون من لحم مفروم مقدد ممزوج بالدهن المذوّب .

إعصار، قارب، أرجوحة شبكية، طماطم، بطاطس، شيكولاتة، كاكاو، ذرة، حفل شواء في الهواء الطلق، السفانا، فلفل حريف، اللامة(٤٧)، الدَّغوْر(٤٨)، القَيّوط، الكوكا سواء كان المقصود بها الكوكايين أو المشروبات الغازية، اقترض مستوطنو أستراليا ونيوزيلندا بدورهم كلمات مثل الكنغر، الوابْ(٤٩)، البمرنج، الومْبَت(٥٠)، الكيوى(٥١)، الكوال(٥٢)، الطائر الطيب(٥٣)، الكَورِي(٥٤) من اللغات الأهلية.

اقترض البريطانيون الذين استقروا بالهند كلمات مثل: الرَّاجا(٥٥)، الكارى، النُّواب(٥٦)، السُّباهى(٥٧)، الكولى(٥٨)، الشُّيروت(٥٩)، البَنْغَل(٦٠)، الدُّنْغرى(٦١)، النَّمس، البنش وهو شراب مسكر، الصاحب(٦٢)، المنديل الكبير، العمل غير المتقن، الفهد الصياد، الغابة، البيجاما، السفاح، الكشمير، وحتى شامبو، أما مستوطنو جنوب إفريقيا ، فقد اقترضوا كلمات جيرانهم الأفارقة مثل: خنزير الأرض(٦٣)، المربع ذى الأشجار المتناثرة، أثر الحيوان، الهجرة الجماعية بواسطة عربة الثيران، ومن بعض اللغات المحلية الأهلية أخذوا كلمات مثل: "impi" (أنصار الحرب) و"indaba" (مؤتمر).

(٤٧) حيوان جنوب أمريكي كالجمل الصغير بدون حدبة .
(٤٨) نمر أمريكي استوائي .
(٤٩) كنغر صغير .
(٥٠) حيوان أسترالي شبيه بدب صغير .
(٥١) طائر لاجناحي من طيور نيوزيلندا .
(٥٢) حيوان أسترالي من ذوات الكيس .
(٥٣) ببغاء أسترالية .
(٥٤) شجر من الفصيلة الصنوبرية .
(٥٥) أمير هندى .
(٥٦) شخص ذو ثروة أو مكانة عظيمة .
(٥٧) هندى مجند فى الجيش الإنجليزى .
(٥٨) حمال أو عامل غير بارع .
(٥٩) ضرب من المسكرات .
(٦٠) بيت من طابق واحد وخاصة فى الريف أو على شاطئ البحر .
(٦١) نسيج قطنى خشن .
(٦٢) لقب بمعنى سيد يخاطب به الهنود شخصا أوروبيا ذا مكانة اجتماعية أو منصب رسمى .
(٦٣) حيوان ثديى إفريقى من آكلات النمل .

أما عن باقي اللغات التى اقترضت الإنجليزية من كلماتها فحدِّث ولا حرج، فمن الهولندية اقترضت كلمات: رئيس، رصيف الميناء، ثنية الشراع، البراندى[٦٤]، يخت، فخ(محلج للقطن)(الجن)، سلطة الكرنب، ومن الإسبانية: كتلة ضخمة من الذهب أو الفضة في منجم، سياج الخيل، رصيف، بعوضة، الشيرى[٦٥] فرار أو اندفاع مفاجئ للناس أو الحيوانات، ومن الألمانية: يسلب، روضة أطفال، الهَمَسْتَر[٦٦]، رقصة الفالس أو موسيقاها، أحد أنواع البسكويت، البُوْدِل[٦٧]، حقيبة تحمل على الظهر، بيرة، ومن الإيطالية: كمان، الأوبرا، السباغيتي(مكرونة طويلة ورفيعة)، لحن يؤديه مطربان أو ملحنان، كرنفال، بحيرة مالحة تفصلها الصخور المرجانية أو الحواجز الرملية عن البحر، استوديو، مظلة، ومن العربية: الكحول، علم الجبر، فراش السرير، سفاح، الحريم، شربات، تعريفة، ومن الصينية: شاى، صلصة الطماطم(كاتشب)، الجنسة[٦٨]، التيفون[٦٩]، البرتقال الذهبي، ومن اللغات الباسيفكية الشيء المُحَرَّم، الوشم، الأُكلال[٧٠]. من اللغات الأفريقية اليام[٧١]، موز، البانجو من الآلات الموسيقية، غوريلا، سحر، وكذلك الكلمة الإنجليزية الأكثر شهرة مازال الباحثون في جدال حول أصل هذه الكلمة، ولكن رجوعها إلى أصل إفريقي من أكثر الآراء قبولا).

كما اقترضت كلمة الزبادى من اللغة التركية، والخيرزان من المالية، والسهب[٧٢] من الروسية، وقافلة (عربة مغطاة تصلح للإقامة) من الفارسية، ومزلج الخشب وهو أحد أداتي التزحلق على الجليد من النرويجية، والمائدة الشطائرية[٧٣] من السويدية، وعربة تجرها الخيول من المجرية، ومربى البرتقال من البرتغالية، ونبات القرفة من

(٦٤) شراب مسكر .
(٦٥) خمر أسبانية الأصل .
(٦٦) حيوان من القوارض شبيه بالجرذ .
(٦٧) كلب ذكي كثيف وأجعد الشعر .
(٦٨) نوع من العشب .
(٦٩) إعصار إستوائي في منطقة الفلبين أو بحر الصين .
(٧٠) قيثارة برتغالية الأصل .
(٧١) نوع من البطاطا .
(٧٢) سهل واسع خالي من الأشجار .
(٧٣) ضرب سويدى من الغداء أو العشاء .

العبرية، والفضولي من اللغة الييدية[٧٤] والويسكي، من سكوتس جاليك[٧٥] وزانف من الأيرلندية، السونا من الفنلندية وكما أنه في الأونة الأخيرة زاد الإقبال على اقتراض الكلمات اليابانية، فأضيفت كل من السومو[٧٦]، والكاسيت الصغير المحمول إلى قائمة الاقتراضات القديمة التي كانت تحوي كل من : الغايشة[٧٧]، الهراكيري[٧٨]، الجودو[٧٩]، السوكيياكي[٨٠]، الكيمون[٨١]

تمثل الغالبية العظمى من تلك الكلمات عناصر جديدة، فمتحدثو الإنجليزية لم يسبق لهم رؤية البطاطس أو زلاجات الجليد أو الزبادي أو البمرنج قبل أن يشهدوها خارج بلادهم ثم يلحقوها بأسمائهم، مثلهم في ذلك مثل الأجيال الأولى التي لم تر القلاع أو المنشآت التعليمية قبل الغزو النورماندي، وإذا بعدنا بالزمن أكثر تصل إلى أشياء لم يعهدها الإنجليز القدامى مثل الأساقفة أونيات الخس، ولكن لا يعد هذا السبب الوحيد الذي تُقترض من أجله الكلمات، فقد تضمنت اللغة الإنجليزية القديمة كلمات دالة على (اللغة) و(الإناث) و(الوجه) وتم استخدامها على الوجه الأمثل ولكن كل ماحدث هو أن المكانة العظمى للغة الفرنسية في ذلك الحين حثت العديد من متحدثي اللغة الإنجليزية على استخدام كلمات فرنسية في حديثهم على أمل أن يكون ذلك الحديث أكثر لياقة، بالرغم من فقدان الفرنسية لتلك المكانة إلا أنك قد تعرف شخصاً ما لا يكف عن خلط حديثه الإنجليزي أو كتابته بكلمات وعبارات فرنسية مثل "au contraire" (بالعكس)، "joie de vivre" (جمال الحياة)، "au naturel" (في الطبيعة)، "fin de siècle" (نهاية القرن)، "dernière" (الأخير).

(٧٤) لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود في الاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الوسطى، تكتب بحروف عبرية .

(٧٥) لغة مستخدمة في شمالي إسكتلندا .

(٧٦) أحد أنواع المصارعة اليابانية .

(٧٧) مطربة وراقصة يابانية .

(٧٨) طريقة يابانية للانتحار ببقر البطن بخنجر تخلصا من العار .

(٧٩) ضرب حديث من المصارعة اليابانية .

(٨٠) طعام من لحم وخضر وبصل يقدم في المطاعم الأمريكية اليابانية .

(٨١) ثوب فضفاض يرتديه اليابانيون .

تختلف قليلا حالة الكلمتين "perestroika"، "glasnost" ، وهما كلمتان من اللغة الروسية بدأتا في الظهور على شاشات التليفزيون وفي الصحف اليومية في وقت خمود الثورة بالاتحاد السوفيتي السابق، تعني هاتان الكلمتان "restructing" (إعادة بناء) و "openness" (فتح) ولكننا- برغم استخدامنا للكلمات الإنجليزية المساوية لهما في المعنى - فضلنا اقتراضهما من اللغة الروسية (لنقل فضل ذلك الصحفيون) لتوضيح أن الحديث لا يقصد به أية "إعادة بناء" أو أي "فتح" بل ذلك البناء والفتح الذي يحدث في الاتحاد السوفيتي بصفة خاصة.

لا تعد الإنجليزية اللغة الوحيدة التي تقترض من كلمات اللغات الأخرى، لأن كل اللغات يحدث بها هذا الاقتراض بل إن كثيرا منها اقترض مؤخرا أعدادا كبيرة من الكلمات الإنجليزية وهذا ما سوف نناقشه بالفصل الثامن.

دعونا - قبل أن نترك موضوع الاقتراض - نوضح أنه يمكنك اقتراض كلمات لا تنتمي إلى اللغة التي يُعتقد أنها اللغة المُقترض منها، فعلى سبيل المثال اقترضت الإنجليزية عبارة "nom de plume" (اسم مستعار) من اللغة الفرنسية ولكن هذه العبارة لم يكن لها وجود بالفرنسية وقت أن اقترضناها، إنها اختراع إنجليزي، بالمثل ردت الفرنسية ما فعلته الإنجليزية باقتراضها للكلمة الإنجليزية "footing" (أساس) لتعني هذه المرة السير الوئيد وهي اختراع فرنسي.

المثال المفضل الذي يصلح في مقامنا هذا هو تلك الحكاية التي يذكرها اللغوي الأمريكي "شارلز هوكت" قائلا أن أبا فلبينيا أطلق على ابنه - أثناء الاحتلال الأمريكي للفلبين - اسم "Ababils" نسبة للقديس الراعي للولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هذا الشخص لم يكن له وجود في ذلك الوقت، إذن ماذا حدث ؟

كانت الفلبين مستعمرة إسبانية تتحدث فيها اللغة الإسبانية على نطاق واسع، في الإسبانية تستخدم كلمة "saint" (قديس) للدلالة على القديس الرجل بصفة خاصة ومن هنا جاءت أسماء أماكن مثل سان فرانسيسكو، سان جوزيه، سان دييجو، لاحظ الأب الفلبيني أن الجنود الأمريكيون - في أوقات الشدة - اعتادوا النداء على قديسهم بالاسم "San Ababis" أو ما يشابه ذلك.

لا ينطق الصوت "H" فى أغلب كلامنا

لم تكن المفردات الإنجليزية هي العنصر الوحيد الذي تغير في السنين الألف الأخيرة، فقد حدث تغير فجائي في النطق وإن كان يصعب تعيينه والتعرف عليه من النصوص المكتوبة، بما أن الوقت لن يسعنا هنا لمناقشة كل التغيرات الرئيسية التي طرأت على النطق، فدعونا نفحص بدقة تغيرا وحيدا ذلك المتمثل في القصة المدهشة الخاصة بالصوت "H" .

كان الصوت "H" من الصوامت الشائعة التي يتكرر مجيؤها في أي موضع بالكلمة، إليك بعض الأمثلة : "habban" (يملك)، "hiw" (لون)، "hit" (هذا – للجمادات)، "heah" (مرتفع)، " "hehpu" (ارتفاع)، "behindan" (خلف)، " "hnutu" (بندق)، "hn ppian" (يغفو لفترة قصيرة)، "hr fn" (الغداف)[٨٢]، "hring" (جرس)، "hlud" (عال) "hlaf" (رغيف)، "hlaford" (رب)، " ("hl fdige" (سيدة)، "hwit" (أبيض)، "hwœt" (ماذا)، "niht" (ليل)، "beorht" (ساطع)، "fyrhtan" (يخيف)، "leoht" (ضوء)، "tahte" (تعلم)، "hlæ hhan" (يضحك)، "ruh" (عنيف)، "syhö" (يرى)، "seah" (رأى)، "purh" (عبر). كان الصوت "H" ينطق في كل هذه الكلمات بشكل ملحوظ فلم يكن مرققا أو لطيفا بل كان قويا يشبه التركيب الألماني "CH"، والإسباني "J"، والعبري "CH"، والهولندي "G" ، لا زال هذا الصوت القديم مستخدما في الكلمة الأسكتلندية "loch" (بحيرة) المستعارة من لغة سكوتس جاليك.

كان الصوت "H" قديما – في اعتقادنا – يُنطق مخففا عند مجيئه في بداية الكلمة كنطقنا له في الوقت الحالي، وهذا لم يمنع نطقه بقوة أكثر عندما يقع في غير موقعه السابق ذكره، كانت هذه فقط البداية، فبعد الغزو النورماندي بوقت قصير بدأ متحدثو الإنجليزية فعل الشيء الذي ربما يعتبره معلمو اللغة الإنجليزية المتشددون – إن تواجد منهم أحد – خطأ فادحا وهو إسقاط الصوت "H".

سنبدأ أولا بالصوت "H" المتبوع بالأصوات "l, r, n"، بدأت الكتابة بالإنجليزية بعد الغزو على نحو واسع وتزامن ذلك مع إسقاط الصوت "H" تماما من كلمات مثل

(٨٢) طائر أسود كالغراب .

"loud" (مرتفع)، "ring" (جرس)، "nut" (بندق) ولم يحاول أولئك المعلمون المتشددون إثناءنا عن هذا الفعل، ظل الصوت نفسه في كلمات أخرى في الوقت الذي تغيرت فيه قواعد النطق الإنجليزية.

أولا : استبدلت التهجئة القديمة "hw" بأخرى جديدة وهي "wh"، لذا أصبحت الكلمتان "hwit" "hwaet" تكتبان على الشكل "white" (أبيض) و "what" (ماذا).

ثانيا : أصبح الصوت "H" الذي ينطق بقوة في وسط ونهاية الكلام يكتب على الشكل "gh"، لذا كان الصوت "H" ينطق بقوة في كلمات مثل "light" (ضوء)،"bright" (ساطع)، "night" (ليل)، "laugh" (يضحك)، "rough" (عنيف)، "through" (خلال).

لكن سرعان ما بدأ إسقاط الصوت "H" بأعداد أكثر عندما ترسخت قواعد النطق الجديدة باللغة، ففي أثناء القرن الخامس عشر بدأت كل الأصوات التي تنطق "gh" تسقط من النطق، وقبل حلول القرن السادس عشر كانت قلة من الفلاحين والمتحذلقين لا يزالون ينطقون الصوت "H" في كلمات مثل "night" (ليل)، "through" (خلال). فيما عدا أسكتلندا حيث تمسك الناس بالنطق القديم لمدة طويلة، حدث شيء غريب في بعض الكلمات القليلة : استبدل الصوت "H" بالصوت "F" ربما لتشابه هذين الصامتين أو لأن بعض الناس الذين لا ينطقون "H" أخطئوا السمع واعتقدوها "F"، لذا فإن السبب وراء النطق الحديث غير المتوقع للصوت "H" وكأنه "F" في كلمات مثل "rough" (عنيف)، "laugh" (يضحك) ما هو إلا خطأ في أصله.

يشكو معلمو اللغة الإنجليزية في الوقت الحاضر من إسقاط صوت "H" بلا ضوابط، إننا نتوقع تعرض بعض التلاميذ للعقاب بسبب ذلك ولكن لا جدوى من ذلك، فما زال الإسقاط مستمرا بحيث لم يبق لنا سوى أصوات قليلة لا تنطق في كلمات مثل "night" (ليل)، "taught" (تعلُم)، "through" (خلال) تذكرنا بنطق أجدادنا لذلك الصوت منذ خمسمائة عام.

لا يمكننا القول بأن اللغة الإنجليزية قد تخلصت من صوت "H" في جميع كلماتها حيث لا تزال هناك الكثير من الكلمات التي تحتوي على هذا الصوت ومنها : "he" (هو)، "him" (له)، "her" (ملكها)، "which" (أي)، "why" (لماذا)، "where" (أين)، "whether" (إن، إذا)، كانت تأتي هذه الكلمات قديما بصفة متكررة غير منبورة وفي

هذه الحالة كان صوت "H" لا ينطق بها، ولا يحدث هذا إذا كانت متبورة، بقي هذا التنوع قائما لقرون عدة وإلى عصرنا هذا ما زال أغلب المثقفين يقولون (لا يكتبون) أشياء مثل "What did ' e (he) give ' er (her)?" (ماذا أعطاها ؟). يفقد الضمير "hit" (هذا لغير العاقل) الصوت "H" لأنه يأتي دائما غير منبورمما جعلنا نعتاد شكله هذا منذ قرون مضت "It" .

لا ينطق الشخص المثقف الصوت "H" في كلمات مثل "vehicle" (عربة)، "annihilate" (يفنى) لعدة أجيال. في الولايات المتحدة الأمريكية يتم نطق الصوت "H" في بداية الكلمة على أن الناطق لم يتلق القدر الكافي من التعليم ويحاول الحديث بشكل لائق، تكمن المشكلة في المقطع غير المنبور الذي يأتي في بداية الكلمة. فكلمات مثل: "historical" (تاريخي)، "hotel" (فندق) تفقد الصوت "H" فتكون "istorical"، "otel" عندما تسبقها أداة التنكير "an" ، ومن هنا تحاشي معظم المتحدثين النجباء ذلك بأن استخدموا مع هذه الكلمات أداة التنكير " a" فأصبحت "a historical novel رواية (تاريخية)،"a hotel" (فندق).

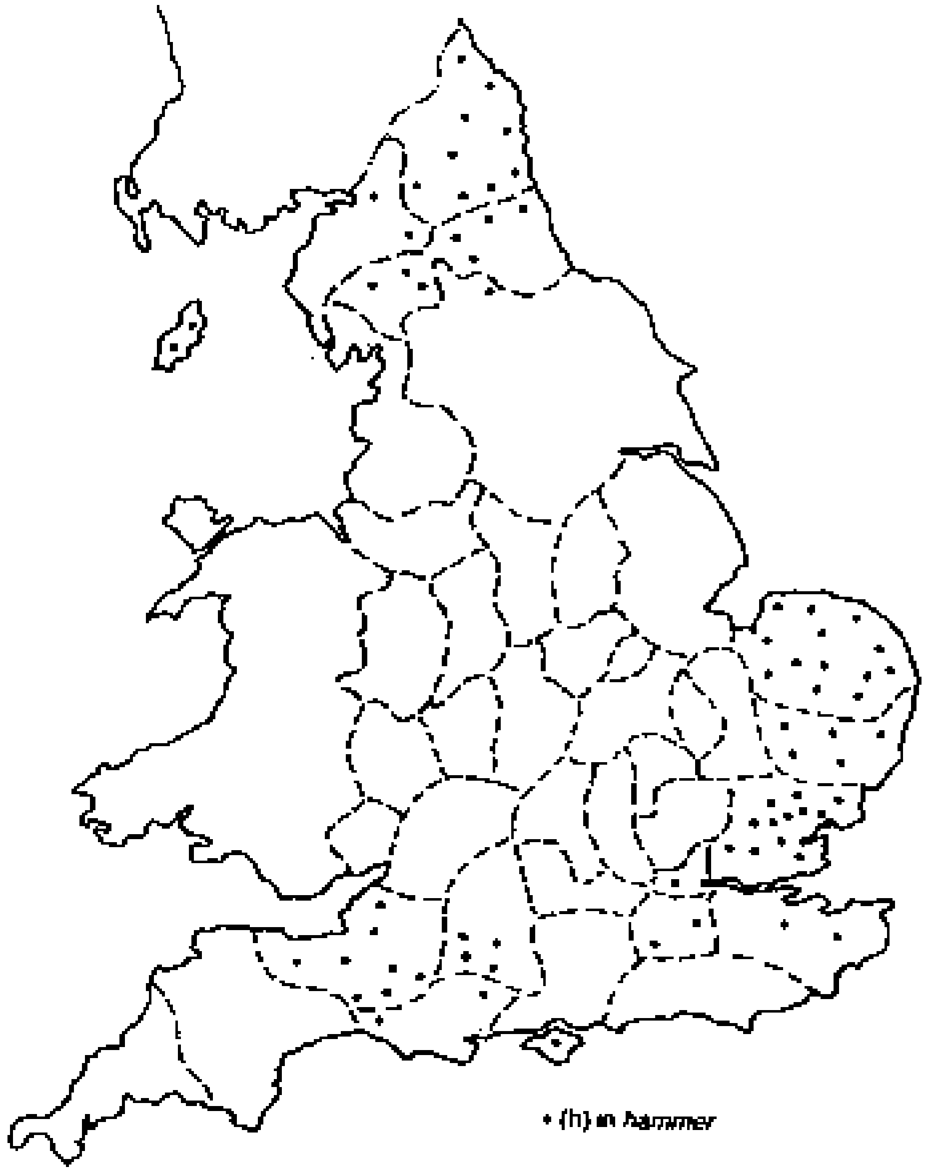
في إنجلترا بدأ الصوت – "H" في القرن التاسع عشر – في الاختفاء من كل الكلمات التي تبدأ بالتركيب "wh" (والتي بالطبع تنطق hw)، وأصبح المتحدثون النجباء بإنجلترا ينطقون الكلمات الآتية دون صوت : "H" "which" (أي)"witch"، "whales" (حيتان) "wales"، "whine" (أنين)"wine" ، بالرغم من ذلك لا زال هناك اعتقاد جماعي لا يرقى إلى مرحلة القوة يذهب بأن النطق باستخدام الصوت "H" يبدو أكثر أناقة، كما أنه لا زال هناك القليل من معلمي الخطابة بإنجلترا يحاولون تعليم تلاميذهم بأن يقولوا أشياء مثل "hwich"، "hwales" في وقت أصبح فيه هذا النطق مجرد تكلف من الطراز القديم.

بينما ينتبه المتحدثون النجباء إلى مثل هذه الأمور نجد النسبة السائدة من سكان إنجلترا يعمدون إلى إسقاط الصوت "H" في كثير من المواقع الهامة، تحديدا بدأ بعض المتحدثين إسقاطه في كل كلامهم ولم يعودوا ينطقونه على الإطلاق، فأصبحت "hair" (شَعْر) تنطق مثل "air" (هواء)، "hear" (يسمع) مثل "ear" (أذن)، "harm" (ضار)

مثل "arm" (يد)، هناك أدلة واضحة تؤكد أن مثل هذا النطق كان موجود فعلا منذ قرون – فعلى سبيل المثال كان كل من شكسبير ومارلو يتفكهون على هذا النطق في القرن السادس عشر، كما اعتقد عالم اللغة جيمس ميلروى احتمالية استخدامه منذ العصور الوسطى.

مازال المتحدثون النجباء سالفو الذكر لايعيرون اهتماما إلى هذه الحقيقة (الغالبية العظمى من المتحدثين في إنجلترا أسقطوا الصوت "H" نهائيا من كلامهم)، توضح الخريطة رقم (٥–١ لعام ١٩٦٠) المناطق الثلاث المحدودة المساحة بإنجلترا والتي مازال سكانها يستخدمون الصوت "H" في لغتهم الدارجة، من الملاحظ أن هذه الخريطة مبالغة في نتائجها فهي توضح أن مدينة النرويش تولي اهتماما كبيرا للصوت "H" مع أنها في الحقيقة لا تعبأ به الآن مطلقا، أما أغلب المتحدثين بإنجلترا (وكذلك ويلز) لا ينطقون الصوت "H" في كلمات مثل "hair" (شَعْر)، "head" (رأس) ليتساويا بذلك مع كلمتي "light" (ضوء)، "loud" (عال).

بالرغم من التوسع في إسقاط الصوت "H" إلا أن ذلك يعد أمرا مستهجنا عند البعض، فمتحدثو الطبقة الوسطى لايزالون يحرصون على البقية الباقية من ذلك الصوت حيث نجد أي متحدث عادي يطمح في الحصول على مهنة ذات قيمة ما عليه إلا الحفاظ على نطق الصوت "H" في كلامه لأن الاتجاه السائد في إنجلترا الآن هو اعتبار الشخص غير متعلم إذا أغفل ذكر ذلك الصوت، تذكر أنه حتى معلمي الإنجليزية الصارمين لم يحاولوا استيعاد الصوت المفقود في كلمات مثل "light" (ضوء)،) "it" (هذا لغير العاقل) أو حتى "which" (أي)، يتركز الأمر برمته على الصوت " H" الذي ينطق في كلمات بعينها منذ أجيال قليلة مضت، ذلك النطق الذي يكفل لصاحبه أن يكون إنسانًا ذا مكانة.



شكل (٥-١)

مناطق إنجلترا التى ينطق بها صوت"H"

صوت "H" في كلمة "hammer" مطرقة

السؤال الآن هو : إلى أين ستنتهي قصة الصوت "H" بإنجلترا ؟ ما من أحد يعرف إجابة لهذا السؤال، ولكننا نساند جانب التخلي عن ذلك الصوت؛ ففي اعتقادنا أن هذا الإسقاط يقف خلفه تاريخ طويل وأنه سيواصل انتشاره حتى لا يبقى سوى حفنة من الذين ينطقون هذا الصوت ضمن كلامهم، والذين سيذهبون لا محالة وستذهب معهم آخر "H" .

إذا ثبت خطأ توقعنا السابق فسيكون ذلك بسبب التأثير المستمر للإنجليزية الأمريكية، لم يعرف إسقاط للصوت "H" في شمال أمريكا وأسكتلندا وأيرلندا وبلاد نصف الكرة الجنوبي – في كلمات مثل "hair" (شَعْر)، ("head" (رأس)، ربما كان هذا الاهتمام بنطق ذلك الصوت هو السبب الذى جعل المتحدثين بإنجلترا يتجهون نحو التخلي عن البقية الباقية من هذا الصوت، لكن من الصعب الجزم بهذا الأمر لسبب واحد وهو ملاحظة اللغويين الأمريكيين – منذ عقدين أو ثلاثة – إسقاط الصوت "H من الكلمات التي تبدأ بالصوتين -wh مثل "where" (أين) و "whine" (أنين)، كما أنهم حددوا ثلاثة مناطق ينتشر بها هذا الإسقاط حينئذ، سرعان ما بدأ هذا الإسقاط في الانتشار عبر البلاد بسرعة مذهلة، وقد أفاد اللغوى الأمريكي "وليم برايت" مؤخرا أن القليل من كبار السن هم الذين ينطقون الصوت "H" في الكلمات "where" و "whine يعقب الكاتب أن هذا الأسلوب الحديث انتشر في قرى بعيدة مثل "كاتاروجس"– القرية التي ولد بها، فبينما ينطق هو الصوت "H" في تلك الكلمات لا ينطقها أخواه اللذين يصغرانه سنا .

كذلك لم تظهر أية علامات دالة على إسقاط الصوت "H" في كلمات إنجليزية أمريكية مثل "hair" (شَعْر) و "head" (رأس)، ولكننا لن نصاب بالدهشة إذا قرأنا مقالا في أحد الصحف اللغوية التي ستصدر في غضون السنوات القليلة القادمة يخبرنا بظهور إسقاط لذلك الصوت في تلك الكلمات بكل من "ألبوكورك" و"نولوث" و"شاتانوجا".

تبين قصة الصوت "H" عددا من النقاط الهامة بشأن الطريقة التي يسير بها تغير اللغة:

١ – من المحتمل أن يؤثر التغير على حالات معينة في البداية ثم يمتد تأثيره إلى حالات أخرى، رأينا إسقاط الصوت "H" بداية إذا وقع قبل الأصوات "l, r, n" ثم

سرعان ما امتد إلى كل الأصوات فيما عدا تلك المتبوعة بصوت صائت أو بالصوت "w" ثم تبع ذلك المقاطع غير المنبورة والصوت "H" المتبوع بالصوت "w" وأخيرا امتد إلى البقية الباقية.

٢ – **ينتشر التغير تدريجيا فوق إحدى المناطق الجغرافية**، توضح الخريطة بالشكل (٥–١) أن الخطوة الأخيرة في إسقاط الصوت "H" بدأت من بعض المناطق حتى انتشرت في أغلب أنحاء إنجلترا فيما عدا ثلاثة أنحاء متفرقة أطلق عليها المناطق القديمة والتي لم يظهر بها التغير حتى الآن، توضح المعلومات من مدينة النرويج أن انتشار إسقاط الصوت "H" مازال مستمرا، كما تذهب المعلومات من أمريكا إلى أن إسقاط الصوت "H" من الكلمات التي تبدأ بالصوتين -wh بدأ في الانتشار تدريجيا من ثلاث مناطق رئيسية.

٣ – **ربما يؤثر التغير على متحدثين بعينهم في مجتمع ما في البداية ثم ينتقل بعد ذلك إلى الآخرين، أثناء ذلك يكون التجديد شيئا مستهجنا**، يطلق اللغويون على هذه الحالة الشائعة التغير السفلي : هو تجديد يظهر بالتنوعات المنخفضة المكانة ثم يستهجنه المتحدثون الآخرون في بداية الأمر وبمرور الوقت ينتشر هذا التنوع عبر طبقات المجتمع حتى يصبح معيارا وفي المقابل يعتبر الشكل القديم مستهجنا، يبدو هذا الأمر وكأنه حدث في شأن إسقاط الصوت : "H" تذكر أن إسقاط هذا الصوت من كلمات مثل "light" (ضوء) قاومه المدعون للعلم ثم أصبح معيارا بعد ذلك بينما اعتبر إسقاط ذلك الصوت من الكلمات التي تبدأ بالصوتين - wh شئًا مبتذلاً في البداية ولكنه أصبح الآن شأن المثقفين بإنجلترا.

هناك حالة تتشابه مع إسقاط الصوت "H" بل تتفوق عليها ألا وهي إسقاط الصوت " r" بدأ بعض المتحدثين بإنجلترا منذ قرنين في إسقاط الصوتين "rs" اللذين لا يتبعان بصوائت من جميع كلماتهم، لذلك أصبحت "farther" (أبعد) مشابهة الكلمة "father" (أب)، وكذلك "pore" (مسام الجلد) و "paw" (مخلب)، اعتبر إسقاط الصوت "r" في بداية الأمر ولمدة طويلة جهلا ولكنه بالرغم من ذلك انتشر إلى أن أصبح المعيار بإنجلترا، يعد إسقاط ذلك الصوت الآن ضربا من اللياقة كما اعتبر المتحدثون الذين يتمسكون بنطقه في غرب البلاد فلاحين سذج – مثلما اقترح الكاتب فيما سبق أن ناطقي الصوت "H" مستقبلا سيعدون من الفلاحين السذج.

٤ – **يعد التغير الآخذ في التزايد تنوعا**، إن التنوع القائم بين نوعي الكلام (النطق الكامل للصوت "H"، التخلي عن ذلك النطق) ما هو إلا نتيجة لاختفاء ذلك الصوت الذي كان متواجدا لقرون، تمثل العديد من أمثلة التنوعات المذكورة بالفصل الرابع تنوعات آخذة في الازدياد.

باستطاعتنا ملاحظة اللغة وسماعها وهي تتغير، بالرغم من أنه ربما لا يتسنى لنا معرفة أن ما نشهده هو التغير الآخذ في الازدياد، يطلق اللغويون على التغير الذي يمتد لأجيال عديدة – كإسقاط الصوت "H" باللغة الإنجليزية – الاتجاه التطور اللغوى أي اتجاه اللغة نحو التغير المستمر في اتجاه واحد، يترتب على كل من التغير البطيء طويل المدى كإسقاط الصوت "H"، وكذا التغيرات المفاجئة كاكتساب الكلمات الجديدة – نتائج ملحوظة وهي ما سوف نناقشه فيما يلي.

من أين أتت اللغة الإنجليزية ؟

عندما استوطن الأنجلوساكسون إنجلترا في بادئ الأمر منذ ألف وخمسمائة سنة مضت تواجدت بعض التباينات الإقليمية بالفعل في كلامهم ولكنها لم تكن تباينات حادة، تراكمت تباينات أكثر بمرور الوقت، فقد كان أي تحديث يجري في منطقة ما لا يلبث أن ينتقل – في أحيان كثيرة – إلى مناطق أخرى وهذا لايعني أن التحديث ينتشر بالضرورة في المناطق المتحدثة للغة بكاملها (راجع خريطة اللهجات بالفصل الرابع)، بعد قرون عدة تعرضت إنجلترا لبعض التغيرات اللغوية في النحو ومفردات اللغة والنطق، ولكنها في نفس الوقت لم تتعرض للتغيرات الأخرى التي تأثرت بها المناطق المختلفة، نتيجة لذلك انقسمت كل ناحية تنطق بالإنجليزية تدريجيا إلى عدد من المناطق تمتاز كل منها بعدد لا حصر له من التباينات – هذه هي اللهجات الإقليمية التي تحدثنا عنها بالفصل السابق. قبل حلول عام ١٥٠٠ أو نحو ذلك (بعد مرور ألف عام على الاستيطان الأنجلو ساكسوني) كان من الصعب على المتحدثين من المناطق المختلفة فهم بعضهم بعضا.

إن الجمع بين تغير اللغة والانفصال الجغرافي يعد – كما سنرى – قوة لا يستهان بها، وفيما يخص اللغة الإنجليزية نرى أن درجة ذلك الانفصال قد زادت كثيرا من جراء استيطان متحدثي الإنجليزية لأمريكا الشمالية في القرن السابع عشر،

وأستراليا ونيوزيلندا في القرن التاسع عشر، بالفعل يختلف الكلام في أمريكا الشمالية بدرجة ملحوظة عن مثيله في بريطانيا، كما أن الإنجليزية المتحدثة في المسيسيبي أو شمال كارولينا تكون صعبة الفهم للغاية بالنسبة لشخص من بريتون، علاوة على ذلك نُكر أنه عندما عرضت الأفلام الأمريكية لأول مرة ببريطانيا عام ١٩٣٠ لم يتمكن الجمهور البريطاني من فهمها باعتباره لم يسبق له سماع أي شيء من الكلام الأمريكي.

ماذا تتوقع أن يحدث من نتائج لذلك التشعب المتنامي في حالة عدم حدوث تدخل من أية عناصر أخرى ؟ ستكون النهاية هي تشعب التنوعات الإقليمية للغة الإنجليزية حتى تنتهي إلى شيء غير مفهوم يضطرنا في النهاية على التحدث - ليس بلهجات مختلفة - بل بلغات مختلفة.

من الممكن ألا يحدث هذا في وقتنا الحاضر بفضل ما نشهده من تقدم سريع في وسائل النقل والاتصال بالقرن العشرين، ولكن ربما يحدث هذا في وقت لاحق، مما لا شك فيه أن انشطار لغة واحدة إلى عدة لغات قد حدث مرارا وتكرارا، وهذا يفسر سبب خروج اللغة الإنجليزية لأول مرة للوجود.

منذ ما يقرب من ألف وخمسمائة عام - حين كانت أغلب مناطق بريطانيا محتلة من قبل اللغات التي تحولت في صورتها النهائية إلى الويلزية والكورنية - كانت الإنجليزية تستخدم في الساحل الشمالي للقارة الأوروبية، أي في مناطق هي الآن جزء من سويسرا وألمانيا والدنمارك، لقد قمنا بتسمية تلك اللغة اسم ingvaeonic لأنه حتى وإن كان أصحابها قد أطلقوا عليها اسمًا ما فإنه كان سيندثر لا محالة بمرور السنين، انتقلت بعض القبائل المتحدثة لهذه اللغة - الإنجل والساكسون - عبر بحر الشمال إلى بريطانيا منذ ١٥٠٠ عام، ولكن لم تهاجر تلك القبائل بكامل أعدادها فقد بقي العديد منها بأوروبا، إذن ماذا حدث للغتهم ؟ بالتأكيد لم تتحول إلى اللغة الإنجليزية.

بالطبع لم تتحول إلى الإنجليزية بل تحولت إلى شيء آخر أو لنقل أشياء أخرى، أخذ الإنجل والساكسون اللغة ingvaeonic إلى بريطانيا ولكن بحر الشمال وقف حائلا صعب التغلب عليه دون مواصلة التقدم، عندما استمرت تلك اللغة في التغير كان هذا التغير يحدث على أحد جانبي البحر ولا يصل أبدا إلى الجانب الآخر، لذا في غضون قرون قليلة اختلفت التنوعات الجُزُرية التي نسميها الآن بالإنجليزية تمام الاختلاف عن التنوعات القارية، وبينما تحركت إنجلترا تدريجيا نحو الاتحاد تحت سلطة سياسية واحدة (كان هذا عاملاً مساعداً في الحد من انقسام اللغة الإنجليزية)، وجد الذين استقروا بالقارة أرضهم مقسمة بواسطة الحدود السياسية، في النهاية انقسمت اللغة

ingvaeonic القارية إلى عدة تنوعات إقليمية لا تمت إحداها للأخرى بأى صلة، ذكر علماء اللغة الآن ثلاث لغات قارية مشتقة من اللغة ingvaeonic وهي : الهولندية، "frisian"[٨٣]، والألمانية الدنيا (حقيقة اشتقت بعض لهجات اللغة الهولندية والألمانية الدنيا من اللغة ingvaeonic، وكان الموقف اللغوى متأزما فى هذا الجزء من العالم).

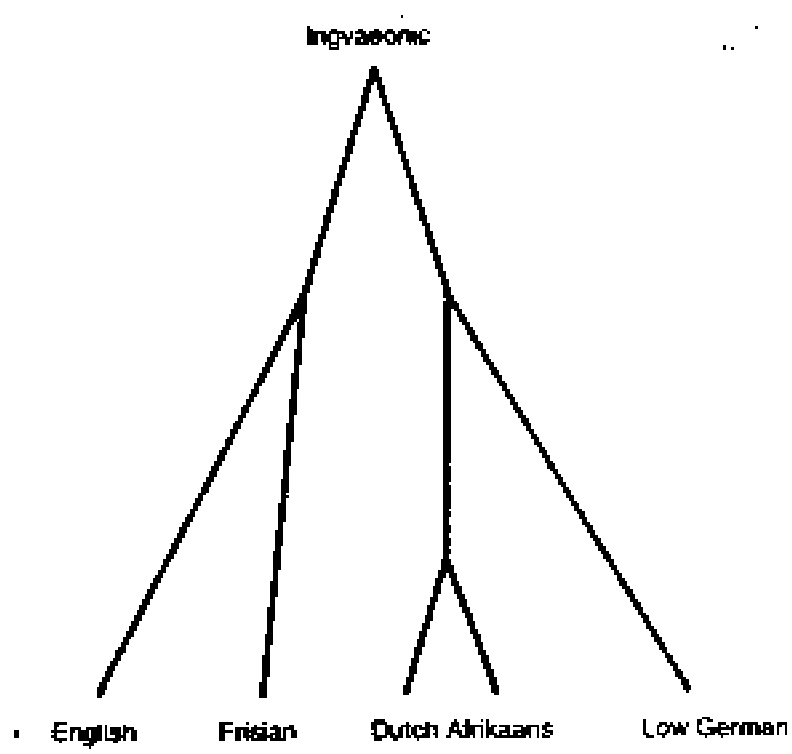
تستخدم الهولندية فى كل من سويسرا ونصف مساحة بلجيكا ومساحة صغيرة من شمال فرنسا حول "دنكرك". انقسمت هذه اللغة – مثل الإنجليزية – إلى عدد من اللهجات الإقليمية، فالمتحدث من أمستردام لا يمكنه فهم الهولندية المحلية لبلجيكا الغربية أو فرنسا (فى بعض الأحيان يطلق على التنوعات الإقليمية للغة الهولندية FLeMISH) فيما سبق كانت اللغة FRISIAN تستخدم فى أنحاء كثيرة من سويسرا كما أنها لا تزال تستخدم فى عدد من الجزر خارج الساحل السويسرى والألمانى وكذلك فى أحد أنحاء أخرى للقارة الأوروبية، كذلك انقسمت اللغة FRISIAN إلى مجموعتين على الأقل من اللهجات تختلفان إلى حد كبير، أما الألمانية الدنيا فتستخدم فى مساحة واسعة من شمال ألمانيا، وتنقسم أيضا إلى عدد من التنوعات المختلفة تماما، (تنحدر من ingvaeonic لغة أخرى لا تستخدم فى أوروبا : إنها الأفريقية والتى تعد نتاجا متميزا للهولندية جاءت إلى جنوب إفريقيا منذ ثلاثة قرون).

لم يتمكن متحدثو الإنجليزية من فهم هذه اللغة لعدة قرون، لكنه بإمكاننا معرفة أجزاء من لغة أسلافنا، ما تفسيرك للعبارات الهولندية؟ : koud wa-، een goed boek de open،ter وماذا عن الجملة ".wat wilt u- kopje koffie of glas bier ?"

يمكننا توضيح الأسلاف المستخدمين للغة ingvaeonic بالاستعانة بمخطط الشجرة بالشكل رقم (٢–٥)، يوضح بناء هذه الشجرة تقارب كل من اللغة الهولندية والإفريقية بنسبة أكبر من اللغات الأخرى، بما أنهما ظهرا منذ ثلاثة قرون فقط فهما لا يزالا مفهومين بالرغم من أن كل واحدة ليست مألوفة لمتحدثي الأخرى.

إن اللغة ingvaeonic ليست هي الوحيدة التي تمتُّ للإنجليزية بصلة، فهناك عدد من اللغات الأوروبية قريبة للإنجليزية ولكن لحد ليس بكبير، فعلى سبيل المثال لا تعد الجمل الألمانية Mein Haus ist alt , Dies Wein ist gut غريبة عن اللغة الإنجليزية، كذلك ربما يمكنك فهم الجملة السويدية Nils har en penna och en bok بالمعنى "Nick

(٨٣) لغة ألمانية تتعدد بها اللهجات .



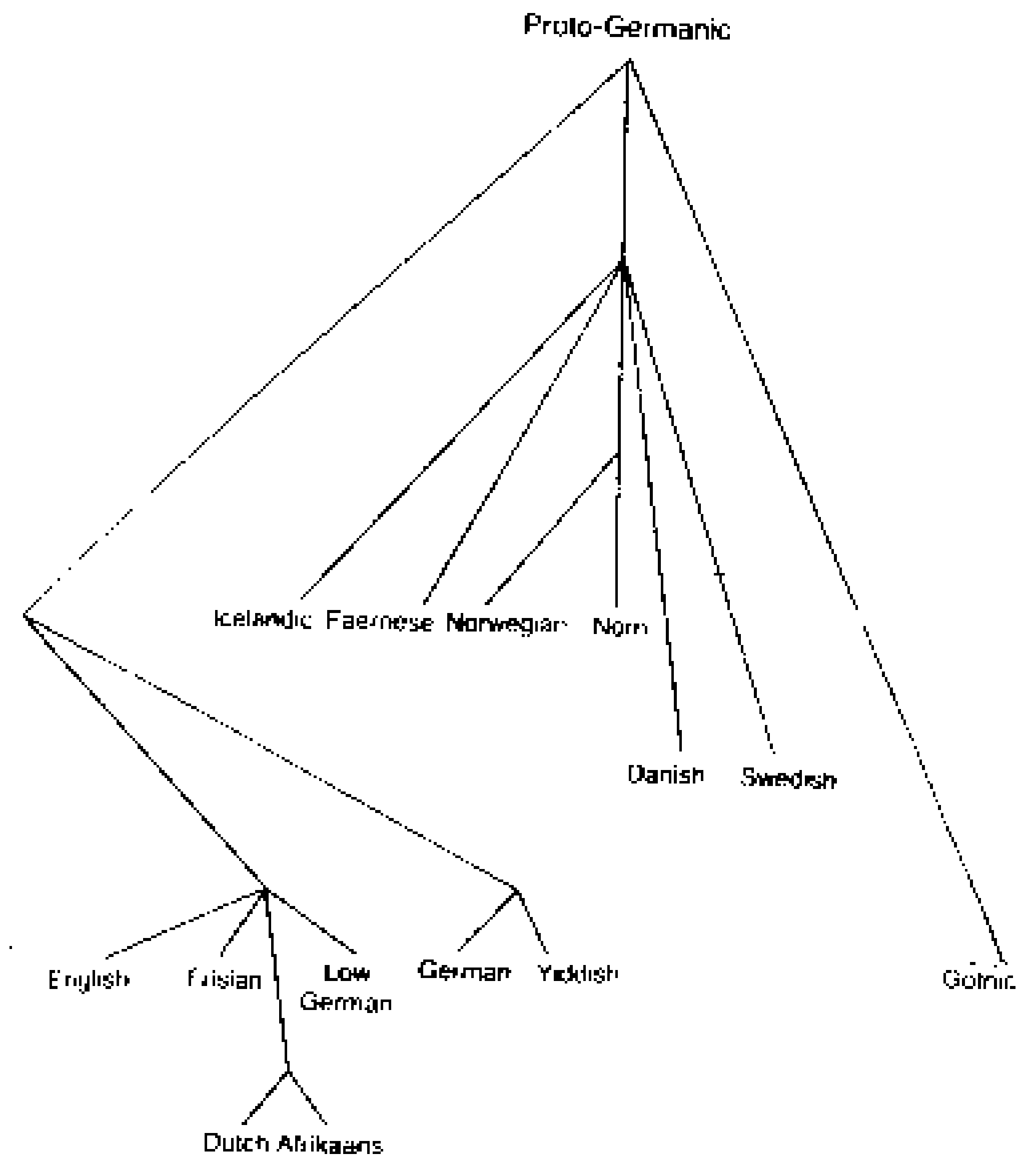
شكل (٥-٢)

شجرة عائلة اللغة Ingvaeonic

الألمانية الدنيا الإفريقية Frisian الإنجليزية

has a pen and a book" (لدى نيك قلم وكتاب)؛ تعد الأيسلندية أكثر صعوبة، ولكننا إذا أخبرناك أن الجملة الأيسلندية F olkiò segir, aò hún sé lik Anna تعني people" say that she is like Anna" (يقول الناس إنها تشبه آنا) ستدرك على الفور مدى التشابه بين اللغتين، من ضمن اللغات القريبة للغة الإنجليزية كل من: الدنماركية والنرويجية والفاروسية "Faeroese" (المستخدمة في جزر فاروس) والنورنية "Norn" (لغة استخدمت فيما قبل في جزر اوركناي وشيتلاند بشمال أسكتلندا)، و البيدية (نتاج مميز للألمانية) والقوطية (لغة بائدة استخدمها العديد من الغزاة الهمجيين الذين أطاحوا بالإمبراطورية الرومانية).

تسمى هذه اللغات باللغات الجرمانية وقد بدأت كلها في الظهور منذ آلاف الأعوام كلهجات للغة واحدة يطلق عليها الألمانية البدائية، تظهر شجرة اللغات الألمانية بالشكل (٥-٣).



شكل (٥-٢)

شجرة عائلة اللغات الجرمانية

النورنية/النرويجية/الفاروسية/الأيسلندية

السويدية/الدنماركية

القوطية

اليدية/الألمانية/الألمانية الدنيا/ Frisian/ الإنجليزية

الإفريقية

من تحدث الألمانية البدائية؟ وأين، ومتى ؟ السؤال ليس بسيطا، فمتحدثو هذه اللغة كانوا أميين لم يتركوا خلفهم أية نصوصا مكتوبة، لكن ذهبت اجتهادات العلماء إلى أنه من المحتمل أن تكون هذه اللغة قد استخدمت في جنوب إسكنديناقا عام ٥٠٠ قبل الميلاد تقريبا، وقد تحرك متحدثو هذه اللغة من مكانهم إلى شمال وشرق وجنوب أوروبا إلى أن وصلوا في النهاية وبعد آلاف السنين إلى بريطانيا، انقسمت اللهجات التي استخدمتها هذه المجموعات إلى عدد من اللغات المستقلة وإن كان من السهل التعرف على الصلة التي تربط بينها.

إن الألمانية البدائية ليست نهاية المطاف كما أنها ليست البداية، فقد أثبتت الدراسات – التي استمرت نحو مائتي عام – بما لايدع مجالا للشك أن اللغة الألمانية البدائية بدأ استخدامها كلهجة لإحدى اللغات القديمة، وفي هذا دلالة على أن اللغات الألمانية ذات علاقة بعائلة كبيرة من اللغات المستخدمة في معظم أنحاء أوروبا وكثير من مناطق آسيا، تشتمل تلك العائلة الكبيرة على: اللغات السلتية مثل الويلزية والأيرلندية، واللغات الرومانية مثل الفرنسية والإسبانية والإيطالية، واللغات السلافية مثل الروسية والبولندية والصربية– الكرواتية، واللغات البلطية[٨٤] مثل الليتوانية، والعديد من اللغات المستقلة مثل اليونانية والألبانية والأرمينية، واللغات الإيرانية مثل الفارسية والكردية، واللغات الهندية الشمالية مثل الهندية والبنجابية[٨٥] ولغة بنجلاديش والجوجاراتية، وعدد من اللغات المنقرضة التي استخدمت سابقا في بلكانز بتركيا الجديدة وآسيا الوسطى، تطلق على تلك العائلة اسم الهندوأوروبية وتنحدر لغاتها من أصل بعيد يسمى بالهندوأوروبية البدائية أو PIE، يعتقد أن PIE كانت تستخدم منذ حوالي ستة آلاف سنة في مكان ما بأوربا الشرقية، وعلى الأرجح بجنوب روسيا من قبل مجموعة من الناس يركبون الخيول والعربات ذات العجلات ويشتغلون بالزراعة وتربية الحيوانات، قد جاءتنا هذه المعلومات عن تلك اللغة من كلمات مثل "horse" (فرس)،"wheel" (عجلة)، "axle" (محور العجلة)، "grain" (بذرة)، "cow" (بقرة)، "sheep" (شاة)، "dog" (كلب) والتي بقيت في لغات ذات صلة باللغة المتحدث عنها، إننا على يقين بأن –على سبيل المثال – كلمة) "sheep" (شاه) الإنجليزية تقابل

(٨٤) مجموعة من اللغات الهندية الأوروبية تشمل اللاتفيانية والليتوانية والبروسية القديمة .
(٨٥) لغة مستخدمة بالهند وباكستان .

كلمة "owis"* المستخدمة في اللغة الهندوأوروبية البدائية (تستخدم النجمة للدلالة على تركيب من اختراع اللغوي) لأن الكلمة المقابلة لها في اللغة sanskrit (لغة هندية قديمة) هي "avis"، وكذلك "ovis" اللاتينية، "ois" اليونانية، "avis" الليتوانية، "oi" الأيرلندية القديمة، "ewe" الإنجليزية، كلها كلمات تعني (شاه).

شيء طبيعي أن تنحدر اللغة الهندوأوروبية البدائية من أصل سابق عليها وهكذا حتى تصل إلى أصول اللغة البشرية والتي ربما تمتد إلى ١٠٠٠٠٠ عام أو يزيد، من الصعب تتبع الأمور لأقدم من ذلك، فقد أصبح حجم التغيرات التي حدثت باللغات كبيرا للغاية مما جعلنا عاجزين عن التعرف على أصل واحد للغة والتيقن منه – مع أن عدداً من اللغويين يبذلون الجهد من أجل التوصل لحل هذه المشكلة – وقد بدأ بعضهم الاعتقاد بأن العائلة الهندوأوروبية وغيرها من العائلات اللغوية اشتقت من أصل لغوي بالغ القدم أطلقوا عليه PROTO-NOSTRATIC وهم يرجحون استخدام هذا الأصل اللغوي منذ ما يقرب من ١٥٠٠٠ عام، ولكن الفكرة برمتها لا تزال محل نقاش.

بعيدا عما سبق، فإننا نجحنا في التوصل إلى أصول اللغة الإنجليزية وترجع إلى أناس مجهولين أميين عاشوا بمكان ما بأوروبا الشرقية منذ ما يقرب من ٦٠٠٠ عام، بدأ هؤلاء الناس في الانتشار تدريجيا في أنحاء كثيرة من آسيا وأوروبا، وقد بدأت أولى مجموعاتهم التحرك أولا إلى اسكتديناڤا ثم تبع ذلك التوغل جنوبا إلى أوروبا، كما عبرت بعض المجموعات الأخرى بحر الشمال حتى بريطانيا حتى أصبحت لغتهم الجرمانية – والتي أطلق عليها في النهاية الإنجليزية – اللغة القومية لإنجلترا ثم لغة الإمبراطورية البريطانية، وأخيرا اللغة الأعظم مكانة والأوسع استخداما في العالم أجمع.

الفصل السادس

اللغة والعقل والمخ

أشرنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب إلى الأهمية القصوى لجهازنا الصوتى الفريد فى نوعه، وقدرته على تمكيننا من الكلام، هناك شيء آخر ظهر فى إطار التطور الذى عايشه أسلافنا – بجانب ذلك الجهاز الصوتى – وكان له أهميته فى استخدام اللغة أيضا : إنه المخ البشرى الذى يتميز بكبر حجمه، عاش أجدادنا منذ آلاف السنين – بعد نجاحهم فى السير بقامة منتصبة – بمخ صغير الحجم يشبه مخ الشمبانزى ثم ما لبث أن تضاعف هذا المخ بين عشية وضحاها إلى أربعة أضعاف حجمه، لم يتوصل أحد إلى سبب ذلك التضاعف برغم تعدد التكهنات حول هذا الأمر، ومن أصلح تلك التكهنات ما ذكر فى شأن أن المخ تطور لسبب وحيد ألا وهو تمكيننا من استخدام اللغة.

سواء صح هذا التخمين أو أخطأ، فبطبيعة الحال كان هناك اهتمام كبير باكتشاف كيفية تنظيم اللغة داخل المخ ومكان تواجدها، تجلى هذا الاهتمام فى الجهود الشاقة لعلماء اللغة العصابيين (الذين يدرسون العلاقة بين اللغة والمخ)، لم تتواجد أية طريقة مباشرة فى الآونة الأخيرة لدراسة وظيفية أى مخ طبيعى صحيح، وكانت الطريقة الوحيدة لاستخلاص المعلومات هى دراسة الأسلوب الذى يتحدث به أولئك الذين خانهم الحظ وأصيبوا بتلف فى المخ وكذا تشريحهم بعد الوفاة لتحديد الأجزاء التالفة. علق أحد الأشخاص على عمل هؤلاء العلماء بأنه يشبه فحص حطام لجهاز تليفزيون من أجل معرفة الطريقة التى يعمل بها، بالرغم من ذلك، فقد أبلى علماء اللغة العصابيون بلاء حسنا فى عملهم هذا.

مخ تالف ، كلام مضطرب :

يمكن أن يتلف المخ من جراء أسباب عدة : صفعة قوية على الرأس، جرح بالرأس، اختناق جزئى أو سكتة دماغية وهى أكثر الأسباب شيوعا، يستهلك المخ ربع

كامل من مقدار ما بالجسم من أكسجين، وإذا ما تجلط الدم بداخل الأوعية الدموية للمخ سيتبع ذلك هلاك الأنسجة المحيطة به بسبب الاختناق، لا يمكن التوقع بنتيجة هذا التلف ولكنه في الأغلب يسبب نتائج خطيرة من أبرزها حدوث نوع من تعطل قدرة المصاب به على استخدام اللغة، يطلق مسمى الحُبْسَة "Aphasia" عادة على اضطراب اللغة الناتج عن تلف المخ، ولكن تبعا للمعنى الحرفي لهذا المصطلح وهو " فقدان القدرة على الكلام " بالإضافة إلى قلة عدد الذين يعانون من فقدان قدرتهم اللغوية بل انعدامهم حبذ العديد من علماء اللغة العصابيين الآن استخدام مصطلح "Dysphasia" والذى يعنى "عسر الكلام أو عسر فهمه".

لاحظ العديد من الباحثين المستقلين في النصف الأول من القرن التاسع عشر تشابه اضطرابات الكلام التي يعاني منها عدد من مرضى تلف المخ إلى حد كبير، كما أن جميع هؤلاء المصابين يعانون – بعد تشريح ما بعد الوفاة – من تواجد التلف بنفس المناطق بالمخ، أعلن الجراح الفرنسي " بول بروكا " في عام ١٨٦٤ توصله لتلك الحقائق عن طريق إجراء التجارب على ثمانية من المرضى، لذلك يطلق على الاضطراب الذى قام " بروكا " بتفسيره اسم "حُبْسة بروكا" وكذلك أطلق اسم "منطقة بروكا" على الجزء الذى قام بدراسته، يبدو أنه بنفس درجة التوافق في التسمية يؤدى التلف بمنطقة بروكا إلى الإصابة بحبسة بروكا.

تشغل منطقة بروكا مساحة صغيرة لا تتعدى البوصة – من القشرة المخية (سطح المخ الخارجي المجعد ذو اللون الرمادى، والذى يتخذ شكل الجوز) – إذا وضعت إصبعك على رأسك وتحديدا فوق صدغك الأيسر ستكون مشيرا وقتئذ إلى منطقة بروكا التى تقع بالجزء الأيسر من المخ لدى غالبية البشر.

يسبب تلف منطقة بروكا نوعًا معينا من الحبسة يسهل التعرف على أعراضه حيث يكون خروج الكلام من المصاب بطيئا وشاقا للغاية، أى أن كل كلمة تُنطق بشق الأنفس، بالمثل يكون إيقاع الكلام غير طبيعى وكذلك التنغيم العادى، وفوق هذا وذاك يمثل اضطراب النحو أكثر الأمور جذبا للانتباه، فلا مكان له عند المصابين بذلك النوع من الحبسة، إنهم لا يستطيعون تكوين جملة نحوية صحيحة، ولا يعرفون أغلب الكلمات النحوية البسيطة مثل "of" (من،عن)، "the" (الـ)، "to" (نحو،إلى)، "if" (إذا)، "be" يكون)، "or" (أو)، (مع ملاحظة أنهم يحتفظون بالكلمات التى تشتمل على نفس العدد

من الأصوات مثل "bee" (نحل) و "oar" (مجداف)، كذلك فهم يضعون العلامات النحوية للكلمات مثل علامات الجموع، وعلامات الأزمنة الماضية و -ing الخاصين بالأفعال، إنهم يستطيعون بالكاد النطق بأي أفعال، فمعظم الكلمات التي ينطقونها بصعوبة ما هي إلا أسماء، أخيرا، يتميز نطقهم بالفقر حيث يتداخل الكلام مع بعضه البعض فيصعب تفسيره، إليك نموذج لكلام أحد حبيسي بروكا الذي يجيب على سؤال وجه إليه عن سبب حضوره إلى المستشفى :

نعم – أه – يوم الاثنين – أبي – وأبي – أه – مستشفى – وأه – يوم الأربعاء – يوم الأربعاء – الساعة التاسعة وأه يوم الخميس – الساعة العاشرة أه الأطباء – اثنين اثنين – أه الأطباء و – أه – الأسنان – نعم، وطبيب – أه بنت – والثة ، وأنا .

بالرغم من ذلك يحمل حديث حبيس بروكا قدراً لا بأس به من المنطقية والدلالة، فهم يستطيعون فهم ما يقال لهم فيما عدا الجمل المعقدة نحويا مثل : "The boy who was kissed by the girl cried" (بكى الولد الذي قبلته البنت)، إنهم يستطيعون القراءة بصورة طبيعية ولكن العقبة التي تعترضهم هي الأشكال المصرفة العادية مثل "dogs" (كلاب)، "wanted" (أراد)، وبالعكس يحسنون التعامل مع التصريفات الشاذة مثل "children (أطفال)، "took" (أخذ)، علاوة على ذلك فهم على علم تام بما يكابدونه من صعوبة في التحدث، وربما يكون هذا أحد أسباب استجابتهم للعلاج، إنهم يتحسنون كثيرا بمرور الوقت وإن كان من الصعب شفاؤهم بصورة نهائية.

عرّف الباحث الألماني " كارل ويرنك " عام ١٨٧٤ نوعا ثانيا مختلفا تماما من الحبسة ويعرف حاليا باسم " حبسة ويرنك "، ينطق المصاب بذلك النوع من الحبسة كلامه بسرعة وطلاقة وكأنه يتحدث تباعا دون أن يلتقط أنفاسه، يتخذ كلاً من الإيقاع والتنغيم مسارا طبيعيا، كما أن معظم التركيبات النحوية العادية تأتي سليمة، إنك إذا استمعت دون اكتراث إلى حديث أحد هؤلاء المرضى ستفشل في ملاحظة أي خطأ به، ولكن بمجرد أن ترهف السمع سوف تلاحظ المشكلة التي يجابهها حبيس ويرنك : إن ما يقوله لا يمثل أي معنى، ربما يتمكن من إخراج مقاطع قصيرة كل منها ذات معنى على حدة ولكن عند ربط هذه المقاطع لا يتكون معنى مفهوم، كما أن هذه المقاطع تنفصل عن بعضها البعض بكلمات عديمة المعنى، إليك هذا النموذج :

إذا استطعت سوف، آه إنني أستخدم الكلمات استخداما خاطئا لقولهم، كل الحلاقين عندما يوقفونك يكررون ويكررون ، إذا عرفت ما أعنيه، حسنا، إننا كنا نحاول للأفضل بقدر استطاعتنا بينما في وقت آخر كانت الأسرة هناك ...

يجد حبيسو ويرنك صعوبة باللغة في الفهم، فهم يستوعبون قليلا وربما لا يستوعبون أي شيء على الإطلاق مما يقال لهم، أكثر من ذلك أنهم لا يدركون ما هم بصدده من مشكلات، وهم يصابون بالإحباط والضيق كثيرا عندما يبدي أي شخص عدم قدرته على فهم ما يقولون، من الطبيعي أن نقابل صعوبة باللغة عند معاملة شخص ما لا يدرك ما لديه من مشاكل، وهم فوق ذلك قلما يستجيبون العلاج.

استطاع ويرنك – مثل بروكا – تحديد منطقة بعينها بالمخ يترتب على تلفها تلك الأعراض المذكورة آنفا، تفوق منطقة ويرنك منطقة بروكا حجما وتقع مثلها بالجزء الأيسر من القشرة المخية عند معظم الناس، يمكنك تحديد مكانها إذا وضعت إصبعك فوق أذنك اليسرى مع تحريكه إلى الخلف قليلا.

نخلص مما سبق أن تلف منطقة ويرنك من شأنه التأثير سلبيا على الاستيعاب وإضعاف القدرة على فهم المفردات الجديدة إلى درجة كبيرة، أما تلف منطقة بروكا – على النقيض – يدمر إمكانية تكوين تركيبات نحوية صحيحة ويضعف القدرة على النطق، أوضحت الأبحاث في المجال نفسه أن منطقة بروكا تكون بمثابة المنطقة المحركة بالمخ والتي تتحكم في الحركات العضلية، بينما تتجانس منطقة ويرنك مع المنطقة السمعية المسئولة عن معالجة المدخلات التي تأتيها عن طريق الأذنين، يفسر هذا التصنيف الطريقة التي تنتظم بها اللغة داخل المخ، فالمنطقة السمعية تستقبل المدخلات عن طريق الأذنين ثم ترسلها إلى منطقة ويرنك المتولية مسئولية الاستيعاب، فيما يخص عملية الكلام ترسل منطقة ويرنك الكلمات إلى منطقة بروكا – والتي تقوم بإنتاج التركيبات النحوية المرادة بما فيها كل الكلمات النحوية واللواحق، ثم ترسل تعليماتها إلى المنطقة المحركة التي توجه عضلات الأعضاء الصوتية من أجل إخراج النتائج أو الكلام.

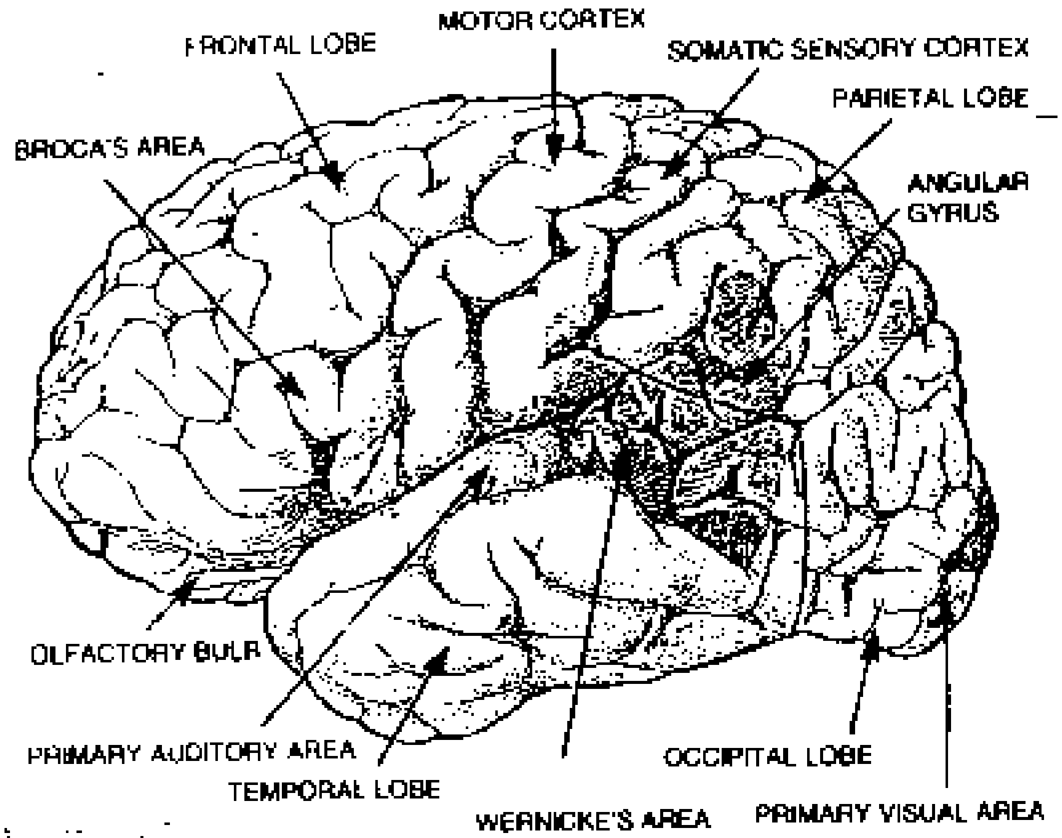
تتطلب تلك العملية – التي يمكن تسميتها بالنموذج القياسي – تواجد صلة بين منطقتي ويرنك وبروكا، وبالفعل توقع بروكا منذ عهد بعيد بحتمية وجود هذه الصلة كما

أنه أشار إلى نوع آخر من الحبسة ينتج من حدوث تلف بتلك الصلة التى تربط بين المنطقتين، اكتشفت تلك العلاقة مثلما تم التنبؤ بها، وبالفعل وجدت حزمة من الألياف تأخذ شكل الحرف "ل" وتسمى حزمة الألياف العصبية المقوسة وهى التى تصل بين منطقتى ويرنك وبروكا مباشرة، يؤدى تلف هذه الصلة إلى "الحبسة الاتصالية" وفيها يعانى المريض من نفس أعراض حبسة ويرنك إلا أنه يفلح فى الحفاظ على مستوى استيعابه ويزيد على حبسة ويرنك عرض واحد وهو عدم قدرة المريض على ترديد ما يقال له، هذه النتيجة النهائية هى كل ما تنبأ به النموذج القياسى : بما أن منطقة ويرنك تعجز عن الحديث إلى منطقة بروكا فإنها تعجز أيضا عن نقل ما يصلها أو ما تسمعه إليها.

أما فى حالة "حُبْسَة العزلة" النادرة الحدوث تترك الإصابة الشاذة المناطق الخاصة باللغة فى المخ سليمة إلا من اتصالها بباقى أجزاء المخ، لذا فإن المصاب لا يقدر على فهم الكلام الموجه إليه، كما لا يمكنه كذلك الحديث بطلاقة اللهم إلا عند التفوه ببعض العبارات التقليدية والمقاطع الطفولية، وهو برغم ذلك يتمكن من تكرار أى شىء يقال له بصورة ميكانيكية، كما يتسنى له غناء الأغنيات وتعلم الجديد منها.

هناك حقيقة هامة بشأن ما للحُبْسة من تأثير على مستخدمى لغة الإشارة كتأثيرها على المتحدثين العاديين، نجد أن مستخدم الإشارة عند إصابته بحبسة بروكا تجىء إشاراته بطيئة ولا يعبأ مطلقا بالتصريفات النحوية (تذكر أن لغات الإشارة – كلغة الإشارة البريطانية – تتضمن الكثير من القواعد النحوية كأى من اللغات المتحدثة الأخرى)، بينما يشير المصاب بحبسة ويرنك بصورة سريعة وطليقة ولا يفهم من إشاراته إلا القليل، كما أنه يواجه صعوبة بالغة فى فهم إشارات الآخرين، لا ينفى هذا الحقيقة القائلة بأن كل مستخدمى لغة الإشارة المصابين بالحبسة والذين لا يعانون من الشلل يستطيعون استخدام أيديهم بصورة طبيعية لأغراض أخرى غير الإشارة لكلام، من هذه الأغراض الإيماءات اللالغوية كالتلميح والتلويح، وفى هذا دليل قاطع على أن مناطق اللغة الموجودة بالمخ هى المتحكم الرئيسى فى إخراج اللغة، أى أن هذا الدور – إخراج اللغة – ليس حكر على الجهاز الصوتى أو الأذنين.

يعرض الشكل (٦-١) مخطط النصف الأيسر من المخ بما يحويه من مناطق اللغة والمناطق الأخرى طبقا للنموذج القياسى.



شكل (٦-١)

النصف الأيسر للمخ

Wernicke's area منطقة ويرنك	Occipital lobe الفص القذالى
Primary visual area المنطقة البصرية الرئيسية	Temporal lobe الفص الصدغى
Primary auditory area المنطقة السمعية الرئيسية	Broca's area منطقة بروكا
Frontal lobe الفص الأمامى	Motor cortex القشرة
Somatic sensory cortex القشرة الحسية الجدارية	Parital lobe الفص الخلفى

ثبت نجاح النموذج القياسي في بيان الآثار المترتبة على تلف المخ، بالطبع لا تتطابق أعراض الحُبسة عند اثنين من المصابين بتلف المخ، كما أن هذا التلف لا يحدث فى منطقة بعينها بالمخ عند جميع المصابين، ومن هنا تتعدد الأعراض التى يعانى منها المصابون بالحبسة، بالإضافة إلى ما سبق ذكره، أضافت بعض الأبحاث الحديثة وحلاً إلى الماء عندما أثبتت أن منطقتى اللغة بالمخ لا يشغلان مكانهما - الذى افترضته

الأبحاث السابقة - عند العديد من الناس، بل إنهما يبعدان عنه بقليل، لكننا تمكنا من مشاهدة ما يجرى بداخل مخ الشخص السليم بواسطة الأساليب العلمية المتوافرة في وقتنا الحاضر ومنها بصفة خاصة الماسح الضوئي الذي يطلق عليه اختصارا (PET) أي المسح الضوئي بأشعة إكس عن طريق إطلاق جسيم موجب ذي كتلة تعادل كتلة الإلكترون، ومما أكدته هذه الأساليب هو أن مناطق اللغة المتعارف عليها متواجدة بالفعل وتنشط عندما يؤدي الفرد إحدى الوظائف اللغوية مثل الاستماع أو الكلام أو القراءة.

من أكثر جوانب النموذج القياسي تعقيدا - وهو الشيء غير المتوقع - والتي تم اكتشافها منذ زمن بعيد هي أنه في الوقت الذي تشغل مناطق اللغة جزءا من النصف الأيسر للمخ عند معظم الناس، توجد هذه المناطق بالنصف الأيمن عند ثلاثة بالمائة منهم، وقد يحدث أن توجد بكلا النصفين في حالات نادرة، مما يدعو للدهشة أن كل المنتمين إلى نسبة الثلاثة بالمائة يستخدمون يدهم اليسرى بدلا من اليمنى (كما أن بينهم من يستخدم كلتا يديه في الكتابة ببراعة)، ولكن بالرغم من ذلك توجد مناطق اللغة بالنصف الأيسر من المخ عند نسبة ٨٥٪ من الذين يستخدمون يدهم اليسرى، إنه من المستحيل معرفة الضابط لتلك العملية ولكن دعونا ننظر بإمعان أكثر إلى أمر اليمين واليسار هذا.

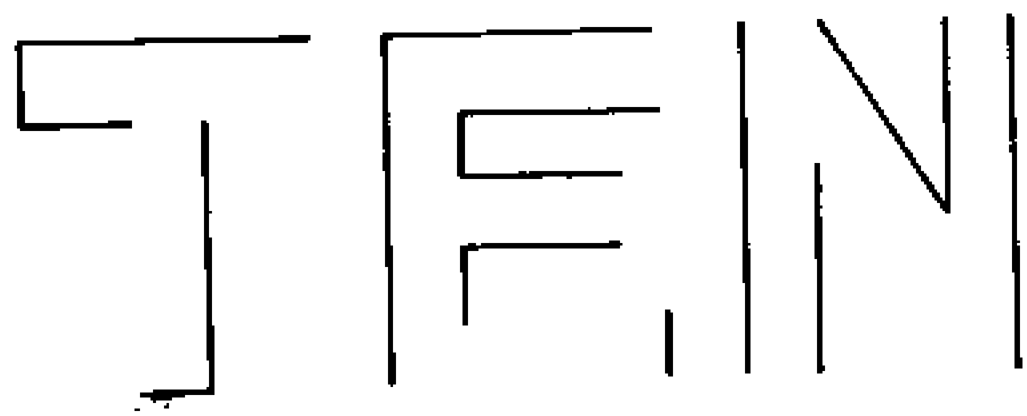
اليسار مقابل اليمين :

ينقسم المخ البشري - والذي يحتوي على معظم خصائصنا الإدراكية الراقية - إلى قسمين متماثلين يطلق عليهما النصفين، يتم الربط بين هذين النصفين بواسطة حزمة صلبة من الأنسجة تسمى الجسم الجاسي، منذ زمن بعيد اكتشفت مسئولية كل نصف من هذين القسمين عن أحد نصفي الجسم، ولكن لأن أسلافنا القدامى قدموا لنا دليلا أطاح بذلك الاكتشاف أصبح النصف الأيسر من المخ هو القائم على رعاية الجزء الأيمن من الجسم والعكس صحيح، لذلك - ونحن بمنحى عن الحُبْسة - يمكن أن يحدث تلف النصف الأيسر من المخ عمى العين اليمنى أو صمم الأذن اليمنى أو شلل الجزء الأيمن للجسم.

لا تعد اللغة الخاصية الوحيدة التي تشغل حيزا بالنصف الأيسر للمخ، فمن الظاهر أن معظم القدرات التحليلية تتركز به أيضا ومن هذه القدرات : القدرة على

القيام بالعمليات الحسابية وحل المسائل الجبرية وترتيب الأشياء ترتيبا زمنيا وفقًا لحدوثها، كما نجح علماء اللغة العصابيون - بالإضافة إلى ذلك - في تحديد عدد من المناطق المميزة والتي تقع بالنصف الأيسر للمخ وتقوم بوظائف محددة، كمناطق اللغة.

يختلف نصف المخ الأيمن عما سبق ذكره، فهو يتخذ شكلا غير منتظم بعكس النصف الأيسر كما يقل بل ينعدم عدد المناطق المتخصصة به، ولكن تتجلى وظيفته الأساسية في عملية الإدراك وتداعي المعاني والأفكار، لنسُق لك مثالا، انظر إلى الشكل رقم (٦-٢) ماذا ترى ؟ بالتأكيد أنك سترى على الفور كلمة إنجليزية، ولكن لماذا ؟ ففي الحقيقة لا توجد أية كلمات بالشكل، لا يوجد سوى مجموعة مختلطة من الخطوط المستقيمة، بالرغم من ذلك فنصف المخ الأيمن لديه من القدرة ما يمكنه من التعرف على الأشكال المألوفة التي تتضمن خليطا من المعلومات وإيجاد تفسير لها، وهذا ما يفعله النصف الأيمن للمخ دائما وأبدا، إنه يتخير كم المعلومات الحسية التي ترد للمخ وينظمها في أشكال مفهومة ومألوفة، سؤالنا الآن هو : ماذا يحدث إذا تلف نصف المخ الأيمن ؟



شكل (٦-٢)

اختبار لنصف المخ الأيمن

تمثل حالة الدكتور .P أكثر حالات تلف نصف المخ الأيمن شهرة، إنه موسيقي بارع ومعلم للموسيقا يعاني من سكتة دماغية خفيفة بالنصف الأيسر من مخه، لم تظهر للسكتة الدماغية أية آثار عليه، فقد ظل كما كان ذكيا ومثقفا لدرجة كبيرة، قادرا على الكلام بطلاقة وأناقة، على إلقاء النكات الطريفة، تذكُّر الحقائق، اللعب، الغناء والاستمرار في ممارسة التدريس. لقد كان طبيعيا في كل شيء فيما عدا شيئا واحدا.

لقد فقد الدكتور .P القدرة على تذكر الأشياء الرتيبة التي ذكرناها لتونا، لم يعد قادرا على تجميع المعلومات المرئية وتحويلها إلى أشكال متعارف عليها، نتيجة لذلك لم يعد قادرا على التعرف على الأشياء التي يراها، عندما وضع شيء ما في يده همّ بفحصه بحرص وباستخدام القدرات التحليلية السليمة التي يقوم بها النصف الأيسر من مخه قال "طولها حوالي ست بوصات ... تتخذ شكلا معقدا ذا لون أحمر ملحقا به شيء أخضر"، عندما كررنا عليه السؤال "ماذا تعتقد أن يكون ذلك الشيء ؟"، أخذ يمعن النظر في حيرة ثم قال "الأمر ليس بسهل ... هذا الشكل ينقصه التماثل البسيط الذي يشبه أي مجسم أفلاطوني، وإن كان له تماثل من نوع أرقى"، عندما أمر بشم ذلك الشيء، نظر في حيرة ثم استجاب للأمر وفجأة رجع إلى صوابه قائلا : " جميل ! زهرة صغيرة ! ".

لم ينس الدكتور .P كلمة زهرة أو مفهوم الزهرة، بل فقد القدرة الرتيبة – قدرتنا على رؤية الأشياء المعتادة والتحدث عنها – لوضع كم من الصور المرئية للون الأحمر والأخضر معا في كل مترابط لتكون النتيجة شيئا معينا ينتمي لفئة الزهور، لقد مكنه النصف الأيسر السليم من مخه من تكوين وصف دقيق ومفصل عن كل جزء من الشيء الذي يراه وكذلك التعبير عن ذلك الوصف بلغة إنجليزية سليمة، لكن عجز النصف الأيمن التالف عجز التعامل مع المعلومات المرئية، لهذا لم يقو على إمداد النصف الأيسر بفكرة مترابطة تنم على تسمية هذا الشيء، يكمن الخلل في المعالجة المرئية فقط، ففي الوقت الذي توافرت به المعلومات غير المرئية – الشم في حالتنا هذه – أدى النصف الأيمن من المخ وظيفته بكفاءة، ولم يجد الدكتور .P أدنى صعوبة في التعرف على الرائحة المعتادة للزهرة وتفسير ما تعنيه هذه الرائحة.

نتج عن عجز الدكتور .p أمر مؤسف للغاية وهو فقدان القدرة على التعرف على الوجوه، إنه لم يتمكن من معرفة أكثر الوجوه ألفة لديه فحسب بل إنه أيضا لم يستطع الجزم بكون الشيء الذى ينظر إليه وجها أم لا، عندما اختُبر فى هذا الأمر بعرض صور فوتوغرافية عليه لم يتمكن من التعرف على أغلب الأشخاص بالصورة بما فيهم أخيه وزوجته ونفسه، تسنى له من حين لآخر التعرف على شخص ما عن طريق التقاط واحدة أو اثنتين من الصفات المميزة له : على سبيل المثال، كان عند رؤية الشعر والشارب الكثيف يخمن أن الشخص الذى بالصورة هو "ألبرت إينشتين"، لكن عجزه بلغ المدى عندما كان يربت على رأس عداد وقود السيارات مدعيا أنهم أطفال، وكان يحاول الدخول فى حوارات مع النقوش المنحوتة على الأثاث معتقدا أنها وجوه.

لا يعد عجز الدكتور .P عجزا لغويا بصفة أساسية رغم تبعاته التى لا يمكن إغفالها والتى أثرت بدورها فى استخدامه للغة بشكل طبيعى، قد تفصح قدرات النصف الأيسر للمخ عن اتصالها بالجانب اللغوى بعدة طرق مباشرة، تتمثل إحدى هذه الطرق فى التعبير عن المشاعر، فنجد بعض المصابين بتلف بنصف المخ الأيمن يفقدون القدرة على التعبير عن عواطفهم – بالرغم من أنهم لا يزالون يشعرون – ونتيجة لذلك يأتى حديثهم – الذى يكون طبيعيا بخلاف هذا الجانب – فاترا بلا حياة وآليا بل فى أغلب الأحيان ميكانيكيا، كما تبقى وجوههم مسمطة وإن تأرجح شعورهم ما بين الزهو والامتعاض، عادة يتمكن المصابون بتلف النصف الأيسر للمخ الحاد، والذين فقدوا القدرة على الكلام تماما – من الغناء وفى بعض الأحيان يكون غناؤهم جيدا كما يستطيعون تعلم الأغنيات الجديدة : يبدو ظاهريا أن تعلم كلمات الأغنيات الجديدة والقدرة على النطق بها وظيفة من الوظائف الموكل بها نصف المخ الأيمن، مما يثير الدهشة احتفاظ العديد من هؤلاء الناس بقدرتهم على القسم كضباط البحرية – يبدو أن نصف المخ الأيمن به بعض المفردات ! (فى الواقع هناك من الأسباب ما يجعلك تعتقد بأن القسم – مثله فى ذلك مثل الضحك والبكاء والصراخ – لا تحكمه القشرة المخية على الإطلاق ، بل يقع تحت تأثير جزء من المخ أعمق قليلا وأكثر قدما).

يدعو أمر مستخدم لغة الإشارة المصاب بتلف النصف الأيمن من المخ إلى الدهشة، فمن شأن هذه الإصابة إتلاف القدرة على التعرف على تعبيرات الوجه العادية، ولكن هذا لا يفقد المصاب القدرةعلى استخدام تلك التعبيرات والتى تعد جزءاً

من القواعد النحوية للغة الإشارة - في ذلك برهان على أن استخدام اللغة للتعبيرات يحكمه جزء من المخ مختلف عن ذلك الجزء الذي يتولى أمر التعبيرات غير اللغوية - كذلك يُحدث تلف النصف الأيمن للمخ عجزا من نوع غريب يطلق عليه "إهمال اليسار" : فيه يفشل المصاب بالرغم من كونه مبصرا في رؤية أي شيء يقع جهة اليسار، كما أنه يفشل في رسم الجانب الأيسر في أية لوحة فنية يقوم بتصويرها، حتى إنه يفشل في ارتداء الملابس بالجزء الأيسر من جسده، لكن مستخدم لغة الإشارة الذي يعاني من نفس هذا النوع من العجز يستخدم الجانب الأيسر من مجال الرؤية بصورة طبيعية عند الإشارة، في هذا دليل آخر على استقلال الخصائص اللغوية بدرجة كبيرة عن غيرها من الخصائص، أولنقل الوظائف غير اللغوية للمخ.

تمثل الطريقة التي تحفظ بها الكلمات داخل المخ واحدة من الأمور التي تبعث على الحيرة، في اعتقادنا أن منطقة ويرنك تلعب دورا حيويا كسبيل لدخول المفردات، وهذا لا يعني أن الكلمات تحفظ داخل تلك المنطقة، إننا متأكدون تماما من هذا الأمر، جاء عدد من حالات عجز اللغة أثناء السنوات القليلة الماضية بأفكار جديدة ولكنها لم تزدنا إلا دهشة وحيرة، فقد عاني معظم المصابين بالحُبْسة من عرض العجز عن إيجاد الكلمات المعبرة عن الأشياء، كما أن بعضا منهم - وإن كان يمارس الحديث بصورة طبيعية - يكاد لا يجد أية كلمات على الإطلاق، هذا وتظهر عند مرضى بعينهم أنماط من الحبسة لا يصاحبها أية أعراض،إليك النموذج التالي:

ورد أن العديد من المصابين لم يقابلوا أية صعوبة في إيجاد مسميات للأشياء غير الحسية (الجمادات) مثل الكرسي والطريق، في الوقت الذي لا يمكنهم إيجاد مسميات تعبر عن الكائنات الحية مثل سيدة وكلب، هل يعني ذلك أننا نحتفظ بالكلمات الدالة على الكائنات الحية في مكان مخصص بالمخ؟ في حالة أخرى نجد رجلا فقد كل الكلمات الدالة على الفواكه والخضراوات فقط: ليست عنده أية مشكلة من أي نوع بشأن كلمات أخرى، فمشكلته تكمن في أنه لا يستطيع تسمية أي نوع من الفاكهة أو الخضروات سواء تم إمداده بوصف لذلك النوع أو صورة له أو حتى إعطائه إصبع موز أو ثمرة خيار، كما أنه لا يمكنه الجزم إذا ما كان الشيء الذي بيده والذي يمثل له مشكلة نوعا من الخضروات أم الفاكهة، يبدو الأمر غير معقول إذا اعتقدنا أننا نحتفظ

بالكلمات الدالة على الخضروات والفاكهة بمكان ما داخل المخ، كما أن عدداً قليلاً من اللغويين سوف يقتنع بهذه النتيجة، إذن كيف يمكننا تفسير ما يحدث لهذا المريض؟

ربما تكون حالة السيدتين اللتين سنتحدث عنهما فيما بعد من أكثر الحالات إثارة للدهشة، إنهما يعانيان من سكتة دماغية بالنصف الأيسر للمخ، ولقد ثبت أنهما لا يواجهان أية صعوبات عند استخدام الأسماء، بل تكمن الصعوبة القصوى في الأفعال حتى وإن كانت الكلمة التي تعبر عن كل من الاسم والفعل كلمة واحدة، إنهما لا يواجهان أية صعوبة في نطق وكتابة الجمل "There's milk in the glass" (يوجد لبن بالكوب) أو "That's a nice picture" (إنها صورة لطيفة)، في كلتا الجملتين كلمتي (لبن ، صورة) أسماء، أما في الجمل التي تكون فيها هاتين الكلمتين أفعالا مثل "She can milk a cow" (إنها تستطيع حلب البقرة) أو "Try to picture the scene" (حاول رسم المشهد) فإنهما لا تحسنان التصرف حتى إن كانت الجملة تملى عليهما ويطلب منهما كتابة كلمة واحدة بها. فإنهما في هذه الحالة يستطيعان كتابة الاسم وليس الفعل، يرجع هذا الأمر أن الأسماء والأفعال تحفظ بأماكن مختلفة بالمخ، يتقبل العديد من اللغويين هذه النتيجة أكثر من تقبلهم للنتيجة الخاصة بأسماء الفاكهة والخضر، هذا ولم يتسن لنا بعد معرفة كيفية تخزين الكلمات، أي أن كل ما تم لنا معرفته زاد الأمر تعقيدا.

يعد فقدان بعض المرضى للغات بأكملها أمرا من الأمور التي نقف أمامها مكتوفي الأيدي ولا تزيدنا سوى حيرة، يفقد الكهول الذين تعلموا لغات عديدة في مراحل متقدمة من حياتهم – الذين أصيبوا بمرض يتلف العقل كالزهايمر – اللغة تلو الأخرى ولكنهم في الأغلب يحتفظون بلغتهم الأم أطول فترة ممكنة، بينما يفقد صغار السن – الذين يتحدثون لغتين أو ثلاث والذين تعرضوا لتلف بالمخ – كل اللغات التي تعلموها مرة واحدة ويستعيدونها كذلك مرة واحدة وبسرعة كبيرة، فعلى سبيل المثال فقد أحد الكنديين الفرنسيين – ثنائي اللغة– لغته الفرنسية وأبقى الإنجليزية فأصبح لا يستطيع التحدث مع زوجته الفرنسية أحادية اللغة، بعد مرور أسبوع استعاد اللغة الفرنسية وفقد الإنجليزية فأصبح لا يمكنه الحديث مع الأطباء والمرضات بالمستشفى التي يتلقى بها علاجه، يستمر الأمر هكذا في بعض هذه الحالات لمدة شهور وما من أحد يمكنه تفسير ما يحدث.

في الواقع، اكتشف أن المصابين بالحُبسة يعانون من مجموعة أعراض يمكن التعرف عليها : فمنهم من يستطيع التحدث وليس القراءة، ومنهم من يمكنه القراءة وليس الكتابة، ومنهم من يتمكن من الكتابة وليس القراءة (حتى قراءة شيء تم لهم كتابته منذ فترة وجيزة)، مكنت هذه الملاحظات المحيرة العديد من المتخصصين من الوصول إلى نتيجة مفادها أنه من الواجب أن تكون قدرتنا اللغوية مجزأة إلى حد ما ، أي لا تكون كلا واحدا بل يجب أن تقسم إلى عدد من التقسيمات الجزئية المميزة، كل منها يشغل جزءًا مختلفا من الألياف العصبية بالمخ، لا تعد هذه النتيجة أمرا مفاجئا بالرغم من كونها باعثة لكثير من النقاش ، بما أننا أدركنا جزئية خصائصنا العقلية – كما يتراءى لنا من تجربة الدكتور .P – تعتبر الرؤية جزئية فالأجزاء المختلفة من المخ تتولى مسئولية الجوانب المختلفة للرؤية، إذن فلماذا نتوقع أن تكون اللغة مختلفة عن ذلك؟

كما أننا ندرك تمام الإدراك أن عملية معالجة اللغة جزئية، فعلى سبيل المثال يقوم المخ دائما عند سماع شخص ما يتحدث بتحليل أصوات الكلام إلى ثلاثة مكونات كحد أدنى وهي : هوية الصوت، ونبرة الصوت (غاضبا أو فرحا أو غير ذلك)، والمحتوى اللغوي، حتى وإن كنا نستمع إلى لغة أجنبية لم يسبق لنا معرفتها، يمكننا التعرف على أصواتها المفردة واستنتاج نبرتها، ولكن يظل الجانب اللغوي غير واضح بالنسبة لنا، من الواضح أن المخ يكون فواصل بين هذه الأشياء الثلاث ويتعامل معها كل على حدة.

النفس المقسمة :

تظهر أعراض مرض الصرع الحاد على شكل صدمة كهربائية تصيب المخ : ففي إحدى نوبات هذا المرض تتدفق دفعات من المؤثرات العصبية على المخ باتجاه دائري مما يجعله غير قادر على القيام بوظائفه الطبيعية فلا يستطيع المصاب التحكم في نفسه، توصل الجراحون منذ سنوات قليلة مضت إلى طريقة يتم بها تقليل ثورة ذلك النشاط العصبي هذا وهي قطع الجسم الجاسئ.

يمثل الجسم الجاسئ – كما سنذكر – العنصر الوحيد الذي يصل ما بين نصفي المخ الأيمن والأيسر، لذا فإن قطعه سينهي أي اتصال ما بين النصفين، لكن هذه الطريقة تؤدي في أغلب الحالات إلى إرضاء المرضى الذين يعانون من هذا المرض المزمن إلى حد كبير، لذلك قنع العديد من المرضى بإجراء العملية على أمل أن يحيوا الحياة الطبيعية والخالية من النوبات الصرعية الحادة والمدمرة، بالفعل تم لهم الخلاص من تلك النوبات ، لكن ماذا يكون شكل الحياة بمخ مقسم؟

تكون الحياة غريبة، وإن كانت هذه الغرابة لها معنى فى إطار ما ذكرناه بشأن وظيفية المخ ، انقسامه إلى نصفين كل منهما ذى وظيفة محددة.

هب جدلا أن شخصا سليما وطبيعيا ويملك مخا مقسما أعطى مطرقة، سيتمكن بالفعل من استخدامها بكلتا يديه وبصورة طبيعية، إذا أمسك المطرقة بيده اليمنى، سيتمكن من فهم وتلبية التعليمات الموجهة إليه بفعل شيء ما بهذه المطرقة، لكنه لن يفعل شيئا إذا أمسكها بيده اليسرى، إنه يستوعب التعليمات بدقة ويمكنه شرح المطلوب منه فعله ، ولكنه لا يستطيع فعله، فلماذا؟

يمكننا تفسير ما يحدث على النحوالتالي : تشغل مناطق اللغة حيزا من النصف الأيسر للمخ الذى يتحكم باليد اليمنى، لذلك يستطيع هذا النصف تفسير التعليمات المشار إليه بفعلها وتوجيه اليد اليمنى لفعل المطلوب، بينما يتحكم النصف الأيمن باليد اليسرى، وفى حالة قطع الجسم الجاسئ لا يجد النصف الأيسر سبيلا للاتصال بالنصف الأيمن الذى لا يملك خصائص لغوية خاصة به، من هنا يمكن للنصف الأيسر فهم التعليمات ولا يمكنه توصيلها لليد اليسرى، تؤكد هذه النتائج بما لايدع مجالا للشك أن اللغة تقع بالنصف الأيسر من المخ وحده عند أغلب الناس.

أثبتت الدراسات التى أجريت على المصابين بانقسام المخ أن النصف الأيمن منه لايخلو تماما من الإمكانات اللغوية، فهناك تقنيات بسيطة تمكنه من توصيل كلمات أو أشياء محسوسة لعين واحدة أو أذن واحدة فى المرة الواحدة، لا يجد المصاب بانقسام المخ أدنى صعوبة فى فهم أو شرح الكلمات التى تأتى إلى العين اليمنى أو الأذن اليمنى (مسئولية النصف الأيسر)، ولكن حتى إذا استقبلت العين أو الأذن اليسرى المنبه يستطيع النصف الأيمن التعرف على عدد ضئيل من هذه المنبهات، أى أن القدرة اللغوية للنصف الأيمن محدودة للغاية ولكنها غير منعدمة.

قد يبدو سلوك بعض المصابين بانقسام المخ غير متوقع بالمرة فى بعض الحالات، معظمهم عندما يرى صورة إباحية تعرض على عينه اليسرى فقط ربما يحمر خجلا أو يقهقه ولكنه لا يستطيع وصف ما رآه بل يصر على أنه لا يرى شيئا على الإطلاق، كما شكت إحدى السيدات من معاناتها فى اختيار ملابسها بالصباح لأن يديها تصر على اختيار شيء لا ترغبه هي، كما أنها عندما تقوم بقراءة كتاب يجب عليها أن تجلس على إحدى يديها التى تدير الصفحة كلما همت بالقراءة، أذهل هذا السلوك كلا من علماء

اللغة العصابيين والفلاسفة. إنه يوحي بأن كل نصف من المخ له ذاتيته وشعوره، وهما يندمجا فيصبحان شيئا واحدا عن طريق الجسم الجاسئ وعندما يفقد هذا الاندماج يذهب معه نصفا المخ كل في طريق.

أشياء مضحكة، وألسنة :

يعرف علم اللغة النفسي بأنه دراسة العلاقة ما بين اللغة والعقل، يعني علماء اللغة النفسيون بصفة أساسية بطريقة معالجة اللغة : فهم يهتمون كثيرا بالخطوات التي من خلالها تخرج اللغة وتفهم، لقد أعد هؤلاء المتخصصون عددا من التقنيات المتماثلة لاختبار ما يقوم به الأفراد عند إسناد مهام مختلفة لهم في إطار مناخ تجريبي، تبعا لذلك تم استخلاص مجموعة من المعلومات القيمة من الحديث التلقائي لهؤلاء الأفراد بجانب الأفعال العملية، وواحد من أروع الأشياء التي تدور في فلك الحديث التلقائي هو حدوث هفوات اللسان.

يطلق أحيانا على هفوات اللسان – أو لنقل الأكثر شهرة منها – اسم " السبونرية" نسبة إلى السيد المبجل " و.أ.سبونر " بنيو كولدج، جامعة أكسفورد الذي أنتج العديد من تلك الهفوات.

بالمثل تنتمي الكلمات المحولة إلى نفس الفئة النحوية بشكل أو بآخر، يقول الناس أشياء مثل " He threw the window out the clock" (ألقى النافذة من الساعة) وبها أسماء محولة، أو " Please wash the table and clear the dishes" (من فضلك اغسل المائدة ورتب الأطباق) وبها أفعال محولة ، لكنهم لا يقولون مطلقا أشياء مثل "He clocked the throw out the window" وبها الأسماء والأفعال محولة.

يتمثل الاكتشاف الثالث في الكلمات التي يتم استبدالها بكلمات أخرى، في هذه الحالة تكون الكلمة المستخدمة قريبة الصلة في معناها بالكلمة التي كان من المفروض استخدامها، لذلك نجد جملا مثل " Her marriage broke up an hour and a half ago لقد انفسخ عقد زواجها منذ ساعة ونصف) (المقصود منذ سنة ونصف مضت)، "I really like to get up in the morning" (أحب حقا أن أستيقظ في الصباح) (المقصود أكره حقا الاستيقاظ في الصباح).

استكمالا لتلك الاكتشافات، وجد أن هفوات اللسان يتكرر حدوثها مع الكلمات ذات المعنى التي يتغير ترتيبها وليست الكلمات العديمة المعنى : لهذا يحدث أن يقول بعض الناس "rare bug" (بق نادر) والمقصود بها "bear rug" (دثار الدب)، ولا يحدث أن تقال جمل مثل "tinner dable" والمقصود منها " dinner table" (مائدة الغداء)، دائما نجد الكلمات التي تم تغيير ترتيبها أو استبدالها بكلمات أخرى كلمات فعلية، يقول البعض : " to go first and girl" (الأول والفتاة) والمراد هو مصطلح من كرة القدم الأمريكية يعني "first and goal to go" (الهدف الأول وليس الأخير).

جاء عالم النفس "فرويد" باستنتاج في شأن هفوات اللسان لاقى قبولا كبيرا، فقد رأى أن تلك الهفوات ما هي إلا إعلان عن الاضطرابات الخفية التي يكابدها المتحدث وبخاصة تلك الاضطرابات الجنسية، يؤيد هذا الاستنتاج مجموعة متواضعة من الأدلة القائمة علي العناصر الحكائية، فمثلا في أحد المواقف صدر عن مجموعة من طلبة الجامعة كماً من الهفوات أثناء اختبارهم من قبل سيدة جميلة، ومن تلك الهفوات قولهم "fast passion" (عاطفة) بدلا من "past fashion" (موضة منقضية)، ولكن لا ترقى مثل هذه الهفوات إلي منزلة الأغلبية.

مما يدعو للدهشة احتفاظ هفوات اللسان بالتركيب اللغوي، قالت أم لولدها "brush your bed" بدلا من "brush your teeth and make your bed" (نظف أسنانك ورتب مضجعك)، في ضوء ذلك استنتج بعض الباحثين أن المخ البشري يحتوي على ما يشبه المحرر الذي يفحص المقاطع الكلامية حتى تكون محتفظة بالتكامل اللغوي.

تمثل ظاهرة انقلاب اللسان من المشاكل المألوفة الخاصة بالكلام، إننا نمر بهذه المشكلة من وقت لآخر، فنحن أثناء حديثنا نتوقف فجأة للبحث عن كلمة ما أو اسم معين ولا نجده، يخبرنا الكاتب أنه في محاولة لتذكر لقب المحرر أخذ يفكر قائلا" : أعرف أن الاسم قصير يتكون من أربعة أو خمسة حروف وربما يتكون من مقطع واحد، ولكن للحظة واحدة استطعت فقط تذكر البداية، شيء يشبه الأسماء "إيفانز" و "جونز" ثم "دل" و "هيل" إلى أن قفز الاسم الصحيح إلى خاطري : "هال".

إن السبب وراء حدوث ذلك غير معروف : إن قدرتنا الطبيعية على إيجاد مسميات للأشياء – والتي تعمل بصورة ميكانيكية سريعة – على إيجاد الكلمات تتعطل عند

الرغبة في إيجاد عنصر ما، إن هذا العنصر المفقود يمكن استعادته ببذل جهد غير عادي، تعد الطريقة التي يتدرج بها ذلك الجهد المبذول في عملية انقلاب اللسان من النقاط الجديرة بالاهتمام.

يقول الكاتب أنه في حالته كان كل ما يتذكره هو قصر الاسم المفقود وتكونه من مقطع وحيد، بالرغم من ذلك أثبتت الدراسات التي أجريت على الظاهرة أن المتحدث الذي يبحث عن الكلمة المفقودة يمكنه تذكر معظم المعلومات غير المتوقعة عنها ولا يمكنه تذكرها في اللحظة ذاتها، لابد أنك معتاد سماع جمل مثل " إنني متأكد أنه يحتوى على الصوت "m"، كذلك يمكننا تذكر طول الكلمة – مثلما حدث لكاتبنا – أو حتى عدد المقاطع التي تشتمل عليها بدقة، مثلما يمكننا تذكر أصوات أو حروف معينة تشملها هذه الكلمة، كما يمكننا أيضا تذكر مقاطع بأكملها، الشيء المدهش هو تواجد الدليل القاطع على أن بداية الكلمة المفقودة ونهايتها يسهل تذكره عن وسطها وهى الظاهرة التي أطلق عليها بعض علماء اللغة النفسيين "تأثير حوض الاستحمام" لأنها تذكرهم بشخص يرقد في الحمام ورأسه وقدمه خارج المياه (يرى وجوب أن يأخذ هؤلاء العلماء حماما ممتعا)، إن الشخص الذي يبحث عن كلمة "silicosis"(السِّليكي)[٨٦] ويأتي بكلمة "psittacosis" (داء الببغاء)[٨٧] – يوضح هذا الاتجاه جيدا.

يسبب التشابه بين الكلمات حدوث التخمين الخاطئ، فعند البحث عن الصفة "articulate" (بيِّن القول) قد ترد إلى أذهاننا صفات مثل "ثرثار" و"كثير المزاح" و"لبق" و"كثير الكلام" وكلها صفات تتشابه في معانيها، كذلك عندما يبحث شخص ما عن "المجزر رقم ٥" (عنوان كتاب) لا يتذكر سوى "درجة ٤٥١ فهرنهيت" (عنوان لكتاب آخر ينتهي برقم)، في إطار بحث اللغوي "بول شاشتر" عن الاسم "Olivia Newton-John" ورد إلى ذهنه الاسماء "Harriet Beecher Stowe" و "Enda May Oliver" (أسماء لسيدات تتكون من ثلاث كلمات) وكذلك الأسماء "Debbie Harry" و"Helen George" (أسماء لسيدات تصلح أن تكون أسماء لرجال أيضا) دفع هذا الاستنتاج الأخير شاشتر إلى تذكر الاسم الصحيح.

(٨٦) داء رئوي متميز بقصر النفس ناشئ عن تنشق متكاول لغبار السليكا .

(٨٧) مرض من أمراض الطيور يتميز بالإسهال والهزال .

تخبرنا مثل هذه المعلومات بوضوح الطريقة التي تحفظ بها المفردات داخل المخ وكيفية استعادتها وقت الحاجة إليها، يبدو بصورة واضحة أن المخ لا يخزن الكلمات مثلما تخزن الخمر في زجاجات، بل يبدو أن الكلمات تخزن ويربطها بالكلمات الأخرى عدد لا حصر له من الروابط : روابط تربط ما بين الكلمات المتشابهة في الصوت والهجاء، الكلمات المرتبطة ببعضها بعضا من ناحية المعنى، الكلمات المنتمية لنفس الفئة النحوية، أو تلك التي تربطها أية صلة يمكن التسليم بها طبقا لخبراتنا ومعارفنا الحياتية، تقترح خبرة "شاشتر أن الروابط غير المتوقعة مثل "Women whose sur-name are men's given names" (ألقاب النساء التي تصلح أن تكون أسماءً للرجال) تتواجد بالفعل داخل المخ، إننا في الوقت الحالي لا نمتلك الفكرة الواضحة التي تبين لنا ما نفعله بمثل هذه الملاحظات، ولكنها على جانب من الأهمية.

ما لون اسمي ؟

تذكر الصحفية " أليسون موتلوك " أن معلمة اللغة الإنجليزية بالمرحلة الثانوية طلبت منها تفسير اسم إحدى الشخصيات التي تضمها القصة القصيرة التي كتبتها، ولكن "أليسون" مرت قائلة : "إنها تريد اسما قويا ذا لون أحمر" – ماذا تعنيه باسم ذا لون أحمر ؟ إنها تعني نفس المعنى الذي تبغيه عندما تتحدث عن إشارة المرور الحمراء، فالأسماء عند "موتلوك" ملونة كالأشياء الحسية، وليس الأسماء فقط بل كل الكلمات والأرقام وحروف الهجاء.

يطلق على هذه الظاهرة اسم الأصوات الرامزة، وهي تؤثر على شخص واحد من بين خمسة وعشرين ألفًا، يستقبل هذا الشخص بصورة ثابتة وابلاً من التعبيرات الحسية لا يلحظها غيره من الذين لا يملكون ظاهرة الأصوات الرامزة : من ضمن أقوالهم أن لون الطلاء الأبيض رائحته زرقاء، العشب رائحته قرمزية، صوت الطائرة الهليكوبتر المحلقة أخضر، مذاق الليمون شائك وكذلك مذاق الشيكولاتة ، الصوت الصائت "o" في كلمة "coo" (هديل الحمام) يبدو وكأن لونه أصفر بالرغم من تنوع استجابات هؤلاء الأشخاص فيما بينهم، فإن كلا منهم يظل ثابتًا في استجاباته : أي عندما يختبر أي منهم على فترات زمنية تمتد لعدة أسابيع يكشف ذلك عن حدوث نفس الاستجابات بشأن نفس الأصوات الرامزة.

لا تمثل اللغة عند الأشخاص الذين يمارسون ظاهرة الأصوات الرامزة مجرد شيء مسموع، إنهم يرونها وكأنها كرنفال من الألوان، وقد تم في لندن مؤخرا فحص مخ جماعة منهم وهم معصوبي العينين عن طريق المسح الضوئي باستخدام أشعة إكس وذلك وقت استماعهم لكلمات وأصوات، أثبت هذا الفحص أنه عند سماعهم لشيء ما فإن مناطق الرؤية بالمخ تنشط وبخاصة المناطق المعروف عنها التحكم بالألوان بينما لا يحدث هذا النشاط عند الأشخاص الذين لا يمارسون هذه الظاهرة.

إن الأشخاص الذين تظهر عندهم ظاهرة الأصوات الرامزة يكتسبونها منذ الصغر وربما منذ ميلادهم، لذا فهم يصابون بالدهشة عندما يعرفون أن هناك أشخاصا لا يمارسون هذه الظاهرة، إننا لا نملك أدنى فكرة عن الطريقة التي تعمل بها الأصوات الرامزة، كل ما نعرفه هو أن المالكين لهذه القدرة من الناس لديهم روابط إضافية داخل المخ لا يملكها غيرهم، علاوة على ذلك، خمن بعض الباحثين أن كل الأطفال يولدون بها لفترة ولكنها تختفي عند معظمهم باستثناء القلة القليلة، هذه الفكرة يؤيدها عدد قليل جدا من الأدلة.

إنه من اليسير التيقن بالفكرة القائلة بأن الممارسين لظاهرة الأصوات الرامزة أناس محظوظون لدرجة كبيرة، فهم يعيشون في عالم بديع يكون فيه أغلبنا مصابين بالعمى، الشيء المذهل هو إثبات الدراسات الحديثة بأن هؤلاء الناس لا يمثلون نسبة عشوائية من سكان منطقة ما، تبلغ نسبة الذين يستخدمون يدهم اليسرى بدلا من اليمنى أو الذين لديهم القدرة على استخدام كلتا يديهم أكثر من خمسين بالمائة، كلهم يمتلكون ذاكرة حادة وأغلبهم ضعيف في الرياضيات وهم دائما ما يضلون الطريق، كما يسرد العديد منهم خبرات غريبة مثل الاعتقاد بأنهم قد ارتادوا مكانا ما من قبل بالرغم من أن زيارتهم لذلك المكان هي الزيارة الأولى، والأحلام التنبؤية والاستبصار، كما أن الغالبية العظمى منهم نساء، وهذا الاكتشاف الأخير أعاد الحياة إلى الفكرة القديمة التي نادى بها الكثير وأيدها القليل من الأدلة، والتي تذهب إلى اختلاف تركيب المخ عند كل من الرجال والنساء، يصعب علينا الآن استنباط أية نتائج محددة من دراسة ظاهرة الأصوات الرامزة، وقد خلصنا من الأدلة القاطعة الآخذة في الازدياد أن خصائص اللغة تستقل كلية عن الوظائف الأخرى للمخ، وفي الوقت ذاته بدا لنا بوضوح أن تلك الخصائص تتصل ببقية أجزاء المخ بواسطة طرق معقدة وغريبة.

الفصل السابع

الأطفال واللغة

تتوافر في أغلب صغار الثدييات (باستثناء الكنغر) درجة معينة من التطور لا تظهر في المراحل المتقدمة من عمر الأطفال، فصغير الدب يتمكن من الانتصاب والسير في غضون دقائق من ميلاده في حين أن الطفل لا يمكنه الالتفات أو الزحف قبل بلوغه عدة أشهر من العمر، عند ميلاد الطفل لم تكون جمجمته قد تكونت بالكامل، فالغمد النخاعي الذي يفصل بين الخلايا العصبية بالمخ لم يتطور بالدرجة الكافية، كما أن النظام البصري بالمخ لم يتم له بعد العمل بكفاءة؛ لذلك كان من ضمن التقديرات التي قيلت في هذا الشأن ألا يولد الطفل قبل بلوغه من العمر ثمانية عشر شهرا بدلا من تسعة أشهر.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا نولد عند مرحلة نكون فيها ناقصي النمو؟ لا توجد إجابة مباشرة للسؤال ولكن كل ما في الأمر أنه بسبب رأس الطفل الضخمة والتي تكبر تبعا لمخه الكبير الحجم يكون من الصعب عليه حتى في الشهر التاسع من الحمل شق طريقه خلال قناة الولادة، لذلك من المتوقع أن تتحول عملية الولادة - إذا تأخرت شهرا أو أكثر بعد الشهر التاسع - إلى عملية مستحيلة، بالإضافة إلى ذلك تفوق عملية الولادة عند البشر مثيلتهاعند بقية المخلوقات في الصعوبة ودرجة الألم والخطورة، كما أنه ليس ببعيد أن يصاب مخ الطفل بالتشوه أثناء تعرضه لصدمة الميلاد.

يظل الطفل لسنوات عدة بعد ميلاده عاجزا لدرجة كبيرة، ومتواكلا على والديه كلية من أجل أن يستمر في الحياة، إنه لا يفعل شيئا طوال هذه الفترة من حياته سوى تعلم اللغة.

يعد اكتساب اللغة من أكثر الأمور - روعة وجمالا - التي يمكننا إنجازها على مدار حياتنا بأكملها، فنحن نتعلمها في عمر نكاد نكون لا نفعل به أي شيئا آخر، كما تعد اللغة الشيء الوحيد الذي يتمكن الأطفال من تعلمه ببراعة أكثر من البالغين، لأنه

من الممكن لأى طفل صحيح بدنيا تعلم اللغة المحيطة به بكفاءة، بينما يعجز عن أداء هذا العمل البطولي غيره من البالغين، كيف يقوى الأطفال على فعل ذلك الأمر؟ وكيف يمكنهم اكتساب لغتهم الأم؟

أسند العديد من الناس – منذ سنين قليلة مضت – اكتساب اللغة إلى عمليتي التقليد والتدعيم، يحاول الطفل ببساطة – طبقا لهذه الرؤية – تقليد ما يقوله الكبار، وإذا ما أبلى بلاء حسنا فى تقليده هذا يُكافَئ بالمدح والإطراء، أما إذا حدث العكس فإن صنيعه هذا يقابل بالاستهجان والتصويب، تبعا لذلك ينتقل الطفل فى تقليده للكبار من أفضل إلى أفضل إلى أن يصل إلى تلك الحالة التى يكون فيها قد تعلم اللغة.

يعد إثبات خطأ أسلوب "التقليد والتدعيم" من أبرز إنجازات علم اللغويات فى السنوات الأخيرة وأكثرها ثباتا، فهو أسلوب من شأنه عدم تمكين الأطفال من تعلم اللغة على الإطلاق، إننا نعرف الآن جيدا كيفية تعلم الأطفال اللغة، وكيف أن الطريقة التى تعلمهم اللغة تعد أفضل بكثير مما يقوم به أسلوب التقليد الذى يتسم بالقصور.

سنبدأ بوصف لما يمكن ملاحظته عند متابعة طفل يكتسب لغته الأم، ومن تلك الملاحظات نصل إلى بعض النتائج الأولية، سنتبع ذلك بملاحظة اكتساب اللغة فى ظروف غير عادية لمعرفة مدى صحة هذه النتائج، وسوف نسوق الأدلة من حالات أطفال يعانون عجزاً.

ما لاحظناه :

يبدأ اكتساب اللغة فى مرحلة مبكرة للغاية ترجع إلى ما قبل ميلاد الطفل، فقد أثبتت الاختبارات أن الأطفال حديثى الولادة المنتمين إلى أم فرنسية وبيئة متحدثة للغة الفرنسية أيضا يفضلون الاستماع إلى تسجيلات ناطقة باللغة الفرنسية وليس بأية لغة أخرى، لابد وأن تنغيم اللغة وإيقاعها يجذبهم، كما أننا نفترض اعتيادهم على استماع هذين العنصرين وهم لا يزالان داخل الرحم (بانتقال الصوت عبر بطن الأم)، يبدو حقا أن الأطفال – فى تلك المرحلة المتقدمة من العمر – يبدون فى استقبال اللغة المحيطة بهم بل يعيرونها اهتماما خاصا.

يمر كل طفل صحيح بعد ميلاده بمراحل محددة لاكتساب اللغة وذلك وفقا لترتيب لا يتغير، ولكن قد يختلف هذا الترتيب بشكل أو بآخر عند بعض الأطفال.

يبدأ الطفل - في سن شهرين تقريبا - إصدار صوت كهديل الحمام، أصوات تشبه الضوضاء المألوفة التي يصعب وصفها، تتحول تلك الأصوات إلى البأبأة في سن ستة أشهر، وهي نوع من الألعاب الصوتية تتضمن سلسلة من المقاطع التي تفتقد إلى المعنى والترابط، يصدر الأطفال غالبا في مرحلة البأبأة أصواتًا لا تتواجد في البيئة المحيطة بهم كما لو أنهم يدربون جهازهم الصوتي، ثم تبدأ الأصوات التي يصدرونها بعد ذلك في التشابه مع لغتهم شيئا فشيئا، تبدأ البأبأة - بصفة خاصة - في عرض تنغيمات مطابقة للغة المحيطة بالطفل، وقد أثبتت التجارب أنه في مثل هذه المرحلة من العمر تستطيع الأم الفرنسية التعرف على الأطفال الفرنسيين (بخلاف طفلها) بمجرد الاستماع إليهم، كما ينطبق الأمر ذاته على الأمهات المتحدثات للإنجليزية والروسية والعربية، يفشل عدد قليل جدا من الأطفال في إحداث البأبأة ولا يُعرف سبب لذلك.

يبدأ الطفل أحيانا في سن من عشرة إلى اثنى عشر شهرا في إنتاج كلمات مفهومة، وقد جرى العرف أن يعتبر الطفل قد بدأ في الكلام عندما يصل هذه المرحلة، (من الطريف أن الإناث يبدءون هذه المرحلة قبل الذكور) تستمر مرحلة الكلمة الواحدة هذه لبعض الوقت حيث يضيف الطفل كلمات جديدة لمفرداته ببطء، لا تتزايد المفردات في تلك المرحلة بسرعة ولكنها تشمل العديد من الأنواع المختلفة للكلمات مثل (أب، كلب، ملعقة، حمام، ساخن، يأكل، فوق، وداعا، وحتى كلمة ذلك)، لا تتضمن هذه المرحلة أية كلمات نحوية كفعل يكون، ربما، من، إلى، الـ، كما أن الطفل لا يستخدم أية نهايات نحوية كعلامات الجمع والأزمنة الماضية.

يحدث أحيانا في سن ما بين ثمانية عشر شهرا وأربع وعشرين شهرا شيء هام، حيث يبدأ الطفل في نطق مقاطع تتكون من كلمتين مثل : "جورب أبي"، "أريد عصيرا"، "أعطني ملعقة"، تسمى هذه المرحلة بمرحلة الكلمتين، التسمية هنا مثالية فالطفل لا يمكنه نطق أية مقاطع تشتمل على ثلاث كلمات مثل "أمي أحضري الكرة"، كل ما يمكنه قوله "أمي أحضري" أو "أحضري الكرة"، جدير بالذكر أن الطفل في هذه المرحلة يكاد لا يتفوه بكلمات مثل "الكرة أحضر"، والتي لا تتبع الترتيب السليم للكلمات، ومن هنا يكون الطفل قد اكتسب بعض القواعد النحوية، تذكر ما قلناه في الفصل الثاني بشأن الدور المهم الذي يلعبه ترتيب الكلمات في علم النحو وبخاصة فيما يخص اللغة الإنجليزية، بالإضافة إلى ذلك لا تزال الكلمات والنهايات النحوية غير متواجدة.

تبدأ مفردات الطفل – في نفس هذه المرحلة العمرية – في التزايد بسرعة أكبر مما كانت عليه، بحيث لا يستطيع الأبوان تسجيل الكلمات التي يعرفها طفلهما، يعتقد أن الطفل العادي يمكنه معرفة حوالي ١٠٠٠٠ كلمة قبل بلوغه سن الخامسة، وهذا يعني أن معدل تعلمه للكلمات يبلغ عشر كلمات في اليوم.

تستمر مرحلة الكلمتين شهورا عدة ثم " يبدأ الشقاء في الانفراج " وفق تعبير اللغوي "ستيفن بنكر"، تزداد المقاطع في الطول لتصل إلى أربع، خمس، ست، سبع، عشر كلمات وربما أكثر، تظهر الكلمات والنهايات النحوية وفي غضون شهور يستخدم الطفل أغلب الأشكال النحوية للكلمات والتي يستخدمها البالغون، كما تظهر كل أنوا ع التركيبات الجديدة مثل النفي والعبارات التابعة والأسئلة، ويستخدمها الطفل بسرعة ودقة وثقة أكبر.

إليك نموذج لمقاطع طفل شهير عُرف في الأدب الإنجليزي باسم "آدم" ، وقد قام بدراسته اللغوي "روجر براون"، كان "آدم" في سن سبع وعشرين شهراً لا زال ينطق مقاطع من كلمتين مثل **big drum** (طبلة كبيرة)، كان يقول قبل بلوغه الشهر التاسع والعشرين **"what that paper clip doing"** (ماذا يفعل دبوس الورق هذا؟)، قبل الشهر الثاني والثلاثين **"let me get down with the boots on"** (دعني أنزل بالحذاء الطويل)، قبل الشهر السادس والثلاثين **"you dress me like a baby elephant"** (إنك تجعلني أرتدي الملابس مثل صغير الفيل)، قبل الشهر الثامن والثلاثين **"can I put my head in the mailbox so the mail man can know where I are and put me in the mailbox"** (هل أستطيع وضع رأسي في صندوق البريد فيعرف ساعي البريد أين أنا ويضعني في صندوق البريد؟).

كان "آدم" بطيء التعلم، فقد تبعته في الدراسة طفلة أخرى تسمى "إيف" وكانت تنطق بجمل مثل **"Fraser, the doll's not in your briefcase"** (يا فراسر، الدمية ليست في حقيبتك) و **"I got peanut butter on the paddle"** (وضعت فول سوداني وزبد على المحراك) وهي لم تبلغ سنتين من العمر، كان "آدم" في نفس عمرها لا يزال في نهاية مرحلة الكلمتين، إذن نرى أن كلا من "آدم" و"إيف" قد مرا بالمراحل نفسها ولكن "إيف" اجتازتها بسرعة أكبر.

يكتسب الأطفال أغلب القواعد النحوية للغة التي يتعلمونها فيما بين الثانية والثالثة أما قبل بلوغهم الخامسة فإنهم يكونون قد تعلموا كل شيء فيما عدا قليل من التركيبات المفصلة التي يتم لهم تعلمها في مرحلة متأخرة، كما أنهم يستمرون في ارتكاب الأخطاء الغريبة مثل "two mens" (رجلان، الصواب two men) و "I breaked it" (كسرتها. الصواب I broke it)، وهي أخطاء يلحظها البالغون بسهولة، بالرغم من هذا أوضحت الدراسات ندرة حدوث مثل هذه الأخطاء، فطفل الخامسة يتسنى له تعلم جُل الأشياء التعلم الصحيح، انظر إلى ما يلي: يعرف طفل الخامسة – بالرغم من الهفوات الغريبة التي يرتكبها – عن نحو اللغة الإنجليزية أكثر مما تجده في كتاب النحو، تذكر ما أشرنا إليه في الفصل الثاني بشأن الكم الهائل من القواعد النحوية التي تعرفها ولكنك من المرجح لا تعي ذلك : إنك اكتسبت هذه المعرفة قبل سن الخامسة وفي أغلب الأحيان قبل الثالثة.

إن طفل الثالثة لا يمكنه إجراء عملية الجمع لرقمين أو الحديث تليفونيا أو ربط حذائه أو عبور الشارع بمفرده، ولكنه يتمكن من معرفة نحو اللغة الإنجليزية ومفرداتها – ببراعة – أو الفرنسية أو الباسكية أو النافاهو أو أية لغة يتعلمها وهذا بكل المقاييس إنجازغيرعاديٌ (كما أن الأطفال الذين ينشئون في بيئة ثنائية اللغة يتقنون كذلك كلتا اللغتين).

يتوالى اكتساب اللغة بعد مرحلة الكلمتين بسرعة فائقة بحيث يكون من المستحيل تسجيل كل شيء يقوم الطفل بنطقه، بالرغم من ذلك فإننا إذا ما ركزنا على جانب واحد للغة وتابعناه عند الطفل سنحصل بشأنه على العديد من المعلومات ذات القيمة.

نظرة أكثر قرباً :

الآن لنا وقفة مع صياغة الجمع في اللغة الإنجليزية، افترض أننا أخبرناك أن كلا من الكلمات "ziff, zo, zax" مبهمة تدل على أشياء يمكن عدها، ماذا تفترض أن يكون الجمع من تلك الكلمات ؟ إننا متأكدون من أنك لن تواجه أية مشكلة في الإجابة على هذا السؤال : جموع هذه الكلمات على التوالي هي "ziffs , zos , zaxes". إذا أرهفت السمع ستلاحظ أن نهايات الكلمات يتم نطقها بطرق مختلفة في الحالات الثلاث : الكلمة الأولى تنتهي بصوت -s، الثانية بصوت -z، الثالثة بصوت -z متبوعا بصوت

صائت إضافي، إننا متأكدون تماما من اختيارك للشكل الصحيح من الجمع في كل حالة من تلك الحالات، فمعرفتك بنحو اللغة الإنجليزية تتضمن معرفتك بالطريقة التي نصيغ بها جمع كلمات تلك اللغة.

يمكن اختبار قدرة الأطفال الصغار على صياغة الجمع عن طريق ما يسمى باختبار "wug"، وفيه يُعرض على الطفل شيء صغير ويتم إخباره بأن هذا الشيء يسمى "wug"، ثم يقدم له شيء آخر مشابه للشيء الأول ويخبره الباحث أن هذا الشئ "wug" آخر، عند تواجد عنصرين من هذا الشئ يكون الطفل الذي يطلق عليهما – "wugs" – بنهاية تنطق كصوت - Z - قد تعلم كيفية صياغة الجموع، يستطيع طفل الرابعة تعلم هذه القدرة، ويفرغ جميع الأطفال من تعلمها قبل بلوغهم السادسة.

كيف تمكن الطفل من صياغة الجمع بصورته الصحيحة وهو لم يسبق له التعرف على الكلمة المختلقة "wug" كما لم يتعرف على جمعها؟ بالطبع لم يتسن للطفل فعل ذلك عن طريق التقليد أو الحفظ : الشيء الوحيد الذي مكنه من ذلك هو القاعدة المتكونة عنده بشأن صياغة الجموع، وهي قاعدة يمكنه تطبيقها على الأسماء الجديدة دون أدنى جهد، إنها نفس القاعدة التي استخدمتها مع الكلمات المبهمة التي عرضناها من قبل، تتشابه هذه القاعدة النحوية الإنجليزية مع قواعد أخرى سبق لنا مناقشتها بالفصل الثاني من الكتاب، وإن كانت أيسر منها قليلا.

إذن كيف تمكن الطفل من تعلم هذه القاعدة ؟ بالتأكيد لم يدرب الأبوان طفلهما على صياغة الجموع كأن يقولون له (انظر يا "جينفر" هذا كلب، هذان كلبان، هذا عود ثقاب، هذان اثنان)، حتى إن حدث هذا، هل هو كاف أن يساعد في تعليمهم كل ما يتعلق بصياغة الجموع؟ إن الآباء ليسوا على دراية كاملة بالأشكال الثلاثة لنهايات الجموع وبالتالي لن يتمكنوا من إظهارها لأطفالهم، بالرغم من ذلك، نجح "جينفر" قبل بلوغه الرابعة أو الخامسة في تعلم القاعدة، تذكر ما قلناه في شأن الجموع وسنعود مرة أخرى لسؤالنا هذا فيما يلي

فكر الآن في الطريقة التي يتعلم بها الأطفال النفي، إنها طريقة واحدة يتبعها جميع الأطفال، أولا : يضعون كلمة نافية، عادة "no" (لا)، في بداية أية جملة مثل "No I want juice" (لا أريد عصيرا)، بعد ذلك يحركون هذه الكلمة النافية ليكون موضعها قبل الفعل .. "I no want juice"، في النهاية تظهر الأدوات النافية الأكثر تعقيدا : "I

"don't want juice"، هنا تكمن المشكلة : يظل الأبوان – إذا رغبوا في ذلك – يصوبون ما يقوله أطفالهم إلى ما لا نهاية، لكن الطفل يستمر في استخدام نمط النفي للمرحلة العمرية التي يمر بها حتى ينتقل إلى المرحلة التي تليها. حتى وإن أغفل الآباء عن التصحيح لأطفالهم (أغلبهم يفعلون ذلك) فإنهم يتنقلون بين المراحل نفسها حتى يصلوا إلى مرحلة البالغين.

ما الذي يفعله الطفل ؟ إنه يُكون القواعد لصياغة النفي ويظل يجربها وينتقل فيما بينها حتى يجد القاعدة التي تشبه تلك التي يستخدمها البالغون، لاحظ أن الطفل لا يحاول الرجوع إلى أية مرحلة تشتمل على قواعد قديمة، فكل طفل يجرب القواعد ذاتها بترتيب تصاعدي واحد، علاوة على ذلك، يفعل الأطفال الذين يتعلمون لغة ثانية نفس الشيء – لكن الطفل الذي يتعلم لغة كالإسبانية يتوقف عند المرحلة الثانية لأن نمط النفي الذي تُستخدم به الكلمة النافية قبل الفعل، كما يتضح من الجملة "I no want juice"، هو النمط الذي يصاغ به النفي في اللغة الإسبانية.

بصورة أخرى نستطيع القول أن الأطفال يعرفون أية قواعد من الواجب عليهم استخدامها ! هذا الأمر مدهش للغاية، فهو يحطم ما سبق ذكره بشأن التقليد والتدعيم، إذا كان الطفل مجرد مقلد لما يقوله البالغون، سيكون كلامه سلاسل مبعثرة من الأنماط الشبيهة بأنماط البالغين، وهذا ما لم نلحظه في كلام الأطفال، ينطبق الأمر ذاته على صياغة النفي، وكذلك كل جانب من جوانب اكتساب اللغة، فمثلا تتطور طرق تكوين السؤال على النحو التالي :

أولا: "why you eating?" (لماذا تأكل ؟) (لاحظ أن السؤال لا يشتمل على فعل مساعد).

ثانيا : "Why you are eating" (الفعل المساعد ليس بموقعه السليم)، "Why are you eating" (تحرك الفعل المساعد إلى موقعه الصحيح بعد كلمة الاستفهام).

حان الوقت الآن لتأمل الملاحظات الآتية:

لماذا يحدث ذلك ؟ :

يتوافر تحت أيدينا الآن قدْر هائل من المعلومات التي تم التوصل إليها عن طريق الملاحظة، والتي أثبتت أن الأطفال يكتسبون اللغة وفق نظام محدد ذي ترتيب خاص

جدا، إنهم لا يصدرون كلاما عشوائيا يقارب في شكله كلام البالغين، كما أنهم لا يفعلون أخطاء عشوائية، لذلك فإن تعلمهم للكلام لا يتم عن طريق التقليد، كذلك رأينا أن أية محاولة يقوم بها الآباء لتصويب كلام أطفالهم تنتهي بالفشل : فالطفل يسير في اكتسابه للغة وفق مراحل مرتبة، لذلك فإن التدعيم – سواء كان ذا تأثير إيجابي أو سلبي – ليس عاملاً مساعدا في تعلم اللغة، إذن كل ما يفعله الطفل لتعلم اللغة هو تكوين قواعد متفاوتة التعقيد، قواعد يتبعها جميع الأطفال بنفس ترتيب اكتسابها، أي أن اكتساب اللغة عملية نشطة : فالطفل لا يمتص اللغة التي تصادفه بطريقة سلبية، بل إنه يكون اللغة وينظمها، يعد هذا الاكتشاف واحدا من الاكتشافات الرئيسية لعلم اللغويات الحديث، الذي بدوره يطيح بأية فكرة واهية تعترف بفضل التقليد أو التدعيم.

في الحقيقة، يُحكم بالفشل على أية فكرة تذهب إلى أن عملية اكتساب اللغة عملية سلبية للغاية، تأمل مشكلة "gavagai" الشهيرة، افترض أنك تعاني في تعلمك لإحدى اللغات الأجنبية، وفي أحد الأيام شاهدت أرنبا يقفز فنظر إليه معلمك وقال "gavagai"، ماذا تعني كلمة "gavagai" ؟ هل تعني أرنبا؟ أرنبا ذا حجم ولون خاص؟ هل هي اسم لذلك الأرنب بعينه؟ أم أنها تعني "انظر إليه وهو يذهب"، أم "إنه يأكل كثيرا" أم "لقد أضر بحقل الخس الخاص بي"؟ أو عدد يبلغ التريليون من الإجابات التي يمكن تصورها؟ ما إجابتك؟

يواجه الطفل الذي يتعلم اللغة لأول مرة مثل هذه المشكلة كيف يمكنه معرفة معنى شيء ما؟ عند سماعه لمقطع من الكلام يقوله أحد البالغين، كيف يمكنه معرفة إذا ما كان هذا المقطع الذي سمعه يقصد به اسم لوحدة مفردة أو اسم لعدد من الوحدات أو تعليق على صفات لبعض الوحدات أو وصف لبعض الأشياء أو أي شيء آخر؟ كيف يتسنى له تخمين معنى جملة مثل "أمك مرهقة" أو "أبوك بالخارج" وهو لم ير بعينه في اللحظة ذاتها كلا من الإرهاق أو والده؟

الأسوأ من ذلك عندما يتعلم الطفل معان لبعض المقاطع ويأتي دور تكوين التعميم، أي إذا سمع شخصًا بالغًا يقول "الكلب جائع"، "قميصي أزرق"، كيف يتسنى له قول جمل مثل "ليزا جميلة" أو "الكوب غير نظيف"، بالطبع كل هذه الجمل متشابهة في تركيبها ولكن كيف يعرف الطفل هذا؟ ما دام الطفل ليس عنده أي سابق معرفة باللغة كيف يمكنه استنتاج أن هذه الكلمات شبيهة لكلمات أخرى وكل منها يستخدم في بناء الجمل؟

بالفعل يعرف الأطفال هذا الأمر، فالطفل عندما يسمع جملة "ليزا سعيدة" و "تبدو ليزا سعيدة" ثم يسمع "الكلب جائع" يمكنه تكوين جمل صحيحة مثل " يبدو الكلب جائعا "، ولكن عند سماعه للجملة "ليزا نائمة" لا يكون الجملة " تبدو ليزا نائمة"، فلم يسبق لنا سماع أي طفل يقول هذه الجملة الخاطئة، لماذا؟ لأن "جائع" صفة بينما "نائمة" فعل، لكن كيف توصل الطفل لهذه المعرفة؟ كيف تسنى له حتى معرفة أشياء مثل الصفات والأفعال؟

تسمى تلك المشكلة الحيوية "بالمشكلة المنطقية لاكتساب اللغة" : يبدو من المستحيل من حيث المبدأ - تعلم أي شيء عن لغة ما دون معرفة شيء عنها أولا، لا يمكن للطفل حفظ أعداد لا حصر لها من المقاطع التي يمكن تصورها بجانب كل المعلومات التي تخبره بكيفية استخدام هذه المقاطع (تذكر المقاطع الجديدة التي ذكرناها بالفصل الثاني)، بالطبع هذا لا يحدث، يحدث بدلا منه أن يكوّن الطفل القواعد بنفسه، كي يكوّن الطفل القواعد يجب عليه أولاً ملاحظة تشابه المقاطع مع بعضها البعض، لكن كيف يمكنه إدراك التشابه بين المقاطع وهو لا يعرف معنى التشابه؟

هناك إجابتان لهذا السؤال، حيث ذهب بعض الناس إلى أن الأطفال يكتسبون اللغة عن طريق استخدام قدراتهم الإدراكية المتعددة الأغراض وهي نفس القدرات التي تؤهلهم لاكتساب أنواع المعارف الحياتية الأخرى، من ناحية أخرى، فضل الآخرون الإجابة التي اقترحها اللغوي الأمريكي "شومسكي"، يرى "شومسكي" أن الأطفال يولدون وهم على دراية باللغة البشرية، أي أن جزءا كبيرا من تركيب اللغة البشرية فطري، كما يذهب "شومسكي" إلى أن فصيلتنا قد طورت خاصة اللغة داخل المخ، كما أن اللغة تنمو عند الأطفال بقدر كبير مثلما تنمو قدراتهم البصرية الأخرى، لا زال تفسير "شومسكي" محلا للجدال، ولكن يتوافر قدر كبير من الأدلة الآخذة في الازدياد تدل على صحته، لذا دعونا الآن ننظر إلى بعض هذه الأدلة.

البحث عن اللغة :

إن ملاحظة الأطفال الذين يواجهون مشكلة تعلم اللغة في ظروف غير عادية إحدى الطرق لاختبار مدى صحة فرضية " شومسكي "، سنعرض فيما يلي ظرفين من هذه الظروف.

أولا : الأطفال المصابون بالصمم، إنهم يصدرون أصوات الهديل ويبأبون مثلهم في ذلك مثل أي طفل طبيعي، ولكن بما أنهم لا يستقبلون أي مثير سمعي فإن قدرتهم على البأبأة تتوقف ويظلون صامتين، لكنهم إذا شاهدوا الناس من حولهم يستخدمون لغة الإشارة فإنهم يمارسون البأبأة ولكن باستخدام أيديهم هذه المرة، إذا كان أباؤهم مصابين بالصمم أيضا وبارعين في استخدام لغة الإشارة فإنهم بالتالي سيتقدمون في تعلمهم للغة الإشارة بصورة طبيعية وناجحة، كما أنهم سيجتازون مراحل تعلم اللغة كغيرهم من الأطفال الطبيعيين : مرحلة الكلمة الواحدة، مرحلة الكلمتين، مرحلة غياب العلامات النحوية ثم إتقان الكيان النحوي الكلي للغة الإشارة، وهكذا، إننا لانلاحظ أدنى فرق بين اكتساب اللغة المتحدثة واكتساب لغة الإشارة، تذكر أننا ذكرنا في الفصل السادس ما يفيد بأن تلف المخ يؤدي إلى نفس النتائج سواء كان الشخص يتحدث بشكل طبيعي أو يستخدم لغة الإشارة – وهذا يدفعنا إلى القول بأن خاصية اللغة مستقلة لدرجة كبيرة عن الخصائص العقلية الأخرى – هذا ما توقعه "شومسكي".

أما إذا كان والدا الطفل غير بارعين في استخدام لغة الإشارة كأن يستخدمونها بصورة غير منتظمة وغير دقيقة، فإن الطفل بالرغم من ذلك يتعلم اللغة بصورتها الصحيحة، يبدو أن الأطفال ماهرون في تعلم اللغة حتى إنهم يتمكنون من استخلاص القواعد التي يتطلبها ذلك التعلم من مصادر فقيرة، ومن هنا فإنهم يتمكنون من استخدام لغة الإشارة أفضل من والديهم ! (مسمار آخر دُق في نعش نظريات تعلم اللغة عن طريق التقليد)، لاحظ شيئا آخر : إذا كان الأبوان غير قادرين على استخدام لغة الإشارة على الإطلاق فإن الطفل يظل متحينا لأية فرصة يصدر فيها أبواه أية تلميحات، ثم لا يلبث أن يطور هذه التلميحات للغة للإشارة من إنتاجه هو !بالفعل تمت دراسة العديد من هذه الحالات، فلا شك في حدوثها، جاءت نتائج ذلك البحث مؤكِّدة، فقد نجح أمثال هؤلاء الأطفال في اختراع قواعد نحوية صارمة متضمنة لأشياء مثل معرفات الأفعال، إنهم يتصرفون كالأطفال الذين تعلموا لغة الإشارة بالطريقة التقليدية إلا أن اختراعهم لإشارات خاصة بهم هي الفارق الأوحد بينهما، يكتب لمثل هذا التعلم الذاتي – لسوء الحظ – التوقف عند حد معين يكون بعده التقدم شيء مستحيلاً، وذلك يرجع إلى غياب التدعيم المناسب بلا أدنى شك.

ماذا نستنتج من تلك الملاحظات؟ هناك تفسير واحد يمكننا الخروج به وهو – كما وصفه اللغوى "راى جاكيندوف" – أن الأطفال يبحثون عن اللغة، إنهم يبحثون عن اللغة المتحدثة أولا وعندما لا يجدونها فإنهم يبحثون عن لغة الإشارة وعندما يفشلون فى ذلك يبحثون عن أى شيء حولهم يشبه اللغة ثم يبذلون قصارى جهدهم لتحويل ذلك الشيء إلى لغة كاملة، هذه النتيجة مذهلة، ولكن يمكن تدعيمها بأدلة أخرى.

حدث لمرات عديدة على مدى التاريخ الإنسانى أن تقابل أناس من أماكن مختلفة ومتنوعة، يتحدثون لغات مختلفة ومتنوعة أيضا فى مكان واحد، تحقق ذلك – على سبيل المثال – للأفارقة الذين جاءوا إلى أمريكا الشمالية أو الكاريبى كعبيد، والناس من "بابوا" بجنوة الجديدة والذين اتحدوا كشعب واحد يتحدث مئات اللغات، وكذلك للكم الهائل من العمال الذين وفدوا إلى هاواى قادمين من العديد من البلدان ليعملوا فى زراعة السكر، كان رد فعل هؤلاء الناس إزاء لغاتهم المختلفة واحدا : اخترعوا لغة الاتصال الهجينية، إنها نظام أساسى غير متقن للتواصل مكون من شتات من لغات عدة مجمعة مع بعضها بعضا بطريقة عشوائية، لا تشتمل هذه اللغة على مفردات بعينها أو قواعد نحوية، يتحدثها أشخاص مختلفون بطرق مختلفة، إنها وسيلة للتواصل، فقيرة ومحدودة للغاية ولكنها تؤدى الغرض منها ويتعلمها كل فرد بالمجتمع.

بمرور الوقت يتزوج الأشخاص الذين يستخدمون هذه اللغة الهجينية وينجبون الأطفال، يتحدث هؤلاء الأطفال تلك اللغة مع بعضهم بعضا، بغض النظر عن اللغة التى يتحدثونها بالمنزل، هنا يبرز سؤال مهم : ماذا يحدث؟

إذا تابعت المناقشة السابقة يمكنك تخمين الإجابة : يحول الأطفال هذه اللغة الهجينية إلى لغة حقيقية ! إنهم سرعان ما يتفقون على نظام نحوى معين يتضمن ترتيب محدد للكلمات لا تشتمل عليه اللغة الهجينية، إنهم يعرضون كل أنواع التفصيلات النحوية الجديدة التى لا تتواجد باللغة الهجينية : أزمنة الأفعال، العبارات التابعة، وكل شيء نتوقع تواجده بأية لغة، كما أنهم يعملون على زيادة مفردات اللغة حتى يتسنى لهم الحديث عن أى شيء يبغونه، تسمى هذه اللغة الجديدة باللغة المولدة، ويكون الأطفال الذين قاموا باختراعها الناطقين الأصليين الأوائل لها، قد تظل هذه اللغة فى بعض الحالات وتزدهر، ففى هايتى – على سبيل المثال – تمثل اللغة التى يتحدثها السكان بأكملهم لغة مولدة اخترعها أسلافهم الأفارقة منذ أجيال مضت، كما

أن اللغة المولدة حديثا فى "بابوا" بجنوة الجديدة تستخدم على نطاق واسع هناك، قد تختفى اللغة المولدة نهائيا فى حالات أخرى، فقد اندثرت اللغة المولدة بهاواى نهائيا بفضل اللغة الإنجليزية.

إن مضمون اللغة المولدة يعد سندا هاما لموقف "جاكيندوف"، كما أنه يعطى ضربة قاضية لتلك الأفكار العتيقة التى تذهب إلى أن تعلم اللغة أمر سلبى يتم عن طريق التقليد أو التدعيم، عندما يخترع الأطفال لغة مولدة فإنهم لا يكونون قد تعلموا لغة لم يعرفها آباؤهم فحسب بل يكونون قد تعلموا لغة لم يكن لها وجود من ذى قبل، لنكف الآن عن ذكر المزيد من الأدلة المباشرة والمقنعة المدعمة لما أكدناه فى موقع متقدم من هذا الفصل، وهو أن الأطفال يكونون لغتهم بطريقة نشطة إيجابية.

هل هناك سن معينة يتوقف عنده اكتساب اللغة ؟

أشرنا فيما سبق أن الأطفال يتعلمون اللغة المحيطة بهم، فى حين لا يستطيع أغلب البالغين فعل ذلك، قدم عالم اللغة العصابى "إيريك لينيبرج" تفسيرا لهذا الأمر فى عام ١٩٦٠، فهو يذهب إلى أن الأطفال يمتلكون قدرة خاصة فى تعلم اللغة والتى يحولها الجسم فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تقريبا، إذن تدل فرضية التوقف أن هناك فترة محددة من عمر الطفل لا يمكنه بعدها تعلم أية لغة، من السهل اختبار فرضية "لينيبرج" على النحو التالى : نقوم بتربية طفل فى عزلة تامة عن أية لغة حتى يبلغ الرابعة عشر من العمر، ونرى إذا ما كان هذا الطفل سيتمكن من تعلم لغته الأم بعد ذلك أم لا، بالطبع ما من شخص يتمتع بالصحة العقلية يمكنه إجراء مثل هذه التجربة القاسية، ولكن – لسوء الحظ – قام البعض بإجرائها، فيما يلى سنعرض ثلاث حالات لأطفال كانوا ضحايا لتلك التجربة، لم تُعرف الأسماء الفعلية لهؤلاء الأطفال، لذا فقد اشتهروا على مر التاريخ بالأسماء التالية: "إيزابيل" ، "جينى" ، "شيلسا".

كانت "إيزابيل" فتاة فرنسية عزلها والداها لسنوات فلم تتمكن من سماع أية لغة، عندما تم اكتشافها فى سن السادسة، كانت لا تتفوه بأية لغة على الإطلاق كما كانت متأخرة فى معظم مناحى الحياة، لكنها عندما عاشت فى بيئة طبيعية بدأت فى تعلم اللغة الفرنسية بسرعة كبيرة، وفى غضون العام تميزت كثيرا عن الأطفال فى مثل عمرها، يرى "لينيبرج" أن "إيزابيل" كانت محظوظة حين تم إنقاذها قبل أن تصل سن التوقف.

كانت "جيني" أقل حظا من "إيزابيل" فقد سجنها والداها - المخبولان - أثناء طفولتها بأن قيدوها ليل نهار ومنعوها من الحركة، ولم يتحدثوا إليها مطلقا كما لم يسمحوا لها بالكلام فكان أي صوت يصدر عنها يُقابل بعقابها. عندما بلغت الثالثة عشرة - في إحدى نزهاتها النادرة مع والدتها خارج البيت - رآها أحد المسئولين وأنقذها من قسوة أبويها.

تحسنت "جيني" كثيرا عندما مارست الحياة في بيئة طبيعية، تحولت من تلك المخلوقة النحيفة الحزينة الصامتة إلى فتاة مرحة مليئة بالحيوية شغوفة بمداعبة الآخرين، شرعت بعد ذلك في تعلم اللغة الإنجليزية، بدأت بالمقاطع المكونة من كلمة واحدة ثم سرعان ما انتقلت إلى مرحلة الكلمتين، وتمكنت بسرعة من اكتساب العديد من ملامح النحو الإنجليزي وكذلك المئات من الكلمات. توقفت "جيني" بعد ذلك، وحتى حين استمر تدريبها بكثافة لم تحرز أي تقدم يذكر، فمثلا لم يتقدم استخدامها للنفي بعد المرحلة التي سبق الحديث عنها والتي تستخدم بها الكلمة النافية "no" في بداية الجملة. خلاصة القول أن قدرتها اللغوية توقفت عند سن الثانية والنصف في حين أن قدراتها الأخرى وصلت إلى مستوى طفل السابعة أو الثامنة.

تدعم حالة "جيني" المأساوية فرضية التوقف، لكن الأمر لا يرقى لهذه الدرجة من البساطة. عندما تم اكتشاف "جيني" كانت متخلفة لدرجة كبيرة وظلت كذلك بالرغم من تقدمها في بعض الجوانب الحياتية إلى حد ما. يمكن القول أنها كانت متخلفة فعلا عند ميلادها، لكن الأجدر بنا أن نقول أنها ولدت طبيعية وجاء تخلفها نتيجة حتمية للسنوات الطوال التي عُوملت فيها بوحشية، لا يمكننا الحكم أن فشلها في تعلم اللغة الإنجليزية كان نتيجة لعجزها الإدراكي العام فقط.

ينطبق الأمر ذاته على "شيلسا" التي ولدت فاقدة لحاسة السمع، وعندما فشلت في تعلم الكلام جاء تشخيص حالتها خطأ بأنها متخلفة عقليا، تختلف "شيلسا" عن الطفلتين السابقتين في أنها عاشت وسط أسرة متحابة مكنتها من الحياة بصورة طبيعية قدر الإمكان. عندما بلغت الواحدة والثلاثين من عمرها رآها طبيب ووصف لها علاجا ليساعدها على استعادة حاسة السمع. بدأت "شيلسا" في تعلم اللغة الإنجليزية بعد أن تمكنت من السمع بشكل طبيعي لأول مرة، وبعد مرور سنوات من التدريب المكثف تسنى لها اكتساب ما يقرب من ألفي كلمة، ومعرفة أصول النحو الإنجليزي ،

كما استطاعت أن تقرأ وتفهم ما يقال لها بالقدر الذى يجعلها تقوى على الحياة بصورة طبيعية وتلتحق بوظيفة لنصف الوقت، هذا ولم تتمكن من اكتساب ما يجعلها تتقن استخدام اللغة كإنسانة عادية، لقد توقفت قدرتها اللغوية أيضا عند سن الثانية والنصف تقريبا.

على ما يبدو أن الأدلة التي قدمها لنا المرضى المضطربين عقليا والأطباء غير البارعين تؤكد فرضية "لينيبرج" وهي أن قدرتنا الخارقة على تعلم اللغة تظل بحوزتنا حتى السنوات الأولى القلائل من عمرنا ثم لا تلبث أن تذهب بفعل بعض الترتيبات الجينية، كما لو أن اللغة جزء من جيناتنا التى هى هبة طبيعية.

هل تتواجد اللغة فى جيناتنا ؟

تقول فرضية "شومسكي" بشأن الفطرية، ضمنيا، أن قدرتنا اللغوية تستقر فى جيناتنا. يدعم ذلك أن العيوب الجينية تؤثر على عملية اكتساب اللغة، بالطبع لم يسم أحد الأفراد جينا معينا خاصا باللغة – فأمر الجينات ليس بسيطا إلى هذه الدرجة، لكن بعض الدراسات الحديثة أثبتت تواجد صلة ما بين اللغة والجينات وتبعا لذلك كانت الصلة بين اللغة وفرضية الفطرية.

هناك أنواع متعددة من العيوب الجينية والتى ينتج عنها عدد من الاضطرابات الجسدية والعقلية، فقد اكتشف منذ سنين مضت أن عيبا معينا يصيب عدد الكروموسومات الحادية عشر يؤثر سلبيا على أيض الكالسيوم(٨٨) فيلحق ضررا بأجسامنا، يعانى الأطفال المصابون بهذا الضرر من "أعراض ويليمز" : فهم يتسمون بصغر الجسم والنحافة كما يعانون من اضطرابات بأعضائهم الداخلية ويشبه وجههم الجنية، إنهم متخلفون عقليا لدرجة كبير، فلا يمكنهم جمع اثنين واثنين أو عقد رباط حذائهم أو إعداد المائدة وإن تقدم بهم السن، برغم ما سبق، يمكن لأطفال "ويليمز" تعلم اللغة – كيف! – إنهم يتعلمونها بصورة طبيعية بل يظهرون براعة في استخدامها، فهم يتحدثون سريعا وكأنهم يلهثون، فقد لاحظ الباحثون أنه من الصعب إيقافهم عندما يبدءون فى الكلام، إنهم يكتسبون عدداً هائلاً من المفردات، كما يمكنهم تكوين جمل

(٨٨) الأيض تغيرات كيميائية في الخلايا الحية التي تُؤمَّن بها الطاقة الضرورية للعمليات والنشاطات الحيوية الجديدة لتعويض المنتشر منها.

طويلة ومعقدة بلا أدنى جهد : كما أن قدرتهم على اكتساب القواعد النحوية بارعة بالفعل فيما عدا اتجاههم إلى جعل الأشكال الشاذة عادية : يأتون بالشكل"taked" على أنه الصيغة الماضية للفعل "take" (يأخذ)، (took هو الفعل الصحيح)، إنهم يسردون حكايات مدهشة ومفصلة، إلا أنهم فى بعض الأحيان يواجهون بعض المشاكل مع الواقع فقد يثرثرون بمرح عن أشياء أو أصدقاء ليس لهم وجود، عندما يتهجون يستخدمون كلمات لا تناسب المقام الذى تقال به، اطلب من أى طفل عادى تسمية بعض الحيوانات، ستجده يقول "cat" (قطة)، "dog" (كلب)، "cow" (بقرة)، "horse" (فرس)، اطلب من طفل "ويليمز" نفس الشيء ستسمعه يقول أشياء مثل "ibex" (الوَعْل)، "yak" (الياك، ثور من حيوانات آسيا الوسطى)، "unicorn" (حيوان خرافى يشبه الحصان وله قرن طويل فى وسط جبهته)، مجمل القول، إذا استمعت إلى طفل "ويليمز" لن تلاحظ أى خطأ فى كلامه، يجب أن يقضى هؤلاء الأطفال حياتهم فى مؤسسات للرعاية.

تدل أعراض ويليمز على أن التلف المدمر الذى يصيب العمليات العقلية والإدراكية لا يؤثر على سلامة القدرة اللغوية، يعد هذا دليلاً على صحة فرضية الجزئية المذكورة بالفصل السادس، ولكنه لا يثبت الصلة بين اللغة والجينات، الآن دعونا نختبر نوعا آخر من الإعاقة.

أدرك الأطباء منذ زمن بعيد أن طائفة بعينها من الأطفال الذين يظهرون طبيعيين وأصحاء وأذكياء يواجهون صعوبة بالغة فى تعلم لغتهم الأم، إنهم فى الغالب يبدون فى التعلم فى مرحلة متأخرة ويتقدمون ببطء ويتكلمون بصورة بطيئة وشاقة ويجدون صعوبة فى إكمال ما بدأوه من جمل علاوة على الأخطاء الكثيرة التى يرتكبونها، كما أن بعضا منهم يتكلم بسرعة وطلاقة ولكنهم يصنعون عددا كبيرا من الأخطاء النحوية، فى النهاية قد ينجح بعض هؤلاء الأطفال فى اكتساب القدرة اللغوية فى حين قد يفشل بعض آخر، وفى كلتا الحالتين تبقى الإعاقة قائمة طوال حياتهم، تسمى هذه الإعاقة "بالتلف المحدد للغة"، وللاختصار تسمى"SLI"، مسمى عديم المعنى ولكنه يشتمل على عدد من الإعاقات المختلفة، لاحظ عدد من الأطباء انتشار "التلف المحدد للغة" داخل العائلة الواحدة – كما اكتشفت اللغوية الكندية "ميرنا جوبنك" ودرست عائلة بأكملها فى بريطانيا ظهرت بها تلك الإعاقة عند ١٦ من بين ٣٠ من أفرادها على مدى ثلاثة أجيال. تسبب اكتشافها هذا فى قيام عاصفة من المناقشات الحادة.

عانى من "SLI" – من أفراد هذه العائلة – الجدة وأربعة من أولادها الخمسة وأحد عشر من أحفادها الذين يبلغون أربعة وعشرون، ولم يصب أي من أولاد أحد أبنائها الذي لم يكن مصابا، نلاحظ إصابة الذكور والإناث بصورة متساوية، كذلك لم يصب توأم لأحد الأحفاد المصابين، كالعادة كان كل الأفراد المصابين أسوياء، ذوي ذكاء عادي وسمع طبيعي.

تظهر الأعراض ذاتها على كل الأفراد المصابين، فهم يتكلمون بصعوبة وبطء، كما أنهم يتوقفون من حين لآخر لتصحيح أخطائهم ولكنهم في الغالب يحولون في تصحيحهم هذا الأشكال السليمة إلى أخرى غير سليمة، يمتلئ كلامهم التلقائي بالأخطاء النحوية في أشكال الكلمات وليس تركيب الجمل، إنهم يتغاضون عن النهايات النحوية للأسماء بشكل منتظم وقد يستخدمون النهايات الخاطئة كأن يقولون جملا مثل "There's a trains coming" (هناك قطار قادم) استخدام أداة التنكير "a" (مع الاسم الجمع، "Yesterday I eat dinner late" (تناولت عشائي في وقت متأخر بالأمس) استخدام صيغة الفعل المضارعة مع الزمن الماضي، لا يخطيء طفل في سن المدرسة مثل هذه الأخطاء مطلقا – لكن المصابين في سن ما بين الأربعين والسادسة والسبعين، والأطفال فيما بين الثامنة والتاسعة عشر يخطئون هذه الأخطاء وقت إجراء الدراسة عليهم، بالإضافة إلى ذلك، تلقى جميع المصابين – ما عدا الجدة – علاجا مكثفا لمعالجة مشكلاتهم ولكن لم يحدث أي تحسن يذكر.

لاحظت "جوبنيك" عندما قامت باختبار الأفراد المصابين عدم قدرتهم على التمييز بين الأشكال النحوية الصحيحة وغير الصحيحة أو اختيار الصحيح منها، عندما سُئل أحدهم هل الجملة "The boy eat three cookie" (أكل الولد ثلاث كعكات) صحيحة أم خاطئة، لم يأت بأية إجابة، عندما طُولب بإكمال الجملة "Every day he walks three miles. Yesterday he ..." (إنه يسير ثلاثة أميال كل يوم، بالأمس ...) أضافوا الفعل "walk" (الصيغة المضارعة الفعل بدلا من الماضية)، كما كان فشلهم في اختبار "wug" المذكور آنفا شيئا مذهلا، فعندما طلب منهم جمع "wug" جاءو بالكلمات "wugss" و"wugness"؛ كما أتوا بجمع كلمة "zat" بالكلمات "zackle" و"zacko"، الكلمة "zoopez" كجمع للكلمة "zoop"، "zatches" للكلمة "zash"، "tobyes" للكلمة "tob" ما الذي يحدث بالله عليكم ؟

جاءت "جوبنيك" باستنتاجين، أولهما عدم استيعاب هؤلاء الناس لحقيقة وجود قواعد لصياغة الجموع والأزمنة الماضية، لذا كان لزاما عليهم تعلم كل صيغ الجموع والأزمنة الماضية مثلما نتعلم نحن صياغة الأشكال الشاذة أمثال "men" (رجال) ، "took" (أخذ)،وعندما تصادفهم أحد الكلمات الجديدة فإنهم لا يعرفون طريقة جمعها، ثانيهما تشابه توزيع الإعاقة على أفراد الأسرة مع ما نتوقعه من مشكلة أخرى يسببها عيب في جين ما، لذلك فإن هؤلاء الناس قد توارثوا جينا معيبا.

يتوافر تحت أيدينا الآن دليل مباشر يقول أن قدرتنا اللغوية يتم التحكم فيها عن طريق الجينات، وذلك لأننا لا نعرف من الآثار المترتبة على الجينات المعيبة سوى فقدان القدرة على تكوين قواعد نحوية بعينها، بالطبع لا يزال الجين المعيب الذى نتحدث عنه غير واضح المعالم، فهو لا يزال قيد التخمين بالرغم من أنه يحظى باستحسان كبير، تشبثت الصحف ذات الشعبية بما قالته " جوبنيك " في شأن "الجين النحوى"، ولكن لسوء الحظ أساء العديد من رجال الصحافة الذين كتبوا عنه فهم معنى مصطلح "النحو" تماما، كما أنهم توصلوا لنتيجة منافية للعقل ألا وهى أن متحدثى الإنجليزية غير النموذجية الذين يقولون "I ain't got none" (لا أملك شيئا) لديهم مشكلة جينية (انظر الفصل الثامن للأمر ذاته).

لا زالت فرضية "تشومسكي" محلا للجدال، ولكن هناك كما من الأدلة المؤثرة الآخذة في الازدياد تقر بصحتها : توارثنا لقدرتنا اللغوية الفريدة أمر مذهل - والتى لا يشاركنا فيها أى من المخلوقات الأخرى - من أسلافنا الذين قاموا بتطويرها، إننا الآن على يقين بأن قدرتنا اللغوية جزء من حياتنا، مثلها في ذلك مثل أشياء تصبح جزءًا لا يتجزأ من أجسام الحيوانات، أجنحة الطيورالتى تمكنها من الطيران، رقص النحل، ارتداد الموجات فوق الصوتية التى تمكن الخفاش من إيجاد طريقه.

الفصل الثامن

اتجاهات حول اللغة

في أحد العروض المسرحية القصيرة المغمورة والتي أداها فريق "مونتي بايثون" الكوميدي، كان أحد المذيعين يتحاور مع أستاذ لتاريخ العصور الوسطى بجامعة أكسفورد بشأن نظام الزراعة المفتوح، أخذوا يتناقشون أثناء حديثهم عن حقوق والتزامات الأحرار والفلاحين، هاج الجمهور وماج لأن المذيع كان يتحدث كأى فرد عادى بينما كان الأستاذ الجامعي يتحدث بلكنة ساكني أحياء لندن الفقيرة - أي لكنة الطبقة العاملة بلندن، نظراً لأن أساتذة جامعة أكسفورد لا يتحدثون باستخدام هذا النوع من اللكنات فإن ما قاله الأستاذ الجامعي يبدو غريبا على الآذان البريطانية بالرغم من أنه منطقي ومفيد : لقد وجد المتحدثون البريطانيون أنه من المستحيل قبول أستاذ جامعي يتحدث بلكنة الطبقة العاملة التي تقطن المدن، ويستخدم في كلامه الاختصار "كويقول "yeah" (نعم) بدلا من "yes".

خلصنا من خبراتنا السابقة أن اللغة تحتوى على عدد من الجوانب الفريدة في نوعها، سواء على المستوى العام - المخلوقات بمختلف أنواعها - أو المستوى الإنساني، كما أن اتجاهات البشر حول اللغة تكون غير معتادة، لذا فإننا سندرس في الفصل الحالي بعض النماذج المثيرة لاتجاهات البشر حول اللغة.

هل من الممكن أن تكون اللغة لا أخلاقية ؟

كان للفيلسوف والعالم اليوناني القديم "أرسطو" صولات وجولات على جانب كبير من الأهمية في مختلف فروع المعرفة (يدخل علم اللغويات ضمن هذه المعارف، لكن هذا لا يعنينا الآن)، بلغ أرسطو درجة من رفعة الشأن خلال العصور الوسطى جعلت من أي قرار يقوم بإصداره محل قبول لدى الجميع، وبدون أية مناقشات، كانت إسهاماته في علم الأحياء من أروع ما توصل إليه حيث كان ملاحظا بارعا في هذا المجال، بالرغم من ذلك فقد وجدناه يؤكد في إحدى مؤلفاته أن النساء يملكن عددا من الأسنان أقل من الرجال.

إننا متأكدون تماما – بالرغم من أننا لم نجر دراسات كافية في هذا الشأن – من أن عدد الأسنان عند النساء يساوي تماما عددها عند الرجال، أي واحد وثلاثون سنا وعليك التحقق من ذلك إذا قمت بفحص أسنان بعض الناس، إذن كيف لنا أن نجابه هذا التناقض بين ما أكده أرسطو وما توصلنا إليه عن طريق ملاحظتنا ؟ يمكننا حل هذا التناقض بأحد الافتراضين الآتيين :

١ – خطأ ما أكده أرسطو : فربما يكون اكتشافه هذا غير واف، بل من المؤكد أن يكون خاطئا تماما.

٢ – خطأ ما ألفناه من حقائق : أي أن أسنان النساء لا تنمو بالطريقة الصحيحة ويجب حثها على جعلها تنمو بالطريقة المناسبة.

ما رد فعلك تجاه هذين الافتراضين ؟ تبعا لأنك شخص طبيعي للغاية ستجد الافتراض الأول هو وحده المقبول في حين أن الثاني جنون فحسب.

دعونا نسأل نفس السؤال في منحى مختلف تماما عما سبق ذكره، خلص المؤرخ الأمريكي الشهير "كران برينتون" في إحدى دراساته عن الثورات إلى أن كل ثورة تتم بطريقة واحدة وبنفس ترتيب أحداثها، لنأخذ ثورة نيكاراجوا التي قامت عام ١٩٧٩ كمثال، افترض – من أجل إتمام المناقشة – أننا قمنا بدراستها فوجدنا أن أحداثها لم تسر وفق ما توصل إليه "برينتون" : أي افترض حدوث أشياء بها ذات ترتيب مختلف عن غيرها من الثورات الأخرى. إذا ما توصلت إلى هذه النتائج، ماذا ستكون إجابتك ؟

١ – خطأ ما توصل إليه "برينتون" : أي أن عمله غير واف، أو لنقل خاطئ تماما.

٢ – خطأ الحقائق التي ألفناها : أي أن سكان نيكاراجوا لم يقوموا بثورتهم هذه بالطريقة الصحيحة، لذلك لنا أن نعلن عدم صلاحيتها ونحثهم على القيام بها مرة أخرى بالطريقة الصحيحة، ما رد فعلك هذه المرة ؟ إننا واثقون هذه المرة أيضا أنك ستختار الاستنتاج الأول كأنسب استنتاج.

ترى لماذا نسأل هذه الأسئلة غير المجدية ؟ دعونا نعرض مثالا آخر، هناك تكوين في اللغة الإنجليزية يسمى بالمصدر المتشطر (تخدعنا تسميته التقليدية هذه إلى حد كبير)، من أمثلته ما يلي : "I want to gradually save enough money to buy a car"

(إننى فى حاجة إلى توفير نقود كافية حتى أتمكن من شراء سيارة)، "She decided to never touch another cigarette" (لقد قررت ألا تقرب السجائر على الإطلاق)، تبادل كل من النحويين ومعلمي اللغة الإنجليزية الاتهامات حول المصدر المنشطر على مدى مائتي عام، واعتبروه شكلا غير نحوى ولا يمت للإنجليزية بصلة، لكن بالرغم من ذلك فإننا نلاحظ احتواء كلام كل متحدثي الإنجليزية على هذا التكوين فهم يستخدمونه وبصورة تلقائية : إنه ملمح أساسي من ملامح اللغة فى جميع أنحاء العالم، يتكرر فى مثالنا هذا التناقض بين ما نادى به المتخصصون وما جرت عليه العادة، ماذا ترى ؟

١ - خطأ ما نادى به المتخصصون : أى أن عمل النحويين غير واف بالغرض أو أنه خطأ إلى درجة كبيرة.

٢ - خطأ الحقائق المتعارف عليها : أى أن متحدثي اللغة الإنجليزية لا ينطقون تلك اللغة بالطريقة السليمة والواجب علينا توجيههم نحو الاستخدام الأمثل لها.

ما شعورك هذه المرة ؟ لا يمكننا الإجابة بدلا منك هذه المرة، كل ما نستطيع قوله هو أن عددا كبيرا من حملة لواء العلم من متحدثي اللغة الإنجليزية آثروا الاستنتاج الثاني : إنهم مقرون بخطأ الحقائق ويحاولون قدر الإمكان تجنب نطق أى مصدر منشطر، من أمثلة ما يقولونه "I want gradually to save enough money to buy a car" (إننى فى حاجة إلى توفير النقود الكافية من أجل شراء سيارة).

يبدو أن رد الفعل تجاه هذا الأمر مدهش، فالذين يقبلون الاستنتاج الثاني يقرون بصحة ما توصل إليه النحويون فقط لأنه تم تدعيمه بأقوال أناس ذوى ثقل، كما دعمه ظهوره في كل الكتب، وهم يرون وجوب تغيير الحقائق حتى تتناسب مع وصف النحويين.

كيف يستقيم ذلك ؟ لو أخبرك الميكانيكي أن "سير المروحة" سليم بينما تراه أنت غير ذلك فإنك ستبحث عن ميكانيكي جديد، كذلك إذا أكد لك أحد البائعين أن كلا من الجونلة القصيرة القرمزية والبلوزة البرتقالية يصلح ارتداؤهما وقت الذهاب للالتحاق بوظيفة في بنك، فإنك ستتركين المحل وتبحثين عن غيره، كما أنك ستبحث عن وكيل آخر للعقارات إذا أخبرك أحدهم أن المنزل الكائن فوق حافة الصخور المفتتة فرصة للشراء فى حين أنك شاهدت المنزل المجاور له متساقطا، إذا أقر لك أكثر الخبراء شهرة

بصحة شيء ما - في شتى جوانب النشاط الإنساني - تراه أنت خطأ فادحا فإنك ستتجاهله وتبحث عن شخص أرجح عقلا تتحدث إليه.

لكن يبدو أن اللغة مستثنى من ذلك، إننا عندما نأتي إلى أمر اللغة نجد أن الاستنتاجات غير المعقولة في كل جوانب النشاط الإنساني تكون مقبولة عند معظم الناس ومنطقية بل تكون الإجابة الوحيدة الممكنة : يسعد أمثال هؤلاء الناس هذه المرة وهم يتفقون على خطأ الحقائق ولزوم تغييرها، وتسمى هذه الرؤية الغريبة الواسعة الانتشار بالمعيارية، إنها اعتقاد بأننا لا نقوى على اعتبار اللغة أمر يمكننا تناوله بطبيعته، بل يجب علينا تغييرها لتتناسب مع القوانين الموضوعة من قبل مجموعة من الخبراء المستقلين، بغض النظر عما إذا كانت هذه القواعد خاطئة أو غير مقبولة.

لم تقتصر هجمات النحاة المعياريين على "المصدر المنشطر"، فقد رفضوا أيضا استخدام الشكل "it's me" (إنه أنا) ورشحوا الشكل "It's I" بدلا منه، ولكن كل منا يقول "It's me"، هل فكرت في إحدى المرات التي نظرت فيها إلى صورتك الفوتوغرافية أن تقول "Good heavens! Is that really I?" (يا إلهي، هل هذا أنا ؟)، لقد شاع استخدام الشكل "It's me" باللغة الإنجليزية لقرون عدة كان فيها الشكل "It's I" اختراع غريب من صنع النحاة المعياريين الذين أخبرونا أن الشكل "It's I" أكثر منطقية من الشكل "It's me" - بغض النظر عما يعنيه هذا الشكل - وأنه من الخطأ استخدام الشكل "It's me" الذي ألفنا عليه لم يعبأ الكثيرون بما قاله المعياريون، ولكن قلة قليلة اتبعت آراءهم فكان من ضمن كلامهم "The person you're looking for is I" (أنا ذلك الشخص الذي تبحث عنه)، كما واصل حملة الهجوم ضد الشكل "It's me" صحفي صاحب عمود في أحد الصحف والذي تخصص في الكتابة عن استخدامات اللغة الإنجليزية فرفض العبارة القديمة "Woe is me" (الحزن أنا) وحث قراءه أن يصوبوا تلك العبارة "الهمجية" لتصبح "Woe is I"، ولكنه تراجع عن موقفه هذا بعد مرور أسبوعين عندما أخبرته جماعة من قرائه ذوي الخلفية الثقافية أن العبارة "Woe is me" استخدمت منذ آلاف السنين وهي تعني "Woe is to me" (أنا المقصود بالحزن)، (قارن تلك العبارة بالعبارة الألمانية Weh ist mir)، بالرغم من ذلك، لم تعبأ المعيارية بالحقائق كثيرا، واهتمت بالأهواء الشخصية والآراء التي تصدرها الحكومات.

تطرق هجوم المعياريين إلى أشكال مثل "Who did you see ?" (من الذى تراه) حيث طالبوا استخدام الشكل "Whom did you see ?" بدلاً منه، وحجتهم في ذلك أن هذا الشكل الأخير تم استخدامه منذ خمسمائة عام، وهى حجة واهية، هل هناك حاجة ملحة لإحياء هذا الشكل وانتشاله من بين ركام من آلاف الأشكال التى انقرضت لمجرد أن جماعة قليلة العدد من المتعصبين أرادوا ذلك، منذ خمسمائة عام كان الناس يقولون "He is yclept John" بدلا من "He is called John" (إنه يدعى جون)، فلماذا لم يُبعث هذه الشكل من جديد أيضا؟

كذلك رفض المعياريون إنهاء الجمل بحروف الجر، فبدلا من استخدام العبارة "Who are you staying with" (مع من تسكن) يجب استخدام "With whom are you staying". لماذا ؟ ليس من سبب محدد، كل ما فى الأمر أنهم لا يفضلون وضع حروف الجر بنهاية الجمل، لاحظ أن حروف الجر جزء من النحو الإنجليزى بالغ الأهمية ولا يمكن الاستغناء عنه، إن الطفل الصغير الذى يقول لأبيه "Daddy, what did you bring that book I didn't want to be read to out of up for" (لماذا أحضرت هذا الكتاب يا أبى لا أريد أن يقرأ لى أحد) يتكلم لغة إنجليزية صحيحة، ولن يتمكن أى شخص من إعادة ترتيب جملته تلك لكى يتقدم حرف الجر بدلا من أن يأتى فى نهاية الجملة، أجاب "ونستون تشرشل" على شخص ما انتقد وضعه لحروف الجر بنهاية الجمل – برد لا يخلو من حكمة – قائلا "This is an outrage up with which I shall not put" (هذا اعتداء لن نقوى على احتماله).

يمكننا الاستمرار فى ذكر الأشكال التى هاجمها المعياريون إلى ما لا نهاية، ونتيجة لهجماتهم تلك اعتقد متحدثو الإنجليزية وجود خطأ بلغتهم حيث أنها لا تتوافق مع الكتب التى تصف تلك اللغة، ترى لماذا يعتقدون ذلك ؟ إننا نعتقد أن استخدام اللغة محكوم باعتبارات أخلاقية عند العديد من الناس.

يتضح مما تقدم أن محاباة المعياريين للشكل "It's I" ورفضهم لاستخدام كل من المصدر المنشطر وحروف الجر بنهاية الجمل ليست قواعد نحوية على الإطلاق، بل إنها مجرد آراء شخصية حول الاستخدام الأمثل للغة، كتلك القواعد التى يتبعها قائدو السيارات والتى ذكرناها بالفصل الثانى من الكتاب، يمكن للآراء الشخصية أن تكون آراء صائبة ولكنها قد تكون خاطئة أيضا، إن الآراء الأربع التى نادى بها المعياريون

خاطئة بالفعل، إنها نتاج للأهواء الشخصية والجهل وليس للملاحظة أو الرغبة في إضفاء الوضوح أو اللباقة على الكلام، أي إننا في غنى عن هذه الآراء، ولكن بعض الناس لا يمكنهم الاستغناء عنها لأنها ارتقت عندهم إلى مكانة الضرورة الأخلاقية، إننا نتغاضى عن الآراء التي تقال لنا بشأن ملابسنا، ولكننا عندما نأتي إلى أمر اللغة نكون شغوفين لتقبل أي آراء بغض النظر عما إذا كانت منافية للعقل أو للطبيعة، كذلك الإمبراطور الذي أخبره الناس بإعجابهم الشديد بروعة ملابسه، خلاصة القول أن البعض يعتقدون بأن الجهل بالآراء التي تقال في شأن اللغة أو رفض تلك الآراء – حتى إن بلغت درجة من الحماقة – أمر غير أخلاقي.

إننا على يقين بأن ذلك الأمر الأخلاقي هو السبب وراء محاباة الرأي الخاص باستخدام الشكل "whom" بدلا من "who" ،لقد قرر البعض أن استخدام الشكل "whom did you see" مسئولية أخلاقية ينتهجها كل فرد مهذب مستقيم، بينما اعتبروا استخدام الشكل "who" انحدار أخلاقي يتساوى بالتعامل مع المحال التي تروج البضائع الضارة أو حتى مع التهرب الضريبي، قد تعد هذه الخاتمة مفاجئة لك ولكنه التفسير الأمثل لما سبق.

ماذا يحدث للغتنا ؟

رأينا بالفصل الخامس أن حدوث التغير ملمح ثابت لا يمكن تجنبه في كل اللغات، فعلى مدى حياة أي شخص تكتسب اللغة عددا من الكلمات الجديدة والهجاءات والأشكال النحوية وتفقد كذلك عددا من الأشكال القديمة، لا يسعد كل الأشخاص بهذا الصنيع، انظر إلى الجمل القليلة التالية :

(8-1) Fortunately, I have a spare fan belt.

(٨–١) لحسن الحظ أن عندي إطارا احتياطيا.

(8-2) Frankly, you ought to stop seeing Bill.

(٨–٢) أقولها لك بصراحة، ينبغي أن تتوقف عن رؤية بل.

(8-3) Mercifully, the ceasefire appears to be holding.

(٨–٣) إن وقف إطلاق النار أمر يدعو للتفاؤل.

(8-4) Undoubtedly, she has something up her sleeve.

(٨-٤) مما لا شك فيه أنها تخفي شيئا ما.

(8-5) Hopefully, we'll be there in time for lunch.

(٨-٥) نأمل أن نصل في موعد الغداء.

(8-6) Honestly, you have no taste in clothes.

(٨-٦) بأمانة، ذوقك في اختيار ملابسك غير موفق.

هل هناك شيء ما أصابك بالدهشة في تلك الجمل ؟ أم أنها جمل عادية ؟ إن هذه الجمل عادية لدرجة كبيرة بالنسبة لمعظم الناس، ولكن في الحقيقة نقول أن خمسة منها جملا طبيعية للغاية عند كل الناس، بينما جملة واحدة غير ذلك.

تتسبب الجملة (٨-٥) في مشاكل لبعض الناس، فقلة من متحدثي اللغة الإنجليزية لا يرفضون أمثال هذه الجمل فحسب بل يفعلون ذلك وهم يموتون غيظا.

تمثل كلمة "hopefully" بموقعها هذا مشكلة لهؤلاء الناس، فهم لا يفضلون هذا الموقع ويتذمرون من وجودها به، وقد وصف الأستاذ "فيليب هاورد" - الكاتب اللغوي الشهير - هذه الكلمة في موقعها السابق بأنها "ممقوتة"، "غامضة"، "مبهمة"، "كريهة"، "رنانة"، "جاهلة"، ويؤكد أن من يأتي بها في هذا الموضع يكون أكاديمي أمريكي غير حاذق في مهنته، إنه يرفضها في موقعها هذا بكل حال من الأحوال.

لم يكن (فيليب هاورد) هو الوحيد الذي تصدى لاستخدام تلك الكلمة في موقعها ذلك، فقد اشتكي العديد من الكتاب الآخرين منها بنفس الدرجة من الامتعاض، لكن لماذا تصدى هؤلاء القلة لمثل هذا الاستخدام بينما اعتاده الآخرون ؟

تسمى الكلمات المتبوعة بالفاصلة في الجمل السابقة بالتعبيرات الظرفية، ولكن كل ما في الأمر أن هذه التعبيرات تم استخدامها منذ أجيال عديدة بينما استخدمت "hopefully" كتعبير ظرفي على نطاق واسع منذ عقدين أو ثلاثة، أي أنها تجديد حديث في التاريخ الطويل لتغير اللغة الإنجليزية.

إن الذين يرفضون استخدام "h" يكونون من متوسطى أو كبار السن، إنهم أناس استخدموا الإنجليزية لعقود عدة قبل أن يظهر هذا التجديد بها، وعلاوة على ذلك، فهم أناس نالوا قسطا وافرا من التعليم ويولون اهتماما خاصا لاستخدام اللغة، إنهم غالبا متحفظون بشأن وجهتهم للغة، فهم يميلون إلى التصدى للتغيرات التى تحدث فى اللغة الإنجليزية على أنها "فشل" و"فساد"، على العكس نشأ المتحدثون من صغار السن على هذا الاستخدام الجديد واعتبروه طبيعي للغاية.

لم تكن الجلبة التى صنعت حول الصوت "h" اتجاها جديدا فهناك اعتراضات مشابهة فى كل مرحلة من مراحل التاريخ اللغوى للغة الإنجليزية وكذلك أية لغة أخرى، ما رأيك في الأمثلة التالية ؟

(8-7) My car is being repaired.

(٨–٧) يتم إصلاح سيارتى.

(8-8) My house is being painted.

(٨–٨) يتم طلاء بيتى.

(8-9) This problem is being discussed at today's meeting.

(٨–٩) ستتم مناقشة هذه المشكلة فى اجتماع اليوم.

هل من شيء غريب ؟ إننا لا نعتقد ذلك، فليس هناك متحدث للإنجليزية يصف هذه الجمل بأنها غير عادية.

لم يظل الأمر كذلك، فحتى القرن الثامن عشر لم يعد لمثل تركيب هذه الجمل وجود باللغة النموذجية، وكان على المتحدث الإنجليزى أن يقول بدلا منها مثلا **"My car is repairing"**، **"My house is painting"**، **"This problem is discussing at today's meeting"** أشكال يستحيل تواجدها الآن، لكنها كانت الأشكال الطبيعية فى القرن الثامن عشر، وعندما بدأ بعض المتحدثين المجددين قول جمل مثل **"My house is being painted"** لم يقو المحافظون اللغويون آنذاك على ثورة غضبهم. أخذوا يهاجمون التركيب الجديد بضراوة وقالوا أنه "غير مناسب"، "غير منطقى"، "محير"، "شاذ"، لكن ذهبت جهودهم أدراج الرياح فقد مات كل هؤلاء المعارضون منذ زمن بعيد ومات معهم الشكل التقليدى

الذي طالما دافعوا عنه باستماتة، ثم أصبح الشكل الجديد "غير المنطقي" و"الشاذ" هو الشكل الوحيد الممكن استخدامه، ولم يتمكن أكثر كتاب اللغة الإنجليزية حرصا وبراعة من الإفلات منه ولو حتى في أحلامهم، والعودة للشكل القديم البائد، قد تتعجب من حنق القرن الثامن عشر وتتساءل لماذا كل هذه الجلبة؟ كما سيقرأ الجيل القادم الهجمات ضد الصوت "h" في حيرة ويسألون لماذا كل هذه الضجة ؟

أظهر الكتاب الرومانيون عداء مشابها للتغيرات التي كانت تحدث للغة اللاتينية المتحدثة حينئذ منذ ألفي عام، لكن فزعهم بسبب "الفساد" المستمر للغة لم يكن له أي تأثير حيث استمرت اللغة اللاتينية في التغير "الاضمحلال" حتى تطورت إلى اللغات الحديثة المعروفة لنا مثل الإسبانية والفرنسية والإيطالية، بالطبع لا يعتبر متحدثو هذه اللغات لغتهم فاسدة ولكنهم اعتبروها غنية وجميلة ومعبرة، فقد أظهر المحافظون على اللغة في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا إعجابا شديدا بلغاتهم التي نشأوا عليها ولكنهم أبقوا على استخدام بعض الكلمات لأشياء يتفوه بها صغار السن حاليا، تنادي طائفة من المحافظين في كل وقت ومكان بأن اللغة منذ أجيال مضت كانت في أوج ازدهارها بينما تأخذ في الانحطاط سريعا باستخدام مثل هذه الكلمات "الرديئة"، "التافهة"، "الجاهلة" التي تتهافت على أسماعنا هذه الأيام.

التنقية اللغوية :

يتلقى نوع بعينه من التغير قدرا من الاهتمام قد يستمر لعقود أو حتى لقرون بعد حدوثه، إنه الاقتراض – كما ذكرنا بالفصل الخامس – يتم استخدام عدد قليل جدا من اللغات في عزلة تامة أي أن متحدثي اللغات الأخرى يكونون على اتصال ببعضهم بعضا ويترتب على هذا الاتصال اقتراض الكلمات من لغة إلى أخرى، كذلك لا يقنع الجميع بحدوث مثل هذه الاقتراضات، فقد يعترض المحافظون على وجود العدد الهائل من الكلمات المقترضة بلغتهم ويعتبرونها نوعاً من "التلوث" الذي يشوه "نقاء" اللغة، وهم تبعا لذلك ربما يثورون من أجل "تطهير" اللغة وينادون بإحلال الكلمات الأصلية محل الاقتراضات الأجنبية.

بالرغم من أن اللغة الإنجليزية تحتل المكانة الأولى بين اللغات المقترضة إلا أنها أصبحت لغة مانحة في العقود الأخيرة، إنها اللغة الأساسية للعلم والتكنولوجيا والعمل والثقافة العامة لذا فقد نهلت منها لغات مثل الفرنسية والإسبانية والألمانية والإيطالية

وحتى اليابانية – بكثرة، ما عليك إلا أن تتصفح أي مجلة أوروبية أو يابانية متداولة ستجد صفحاتها مليئة بالكلمات الإنجليزية المقترضة، أما نحن فقد تخيرنا مجلة إيطالية فوجدنا التالي : في كل صفحة يوصف شخص بأنه "a rockstar" (نجم الروك)، "a top model" موديل مثالي، "a sex-symbol" رمز للجنس، "a top man-ager" (كبير مديرين)، في أحد الإعلانات عن الحاسبات الآلية نقرأ عن"a hard disk" القرص الصلب و "a mouse" الفأرة و "a floppy" القرص المرن، كذلك يسمى فيلم ما بفيلم الرعب "horror" والآخر ذو نهاية سعيدة "a happy end". أما المقالات عن الموضة فتتحدث عن "look" (المظهر) وأحدث الصيحات، أي أن الصفحات تكون متخمة بكلمات إنجليزية مثل "jogging" (السير الوئيد)، "fan" (نصير)، "gadget" (آلة صغيرة مبتكرة)، "hobby" (هواية)، "t-shirt" (قميص بأكمام قصيرة)، "massage" (تدليك أو مساج)، "parlour" (صالة استقبال)، "zoom" (تكبير أو تصغير)، "pay-tv" (تليفزيون بجهاز تلقى به العملات عند استخدامه)، "show" (عرض)، "home video" (فيديو منزلي)، "mass media" (وسائل إعلام)، "status" (مكانة)، "checkup" (فحص شامل).

إن الولع بالاقتراضات من اللغة الإنجليزية أزعج المحافظين اللغويين بفرنسا، لقد كانت اللغة الفرنسية – قبل ازدهار اللغة الإنجليزية في بداية القرن الحالي – هي اللغة الأولى في العالم لذا كان من الصعب عليها تقبل الموقف والانصياع لسيادة اللغة الإنجليزية، لهذا بذلت السلطات الفرنسية جهودا مستميتة ومضنية لوقف اقتراض مئات الكلمات الفرنسية من اللغة الإنجليزية، وتم ذلك عن طريق استبدال تلك الاقتراضات بكلمات فرنسية أصلية ومطالبة المواطنين باستخدام هذه الكلمات الفرنسية الحقيقية وليس غيرها، إذن بينما يكون الألمانيون والإيطاليون واليابانيون سعداء عند شراء جهاز حاسب آلي "computer" وملحقاته من برامج "software" وقلم ضوئي "light pen" وقرص مرن "floppy" يكون الفرنسي مضطرا لشراء "ordinateur" و "logiciel" و "a crayon optique" و "a disquette" اقترضت الفرنسية الكلمة الإنجليزية "debug" (يخرج برنامجا تليفزيونيا لأول مرة) على الشكل "débugger" في أول الأمر ولكن السلطات الفرنسية أمرت أن تكون الكلمة على الشكل"déboguer" والذي يقترب كثيرا من الشكل الذي تأتي عليه الكلمات الفرنسية، يذكرنا المثال الأخير بمحاولة البعض لتبديل الكلمة الإنجليزية المقترضة "bulldozer" (بلدوزر) بالكلمة الفرنسية "bouledozer".

لنضع الأمور في نصابها الصحيح نقول أن السلطات اللغوية الفرنسية نجحت إلى حد ما في إقصاء بعض الاقتراضات الإنجليزية خارج لغتهم، ومع ذلك لا زال المتحدثون الفرنسيون يقضون "le weekend" (أجازة نهاية الأسبوع) في "le campaing" (الريف)، ويستمعون إلي "un CD" (أسطوانة) أو "un walkman" (جهاز كاسيت)، وربما يفضلون الاستماع لموسيقا "le rock" (الروك) أو "le jazz" الجاز أو "le blues" (الأغاني الكئيبة الزنجية الأصل) أو "le heavy metal" (الهيفي ميتال)، إنهم إذا فكروا في قضاء سهرة خارج المنزل قد يذهبون إلى "le pub" (البار) ويتناولون "un scotch" (ويسكي أسكتلندي) أو "un gin" (الجن)(٨٩) أو "un cocktail" (كوكتيل)، أو يذهبون لمشاهدة "un western" (فيلم غربي)، أو قد يمكثون بالنزل لقراءة "un best seller" (أكثر الكتب رواجا) أو مشاهدة "le football" (كرة القدم) بالتليفزيون، (أثارت دهشتنا تلك الحملة الإعلانية التي شنتها السلطات الفرنسية عندما أقلقها انتشار مرض الإيدز، وفي أحد هذه الإعلانات تظهر سيدة صغيرة السن جميلة تخرج لسانها من فمها، ومكتوب على الصورة تعليق "يسقط الإيدز"، يبدو أن العامية الإنجليزية قد وجدت طريقها باللغة الفرنسية وبخاصة في حديث صغار السن)، يسمى العداء تجاه الكلمات المقترضة من لغات أخرى بالتنقية اللغوية، وهو ظاهرة واسعة الانتشار.

يمثل الاقتراض بالترجمة أحد الطرق المتبعة في إطار حملة التنقية اللغوية، إنها طريقة جيدة لاقتراض الكلمات الأجنبية، فبدلا من اقتراض الكلمة بذاتها تقوم اللغة المقترضة بترجمة تلك الكلمة حرفيا لتبدو هذه الترجمة قريبة الشبه بالكلمات الأصيلة لتلك اللغة.

اتبع الرومانيون القدامى تلك الطريقة عند اقتراضهم لكلمات من اللغة اليونانية التي كانت ذات مكانة عظيمة حينئذ، تتكون الكلمة اليونانية "sympathia" – على سبيل المثال – من جزئين : السابقة -syn وتعني (مع) والجذر "pathia" ويعني (معاناة)، قام الرومانيون بترجمة هذه الكلمة باستخدام اللاحقة -con (مع) والجذر "passio" (معاناة) الخاصين بهم، لينتج عن تلك الترجمة الاقتراضية الكلمة "compassion"، أما المتحدثون للألمانية فقد ترجموا هذه الكلمة بدورهم باستخدام العناصر الألمانية "mit"(مع) و "leid"(معاناة) لينتج عنها "mitleid" ومعناها (تعاطف) أو (شفقة)، بالمثل تكونت الكلمة اللاتينية "expressio" من "ex" (خارج) و "passio" (ضغط)، وتم اقتراضها للألمانية بالترجمة فأصبحت "Ausdruck"، "aus" (خارج) و "druck" (ضغط).

(٨٩) شراب مُسكر.

كانت كل من اللاتينية والألمانية من أكثر اللغات اعتمادا على الاقتراض بالترجمة كبديل للاقتراض المباشر، ولكن قد يسبقهما في ذلك اللغة المجرية، تعد الكلمات اليونانية "thermos" (حرارة) و "metron" (مقياس) مصدرا للكلمة "thermometer" الإنجليزية و "thermometer" الفرنسية و "term?metro" الإسبانية و "thermometer" الألمانية و "thermomedr" الويلزية و "termometro" الباسكية و "termometre" التركية و "termometr" الروسية و "thermometer" السويدية، وهكذا بامتداد القارة الأوروبية – فيما عدا اللغة المجرية – فالكلمة بها هي "h?mér?" وهي اقتراض بالترجمة من نفس اللغة.

فضلت اللغة الإنجليزية الاقتراض عن الاقتراض بالترجمة، فقد اقترضت على الرحب والسعة الكلمات اليونانية "expression" و "compassion" والكلمة اليونانية "sympathy"، لم يتزعج أحد من ذلك الكم الهائل من الاقتراضات، فيما عدا الشاعر "ويليم بارنز" الذى – في القرن التاسع عشر – احتج احتجاجا فرديا قائلا بأن كلمة "omnibus" (أتوبيس حديث) يجب استبدالها بكلمة "folkwain" (كلمة تشبه في تركيبها اسم السيارة الألمانية - Volkswagen فولكسوجن)، لم يعبأ بما نادى به "بارنز" إلا القليل ولكن في عام ١٩٦٦ عرض الكاتب الساخر "بول جيننجز" بمجلة "البانش" نموذجا للغة الإنجليزية إذا حدث واتبعت طريقة اللغة المجرية، فيما يلي فقرة تتحدث عن هزيمة الملك "ويليم" النورماندى في معركة "هاستنجز" :

كتبت في الفقرة السابقة "foregoing" عن الذكرى التسعمائة لمعركة "هاستنجز"، عما سببته هذه المعركة العظيمة من تغيير "otHering" لمعرفتنا لمدة قرن تال "hundredyear" وحتى يوم القيامة، وكيف كان الغزاة "inganger" منهمكين في أمر الحرب، وكيف ظلت لغتنا الإنجليزية بمنحى عن تأثير لغتهم الفرنسية التي استمدت اشتقاقاتها "outshoot" من اللغة اللاتينية، لقد كنا نتحدث الإنجليزية منذ العهد الذى اشتغلنا فيه بالزراعة ودرس الأرض وأمور صرف المياه، في جو يتغير دائما تملأه الأمطار والسحب وتدرجات الألوان، كانت الحياة بشكلها هذا معين لا ينضب يثرى "enmulch" فنون ذلك العهد، فقد ظهرت مجموعات الكلمات غير المسبوقة "unbettered" المتجانسة "againclanger" الدالة على الأصوات الحقيقية "samenoiselike" مثل "الريح والماء"، "الفرس والكلب" وغيرها، لقد أمدت لغتنا

الإنجليـزية كـلا من الشـعـراء "bards" والفـلاسـفـة "deepthinker" والكتـاب "trypiecemen" باسـتـعـارات "switchmeangroup" لأفكار "withtaking" معنوية "unthingsome"ومجردة "overthingsome" لا مثيل لها.

كمـا نرى، تبـدو بعض الابتكارات التى أتى بها "جيتنجـز" غيـر يسـيرة : "samenoiselike"، "againclanger"، "switchmeangroup"، "unthingsome"، "overthingsome"، "withtaking" (هذه الكلمة اقتراض بالترجمة)، "trypiecemen".

ما رد فعلك الآن ؟ هل من الممكن أن تكون اللغة الإنجليزية أفضل حالا بدون آلاف الكلمات التى قامت باقتراضـها ؟ وهل من الممكن أن تكون أكثر ثراء إذا قلنا "foregoing" بدلا من "preceding" (الســابق)، "yearday" بدلا من "anniversary" (ذكـرى سنوية)، "othering" بدلا من "changing" (تغـيـر)، "hundredyear" بدلا من "century" (قــرن)، "inganger" بدلا من "invader" (غــزاة)، "outshoot" بدلا من "derivation" (اشـتـقـاق)، "enmulch" بدلا من "enrich" (يثرى)، "unbettered" بدلا من "unsurpassed" (غـيـر مـسـبـوق)، "deepthinker" بدلا من "philosopher" (فيلسوف) ؟ على أى حال، إننا لن نسير على نهج متحدثى الفرنسية فى تنقيتها للغة من جميع الاقتراضات التى دخلتها.

أخيرا نود القول بأن "جيتنجـز" قد أخطأ قليـلا عندما جاء بالكلمات"noise" و "age"و "piece" والتى هى اقتراضات من اللغة الفرنسية وإن كانت متخفية بعض الشىء بعكس الكلمة "bard" المقترضة من اللغة الأيرلندية أو الويلزية، إنه من العسير كتابة جملة إنجليزية دون استـخدام الاقتراضات، وهذا يجعلنا نستنتج أن التنقية اللغوية ليست ذات أهمية عند متحدثى الإنجليزية.

الطريقة المثلى للحديث :

نادرا ما يتواجد الشكل "doesn't" فى الكلام العـامى للمنطقة الغربية بنيويورك وهى المنطقة التى نشأ بها الكاتب، فهناك يقول كل فرد "I don't matter" (لا أعبأ) و "He don't matter" (لا يعبأ)، وهى أشكال مـألوفة بكل تأكيد مهما اختلف مكان نشأتك.

يسرد كاتبنا خبرة شخصية مفادها أن السيدة "بريك" معلمة اللغة الإنجليزية اعترضت بشدة على استخدام الشكل السابق وشنت عليه حربا ضارية، إنه يتذكر جيدا يوم أن كان جالسا بالفصل وكانت السيدة "بريك" فى أوج غضبها، وعند سماعها لواحد من الطلاب يدعى "نورمان" يقول "He don't know that" (إنه لا يعرف ذلك) انفجرت قائلة "he doesn't know that, Norman"، أجاب نورمان "نعم، هذا صحيح" ولكنه كرر استخدام الشكل "don't" ثانية، وكذلك كررت السيدة "بريك" "ليس don't" وتحول لون وجهها وهي تقول له "He doesn't know"، وتملكت "نورمان" الحيرة وهو يقول "لكنها لا تبدو صحيحة !".

يلخص الموقف السابق بدقة شديدة التناقض بين جانب بعينه من أشكال اللغة والذى نطلق عليه الإنجليزية النموذجية، وكافة التنوعات الأخرى والتى من الممكن تسميتها جمعاء بالإنجليزية غير النموذجية، يتولى معلّمو اللغّة الإنجليزية مسئولية غرس الشكل النموذجي للغة فى أذهان الطلاب والذين يغفلون كثيرا عن هذا الجانب، فالغالبية العظمى من متحدثى الإنجليزية ينشأون على تعلم الشكل العامى من اللغة والذى يختلف كثيرا عن الشكل النموذجي، إذن لماذا يحدث ذلك ؟

تكون إجابة هذا السؤال واضحة لعديد من الناس وهي : ما اللغة الإنجليزية إلا لغة نموذجية، إن اللغة النموذجية لغة سليمة من الناحية النحوية ومنطقية ومعبرة، فى حين تكون اللغة غير النموذجية غير سليمة نحويا وغير منطقية، إنها لا تتبع أى قواعد، يرجع استخدام الناس للغة غير النموذجية إلى تقصير من جانبهم، إنهم غير مستعدين للتحدث بطريقة سليمة.

يمثل متحدثو الإنجليزية النموذجية قلة لأن أغلب من يتحدث تلك اللغة يستخدم بصفة منتظمة أشكالا واسعة الانتشار مثل "I ain't got none" (لم أحصل على شيء)، "I seen him yesterday, but I ain't seen him today" (رأيته بالأمس ولكنى لم أره اليوم)، ("Me and him was here" (كلانا كان هنا)، كذلك يستخدم هؤلاء المتحدثون أشكالا محلية تبعا للمكان الذي يعيشون به مثل العبارة "Ye divvent knaa, div ye" وتعنى بلغة شمال شرق إنجلترا (إنك لا تعرف، أليس كذلك)، وكذلك العبارة "I done

"shot me a squirrel" التي تعني في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية (لقد أصبت سنجابا)، قد تكون مثل هذه الأشكال محيرة أو غير متوقعة بالنسبة لمتحدثي اللغة الإنجليزية النموذجية، ولكن هل هناك سبب يحثنا على اعتبارها غير منطقية أو غير صحيحة من الناحية النحوية ؟

بالتأكيد لا يوجد أي سبب، تذكر الصديق "نورمان" الذي قال (ومن المحتمل أنه مازال يقول) "He don't" لأن هذا الشكل يستخدمه كل المحيطين به وقد سمعه وتعلمه منذ نعومة أظفاره، إن رد فعله تجاه ما قالته السيدة "بريك" بشأن استخدام الشكل "doesn't" سليم جدا، لقد رفضه لأنه لا يعد صحيحاً نحويا من وجهة التنوع الذي نشأ عليه، فهو من وجهة نظره شكل غريب ولاتحوى مثل الشكل"he divvent" المستخدم في نيوكاسيل، لم يكن "نورمان" مقصرا في استخدامه للغة، كما لم يكن متكاسلا عن استخدام الطريقة الصحيحة للكلام، لقد تعلم التنوع المحلي للإنجليزية على أكمل وجه، وكأى متحدث أصلي لأية لغة عرف جيدا القواعد التي يستخدمها كما عرف السليم منها وغير السليم نحويا، تشتمل اللغة الإنجليزية التي يستخدمها"نورمان" على العديد من القواعد النحوية كأى تنوع إنجليزى آخر، كل ما في الأمر أن هذا التنوع لم يحظ بامتياز كونه تنوعا نموذجيا.

كما أنه ليس من الممكن اعتبار الشكل "he don't" أقل منطقية من الشكل "doesn't"، كذلك فإن الشكل "he don't" لا يعد أكثر منطقية من الشكل الشاذ "he won't" الذي يعد شكلا نموذجيا آخر، لم يحدث أن اتهم أحد مستخدمي الشكل النموذجي الشكل "he won't" بأنه غير منطقي وأصر على استخدام شكل أكثر منطقية مثل "he willn't" كانت الأحداث التاريخية هي الحكم الأول في اختيار الأشكال النموذجية، فكان للشكل "he won't" السبق كشكل نموذجي، بينما كان الشكل "he don't" أقل حظا حيث لم يتم اختياره، قد يبدو حديثنا هذا مدهشا قليلا حيث أن عدد الذين يقولون "he don't" أكثر من هؤلاء الذين يقولون "he doesn't".

إن وصف صيغة لفعل ما بأنها منطقية أو غير منطقية لا معنى له، فمناقشة موضوع ما قد تكون منطقية أو غير منطقية، وكذلك بنية مقال ما، أما الحكم على الشكل "doesn't" بأنه أكثر منطقية من غيره لا معنى له على الإطلاق، فليس من علاقة تربط بين الإنجليزية النموذجية والمنطق، إذن ما الذي يتميز به الشكل "does" عن غيره ؟

لا شيء سوى المكانة التي اكتسبها من اتفاق جماعة من المثقفين على اعتبار أشكالا بعينها نموذجية وما عداها غير نموذجي، كيف تحقق هذا الاتفاق ؟

عندما استوطن الأنجلوساكسون إنجلترا منذ ١٥٠٠ عام كانوا يتحدثون لغة إنجليزية متشعبة إلى العديد من التنوعات الأقليمية، وتوضح النصوص المكتوبة بالإنجليزية القديمة هذا التنوع على نحو نابض بالحياة، أنتجت عمليات التغير اللغوى كالعادة وبمرور الوقت تنوعات إقليمية متزايدة، وقد استمرت هذه العمليات إلى وقتنا الحاضر لدرجة أننا شهدنا تباينا كبيرا فيما بين الإنجليزية المستخدمة في الأماكن المختلفة، تتجلى هذه الاختلافات في كل منحى من مناحي اللغة، سنتخذ من هذه المناحي مثالا واحدا يتحدث عن أشكال الفعل.

لاحظ الفعل "be" (فعل الكينونة) الذى اندمجت أشكاله – في مرحلة مبكرة من التاريخ الإنجليزي القديم – بأشكال لفعلين آخرين يتشابهان معه في المعنى، ونتج عن ذلك – بالإنجليزية النموذجية – الأشكال الشاذة مثل : "I am, you are, he is, I was, you were, I have been" (أكون، تكون، يكون، كنت، كان)، اختار كل تنوع فض هذا النزاع بطريقته الخاصة والتى تختلف دائما عن الاتفاقات النموذجية، فنجد أن ساكني مقاطعة (سومرست) "Somerset" اتفقوا على الأشكال التالية : "I be, thou art, he be, we be, you be, they be" (أكون، تكون، يكون، نكون، تكون، يكونون)، بينما تم تعميم الشكل "is" في أجزاء كثيرة من شمالي إنجلترا على النحو التالي "I is, he is, we is, you is, they is"، في حين عمت بعض التنوعات الغربية الشكل "am" كما يلي : "I am , you am, he am, we am, you am, they am"، استقرت مناطق أخرى على أشكال مختلفة حيث اختارت إنجلترا الأشكال : "I am, I is, I are, I be, I bin". ينطبق الأمر ذاته على الصيغة الماضية لفعل الكينونة، فعممت بعض التنوعات الشكل "was" "I was, you was, we was"، بينما عمم البعض الآخر الشكل "were" "I were, you were, he were". والآن لم تعد بعض الأشكال أكثر منطقية من غيرها، كل ما في الأمر أن هناك أشكالا أصبحت أكثر اعتيادية من غيرها ولكن لم يحالفها الحظ حتى تصبح إحدى الأشكال الإنجليزية النموذجية، ومن أمثلة تلك الأشكال "I seen her" (رأيتها)، "I done it" (فعلتها)، "I drawed a picture" (رسمت لوحة)، "I writ a letter" (أكتب خطابا)، "I've took a picture" (التقطت صورة).

لا تتوحد الإنجليزية النموذجية في جميع المناطق، ففي الإنجليزية الأمريكية يقولون "I got a letter yesterday" (تسلمت خطابا بالأمس)، بينما يقولون في إنجلترا "I've just gotten a letter" (تسلمت خطابا لتوى)، بينما اعتبر كلا الشكلين نموذجيين، تم استبدال الشكل الثاني بآخر نموذجي وهو "I've just got a letter" = "I've just received a letter" (تسلمت رسالة لتوى).من ناحية أخرى تتفق النموذجية البريطانية مع النموذجية الأمريكية في الشكل "I've forgotten her name" (لقد نسيت اسمها)، برغم انتشار الشكل "I've forgot her name" إلا أنه غير مقبول في الوقت الحالي كشكل نموذجي، ولكن ربما يعتبر كذلك في يوم من الأيام.

كيف يتم الاختيار ؟ من وما الذى يحدد الأشكال التى ستصبح نموذجية و غيرها من التى تتدنى فى المنزلة فلا يمكن اعتبارها نموذجية ؟ على الأغلب أن ذلك حدث بمحض الصدفة، فقد حدث فى فترات مبكرة من التاريخ الحديث (القرن الخامس عشر والسادس عشر)، فنظرا لاستفحال الاختلافات الإقليمية بين متحدثى الإنجليزية، الأمر الذى خلق صعوبة فى التواصل ما بين ساكنى الجهات المختلفة من إنجلترا، وكذلك نظرا لازدياد حركة السفر والتنقل والتجارة وازدهار التعليم ، كان من الضرورى التوصل إلى حل ما، لم تتبع اللغة الإنجليزية طريقة اللغة الفرنسية فى إنشاء أكاديمية لغوية تضع القواعد الخاصة باللغة وتفرضها على المتحدثين، فبدلا من ذلك تم حل المشكلة بالطرق السياسية، حيث أصبحت العاصمة لندن وما حولها من مقاطعات أهم مناطق البلاد سياسيا (حيث تواجدت بتلك المناطق المحكمة، وهى محور النظام القضائى والإدارى)، واقتصاديا (حيث كانت مركزا للتجارة والنظم البنكية)، وثقافيا (حيث اقتربت من الجامعات العريقة كأكسفورد وكامبريدج).

كان هذا هو الحل، حيث اعتبرت التنوعات الإنجليزية المستخدمة فى لندن وما حولها أكثر أنواع التنوعات اللغوية قبولا وأعظمها مكانة، تبعا لذلك وفد الرجال والنساء من أصحاب الطموح إلى لندن لإيجاد فرصة فى عيش أفضل، وما كان عليهم إلا أن يوفقوا كلامهم مع الأشكال التى سمعوها هناك، نتيجة لهذا اعتبرت الكلمات والأشكال المستخدمة فى المناطق المحيطة بلندن – تدريجيا – هى الرؤية النموذجية للغة الإنجليزية بصرف النظر عما إذا كان الإقبال على استخدامها غير كبير فى مناطق

أخرى، وعلى الجانب الآخر لم ترق الأشكال التي تم استخدامها في تلك المناطق إلى درجة النموذجية، وحتى إن كانت واسعة الاستخدام في تلك المناطق الأخرى.

من الأهمية بمكان إدراك أن أشكال الإنجليزية النموذجية ما هي إلا نتاج للأحداث التاريخية، فلو كان تحققت لبعض مناطق أخرى من إنجلترا – السيادة لكان من المحتمل أن تصبح أشكالا مثل : "he don't" و "they was" نموذجية ولبذل معلمو اللغة الإنجليزية المتشددون قصارى جهدهم لمحو الأشكال "الجاهلة" و"الساذجة" مثل : "he doesn't" و"they were".

لا تظل الأشكال النموذجية بمعزل عن التغيير، فمنذ عدة قرون تواجد الشكل "I catched a cold" (أصابتني الأنفلونزا) وجاء الشكل الجديد الجاهل "caught" (يبدو أنه جاء على نهج الفعل taught تعلّم) ليحل محل الشكل الأول الذي يعتبر الآن جاهلا. حديثًا تم استبدال الشكل الأمريكي "I dived into the water" (غطست في الماء) بالشكل "I dove into the water" عند كثير من الناس بما فيهم مؤلف كتابنا، وبذلك أصبح الفعل "dive, dove" يصرف على غرار الفعل "drive, drove" (يقود).

إذن كيف يتسنى لنا معرفة الرؤية النموذجية للغة الإنجليزية ؟ قبل أي شيء نود القول أن الإنجليزية النموذجية شكل ملائم، فالمتحدثون من "جلاسكو" و"نيوكاسيل" و"نيو أورليتز" و"كاب تاون" يعانون من مشكلة صعوبة فهم بعضهم بعضاً إذا تمسكوا باستخدام تنوعاتهم المحلية كل فيما يخصه، أما إذا اتفقت هذه الأطراف على شكل نموذجي واحد يتعلمه كل المتحدثين في كل مكان لكان من السهل عليهم حل مشكلة صعوبة الفهم هذه.

لا يوجد تنوع بعينه أفضل أو أسوأ من غيره، كل ما يعتد به هو مدى طواعية هذا التنوع وكونه مرضيا إذا تم اختياره كنموذج، يتم اختيار تنوع للإنجليزية وفق سلسلة من الأحداث التاريخية ليصبح بعد ذلك نموذجا يفي بالأغراض التي اختير من أجلها، أي يكون هذا التنوع ملائما لكل متحدثي اللغة، فبغض النظر عن طريقة الكلام التي نستخدمها للحديث إلى أخواتنا أو أمهاتنا فإننا في تأليف كتاب ما نستخدم الإنجليزية النموذجية التي تعلمناها بغض النظر أيضا عن مكان نشأتنا ومن هنا يكون من السهل فهم ما قمنا بكتابته.

لقد أصبحت الإنجليزية النموذجية - في عالم مثل عالمنا - أكثر من ملائمة، أصبحت ضرورة، فلن يقوى أي متحدث للإنجليزية على العيش في ذلك العالم المتسع إذا لم يتمكن من إجادة إحدى اللهجات النموذجية (ما الإنجليزية النموذجية سوى لهجة ضمن العديد من اللهجات)، إننا نتعامل على مدار حياتنا مع العديد من متحدثي الإنجليزية من شتى أنحاء العالم، لذا يجب علينا أن نستخدم تلك اللهجة النموذجية الاستخدام الأمثل، ومن يعجز عن ذلك يكون قد خسر خسرانا مبينا، فقد يكتب عليه إما عملا مهينا زهيد الأجر أو بطالة طويلة المدى، إن السيدة "بريك" التي سبق الحديث عنها قد علمت تمام العلم أن "نورمان" لن يتمكن من الارتقاء في حياته المستقبلية إذا أصر على استخدام ذلك الشكل غير النموذجي من اللغة.

لا تتفرد اللغة الإنجليزية بأمر النموذجية هذا وحدها، فقد يتراءى لنا هذا الأمر في جهات أخرى من العالم، لنأخذ اللغة الألمانية كمثال، تختلف اللهجات الإقليمية للغة الألمانية لدرجة كبيرة، حتى أن المتحدثين من "برلين" و"بون" لا يتسنى لهم فهم بعضهم بعضا إذا ما استخدموا لهجاتهم العامية، تبعا لذلك، يستخدم متحدثو الألمانية تنوعاتهم المحلية عند الحديث مع أشخاص يشاركونهم تلك التنوعات، بينما يستخدمون الألمانية النموذجية عند الحديث مع الأشخاص الآخرين : أي أن متحدثي الألمانية ثنائيو اللهجة، إنهم لا يعتبرون أي لهجة من تلك اللهجات "جاهلة" أو "غير مهذبة"، بل يتعاملون معها باعتبارها ذات وظيفة مغايرة لتلك التي تقوم بها الألمانية النموذجية.

لابد أنك لمست أن اتجاه البلاد المتحدثة للإنجليزية نحو التنوعات غير النموذجية يختلف تماما عن ذلك الخاص بالبلدان المتحدثة للألمانية، لقد ألصقت بالتنوعات الإنجليزية أبشع الاتهامات وهذا اتجاه مخزٍ للغاية، إن الرغبة في جعل كل فرد بالمجتمع يتحدث صورة نموذجية للغة أمر ليس بسيئ، ولكن السخرية من التنوعات غير النموذجية واتهام من يستخدمونها بالتقصير أو الجهل هو الأمر السيئ بحق.

يبقى لنا نقطة واحدة في موضوعنا هذا وهي احتمالية عدم اقتناعك بكل ما عرضناه في الفصل الذي بين أيدينا الآن، ربما تكون قد أصبت بارتفاع في درجة حرارتك عند كل مرة تقرأ فيها ذلك الفصل وربما تكون أيضا من أولئك الذين يرون أن الضرورة الأخلاقية تحتم قول العبارة "Whom did you see" أو هؤلاء الذين يجتنبون استخدام المنشطر، إننا نختلف مع أمثال هؤلاء الأفراد سالفي الذكر ولنا أسبابنا في

ذلك، لذا يجب ألا تتهمنا بأننا نزعم بأن كل أشكال اللغة الإنجليزية جيدة ومقبولة، ليس الأمر كذلك والدليل أننا جميعا نعرف أشكالا للإنجليزية المتحدثة أو المكتوبة تتميز بأنها مطنبة ومبهمة ورنانة أو بأنها غير دقيقة وغير مهذبة وغير واضحة، إننا نعترض على مثل هذه الأشكال وندعو إلى مجاهدة أنفسنا قدر الإمكان من أجل التحدث والكتابة بلغة إنجليزية واضحة وغنية ومعبرة، يمكننا القول بأن الإنجليزية غير النموذجية يمكنها أن تكون واضحة ومعبرة لدرجة كبيرة، مثلما أمكن للعديد من الأشكال البغيضة التي نستخدمها أن تكون أشكالا نموذجية، ومن أمثالها الوثائق القانونية والرسمية، والتصريحات الطنانة التي يصدرها السياسيون ورجال الجيش، إذا كان من شأن كل من استخدام الشكل "whom" واجتناب المصدر المنشطر جعل اللغة واضحة ومعبرة لكنا أول من نادينا بأخذ هذا وترك ذاك، إن كلا من المصادر المنشطرة وحروف الجر التي تحتل موقعها بنهايات الجمل والظرف "hopefully" أشكال واضحة ومعبرة أكثر من غيرها، وأولئك الذين يرفضون هذه الأشكال – لسبب أو لآخر – إنما يرفضون أشكالا جيدة ويستبدلونها بأخرى طنانة سيئة.

اللغة والهوية : تكرار

علمنا من الفصل الرابع أن طريقة الفرد في التحدث تلعب دورا حيويا في تشكيل هويته داخل المجتمع، كذلك تتمثل العلاقة بين اللغة والهوية على نطاق أوسع فيما بين لغات وشعوب عدة، ولكن أهملت أهمية تلك العلاقة مرارا وعلى مدى القرنين السابقين من جراء الأحداث السياسية التي جرت خلال العديد من القرون، دعونا نفحص اثنتين من تلك الحالات باختصار.

فلنبدأ بالنرويجيين، حيث كانت النرويج مقاطعة دانماركية تتحدث اللغة الدانماركية تبعا لذلك، عرف كل النورجيين المتعلمين اللغة الدنماركية، كما تأثر كلام النرويجيين الذين سكنوا المنطقة الجنوبية المزدحمة بتلك اللغة إلى حد كبير (بطريق مباشر عبر الدانمارك)، كان تأثير تلك اللغة على القرى البعيدة بالساحل الغربي – على العكس – غير كبير، وعندما نالت النرويج استقلالها عام ١٨١٤ كان الشبه بين النرويجيين الجنوبيين أقرب إلى اللغة الدانماركية من اللهجات الغربية، (على سبيل المثال، كانت النرويجية الجنوبية جنسين نحويين بينما كان للنرويجية الغربية ثلاثة أجناس نحوية).

اتفق النرويجيون بعد الاستقلال على أن تحل اللغة النرويجية محل اللغة الدنماركية كلغة رسمية للبلاد، ولم يكن هذا أمرا غريبا على الإطلاق، لذلك كان على كل مستعمرة اتباع سياسة مماثلة، ولهذا السبب لم يتحول الإنجليز إلى مواطنين دانماركيين، أو بريتانيين أو روسيين من الدرجة الثانية، إنهم أناس شعب متميز ذي هوية خاصة، إن لغتهم هي الشعار المميز لهويتهم على المستوى العالمي.

لذلك اتفق كل أفراد الشعب النرويجي أن تكون اللغة النرويجية هي لغة الأمة الجديدة، لقد ظهر ذلك وكأنه إجماع عام ولكنه لم يكن كذلك، كانت المشكلة تكمن في التساؤل التالي : أي نوع من النرويجية ؟ اقترح بعض النرويجيين أن يتحدث كل المتعلمين شكلا من اللغة النرويجية يشبه اللغة الدانماركية، ولتكن اللغة الدانماركية النرويجية حتى يتسنى لهم تقليل حجم التشتت الذي سيحدث من جراء تكوين لغة جديدة، على الجانب الآخر، تبنى الآخرون وجهة نظر مختلفة تماما وهي أن الدانماركية النرويجية نتاج غير نقي للغة النرويجية وهي أكثر سوءا من الدانماركية ، لذلك فإن اللغة النرويجية الفعلية هي اللغة المتحدثة بالساحل الغربي والتي لم تتأثر باللغة الدانماركية والتي تعد أنقى أشكال اللغة وهي من أجل ذلك يجب أن تكون لغتهم القومية.

تعبر وجهة النظر الثانية عما قلناه بشأن التنقية اللغوية كما تعبر عن رغبة عامة من جانب اللغات القومية الحديثة العهد والتي طالما اختلطت بلغات مجاورة أكثر منها قوة وهي الرغبة في "abstand" وهي كلمة ألمانية تعني (البعد اللغوي) فقد حرص المؤيدون لوجهة النظر الثانية على إبعاد لغتهم عن اللغة الدانماركية القريبة الصلة بهم خوفا من أن يعتبرها الغرباء مجرد لهجة غريبة من لهجات اللغة الدانماركية.

لم تتمكن إحدى وجهتي النظر من الانتصار وكانت النتيجة تأرجح الشعب النرويجي – الذي يصل تعداده إلى أربعة ملايين نسمة – ما بين شكلين نموذجيين للغة النرويجية يتحتم عليه تعلمهما، لقد استمرت هذه الحالة الشاذة حتى يومنا هذا بالرغم من الجهود الشاقة التي تبذلها السلطات من أجل الاتفاق على شكل واحد للغة، تخيل مدى الإهدار في الوقت والمال عندما يضطر كل فرد من أفراد الشعب أن يتعلم كلا الشكلين وأن تصدر التصريحات الحكومية بكلا الشكلين، وهكذا، إن قصة اللغة النرويجية مذكِّر قوي بمدى عمق المشاعر اللغوية.

تخص الحالة الثانية التى نحن بصددها الآن اللغة الباسكية والتى تم استخدامها منذ آلاف السنين فى أقصى غرب "Pyrenees" (بايرنز)، فى منطقة تابعة للإمبراطورية الرومانية والتى تم ضمها بعد ذلك إلى فرنسا وإسبانيا مرورا بالحدود اليمنى للمنطقة المتحدثة للغة الباسكية، كانت هذه اللغة ذات مكانة لا تذكر فى ذلك الحين وفى القرن التاسع عشر والقرن العشرين تم اضطهادها بضراوة من قبل الحكومات المركزية فى باريس ومدريد والتى نما عندها الاعتقاد بأن استخدام اللغات الإقليمية أمر غير وطنى مخرب، ولقد ساد هذا الاعتقاد بين الحكومات فى جميع أنحاء العالم فى هذا القرن، بلغ هذا الاضطهاد ذروته من الجانب الإسبانى بعد انتصار الفاشية فى الحرب الأهلية الإسبانية عندما أعلن " فرانكو " الديكتاتور والجنرال الإسبانى عدم قانونية تحدث اللغة الباسكية.

بعد الانفراج التدريجى للقيود التى فرضها فرانكو وبخاصة بعد الإصلاحات الديمقراطية التى تبعت موته، بدأت اللغة الباسكية تواصل طريقها حثيثا نحو نيل حقوق سياسية، انتهى هذا الطريق بمنح معظم الباسكيين الإسبانيين الحكم الذاتى (لم يكن الباسكيين الفرنسيين فى مثل حظهم)، سار الجهاد من أجل تحسين مكانة اللغة الباسكية جنبا إلى جنب مع الصراع السياسى.

ترك كل من الإهمال والاضطهاد وكذلك اقتصار التعليم والعمل والسياسة والإدارة والنشر والطباعة والمنح الدراسية – اللغة الباسكية فى حالة من الضعف، وكان لانتشار وسائل الإعلام أسوأ الأثر، فقد كانت تهديدا جديدا بالغ التأثير، فقد غرقت المنازل الباقية البعيدة بأجهزة الراديو والتليفزيون التى تبث إنتاجها بلغات أخرى غير الباسكية.

بدأ الباسكيون فى تغيير مكانة لغتهم – مثلهم فى ذلك مثل النرويجيين والكثيرين من قبلهم – حتى يتسنى لهم إنشاء تنوع لغوى نموذجى فى متناولهم، آملين أن تتساوى لغتهم فى المكانة مع اللغة الإسبانية، واجه الباسكيون مثل النرويجيين من قبلهم بعض العوائق المثبطة للهمة والتى تبدأ فى التساؤل الآتى " أى نوع من الباسكية يجب تنشيطه ؟ ".

بالرغم من صغر مساحة بلاد الباسك فإنها تحوى سلسلة جبلية تقسمها إلى وديان ضيقة، وتختلف اللهجات الإقليمية الباسكية عن بعضها بعضا بدرجة أكبر من

اختلاف اللهجات الإنجليزية بإنجلترا، إذن من الممكن لكل من المفردات والنطق والأشكال النحوية أن تتغير بصورة درامية في كل جزء من البلاد لا تتعدى مساحته الكيلومترات.

تطلب هذا الأمر قدرا من القرارات والحلول الكافية، فقد تاق أغلب الناس رؤية خلق جديد لنموذج لغوى واحد ولكنهم فى ذات الوقت لم يرغبوا فى ترك الكلمات والأشكال التى ألفوها من أجل أشكال وكلمات يستخدمها آخرون، علاوة على ذلك، كان للباسكيين رأيهم الخاص فى التنوعات التى يتحدثها الآخرون، فقد اشتكى الباسكيون الإسبانيون أن اللغة الباسكية الفرنسية تبدو طنانة، بينما اعترض الباسكيون الفرنسيون أن الباسكية الإسبانية تبدو غير مهذبة وجافة، هذا وتمكن اللغويون رفيعو المستوى من أكاديمية اللغة الباسكية من وضع نموذج جديد للغة الباسكية يسمى "Euskara Batua" أو الباسكية الموحدة (يطلق الباسكيون على لغتهم (Euskara)، تقبل الباسكيون النموذج المثالى تدريجيا بحماس تارة وتذمر تارة أخرى حتى أننا نجد المتحدثين من صغار السن يتحدثون ويكتبون لغة "Batua" بجانب لهجتهم المحلية.

لا تسير الأمور عادة سيرا سهلا بلا مشاكل، فقد كانت الحرب التى قامت بشأن صوت "H" واحدة من أغرب الحوادث التى وقعت فى التاريخ السياسى للغات الأوروبية ككل والتى أضرت بالبلاد عام ١٩٧٠

يمتلك الباسكيون الفرنسيون الصوت الصامت "H" وينطقونه فى مئات من كلماتهم ويكتبونه بهجائهم التقليدى، أى أنهم يكتبون وينطقون كلمات مثل : "hau" (هذا)، "horma" (حائط)، "aho" (فم)، "behar" (يحتاج)، "alhaba" (ابنة)، "ethorri" (يأتى)، من الناحية الأخرى نجد أن الباسكيين الإسبانيين فقدوا صوت "H" من جميع كلماتهم منذ قرون مضت وقبل العهد الذى بدأت فيه كتابة اللغة الباسكية، فهم يكتبون وينطقون كلمات مثل : "au"، "orma"، "ao"، "bear"، "alaba"، "etorri"، لذا قررت الأكاديمية كتابة الصوت "H" فى كل الكلمات (كالكتابة الفرنسية) فيما عدا إذا كان هذا الصوت مسبوقا بصامت، ولذلك تحولت الكلمات السابقة عند كتابتها بلغة"Batua" إلى "hau"، "horma"، "aho"، "behar"، "alaba"، "etorri".

هل هذا قرار صائب ؟ يعتقد ذلك العديد من الملاحظين الذين لم يشهدوا الموقف، ولكن هذا القرار أثر بعنف على الباسكية الإسبانية، تسبب الصوت "H" في حدوث تحالف منقطع النظير بين الجناح الأيسر والجناح الأيمن للباسكيين وذلك في وقت الاضطراب السياسي الشديد (أي الفترة التي استخدم فيها فرانكو قبل موته والمرة الأخيرة سياسته المتشددة في القضاء على تطلعات الباسكيين)، عارض اليساريون بشدة تواجد الصوت "H" في لغة "Batua" بحجة أن الصوامت غير المنطوقة سوف تجعل اللغة المكتوبة مختلفة تماما عن اللغة التي ينطقها العامة (هم بذلك يهملون حقيقة أن الإسبانية النموذجية يكتب بها المئات من أصوات "H" (غير المنطوقة)، بينما عارض الجانب اليميني بشدة أكبر وحجة أوهى ألا وهى إنهم لم يكتبوا صوت "H" من قبل فما الداعى لأن يكتبونه الآن.

لم تسفر أية مناقشة بشأن تطوير لغة "Batua" عن أية نتائج، كان من المتوقع أن يستخدم حزب اليمين معرفتهم – فهم الأكبر سنا والأكثر معرفة باللغة الباسكية – للتأثير الإيجابي على تطوير تلك اللغة ولكنهم بدلا من ذلك شحذوا أذهانهم وقواهم لكتابة المقالات الصحفية والكتيبات، بل إنهم أصدروا كتابا كاملا يعارض لغة "Batua" بعامة والصوت "H" بخاصة، كما أنهم سخروا من اللغة الجديدة وأطلقوا عليها "eus"keranto" تلاعب بالألفاظ لتشبيه هذه الكلمة لغة الإسبرانتو وهي لغة صناعية شهيرة)، أما اليساريون بدورهم فقد كانوا أقل معرفة باللغة الباسكية وقد انشغلوا بالمناقشات الساخنة التي صدرت في الاجتماعات العامة وكتابة النقد اللاذع في المجلات السرية، استمر عدد من اللغويين وغيرهم من المتخصصين في عملهم الجاد من أجل إنتاج الآلاف من الكلمات الجديدة التي تمكن اللغة الباسكية من التطرق إلى موضوعات مثل الفيزياء والاقتصاد والنشر واللغويات، (تسمى هذه العملية بتخطيط اللغة) ولكن كان شغل رجل الشارع الشاغل في ذلك الوقت هو الحديث عن الصوت "H".

بالطبع تغيرت الظروف فتقدم اليمينيون المعارضون في السن ثم ماتوا بينما بلغ مؤيدو حزب اليسار العمر فكان همهم الأول البحث عن الوظائف وتربية أطفالهم وليس

مناقشة أمر الصوت "H"، بمرور الوقت أصبح كل فرد يكتب هذا الصوت في مواضع بعينها قررتها الأكاديمية، لا نستطيع تذكر آخر مرة سمعنا فيها أحد الأشخاص يذكر أمر الصوت "H"، إن الحرب التي قامت بسبب ذلك الصوت - رغم اختفائها الآن - دليل على المشاعر المثارة من جراء القضايا اللغوية التافهة، وفي هذا أيضا دليل على مدى اختلاف اللغة عن غيرها من الأشياء.